تيم والاس ميرفي

ماذا فعل الإسلام لنا

فهم إسهام الإسلام في الحضارة الغربية

ترجمة وتقديم:
فؤاد عبد المطلب







ماذا فعل الإسلام لنا

فهم إسهام الإسلام في الحضارة الغربية



Tim Wallace-Murphy

What Islam Did For Us

All Rights Reserved
Text Copyright © Tim Wallace-Murphy 2006
Published in the UK in 2006 by Watkins Publishing Ltd
www.watkinspublishing.co.uk



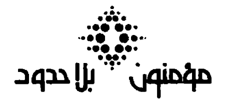
تيم والاس ميرفي

ماذا فعل الإسلام لنا

فهم إسهام الإسلام في الحضارة الغربية

ترجمة وتقديم:

فؤاد عبد المطلب







الكتاب: **ماذا فعل الإسلام لنا.. فهم إسهام الإسلام في الحضارة الغربية**
المؤلف: **تيم والاس ميرفي**
ترجمة وتقديم: **فؤاد عبد المطلب**

جداول
للنشر والترجمة والتوزيع
الحمرا ـ شارع كراكاس ـ بناية البركة ـ الطابق الأول
هاتف: 00961 1 746638 ـ فاكس: 00961 1 746637
ص.ب: 5558 ـ 13 شوران ـ بيروت ـ لبنان
e-mail: d.jadawel@gmail.com
www.jadawel.net

مؤمنون بلا حدود
زنقة غابس ـ الرباط ـ المغرب
هاتف: 00212537730450
e-mail: info@mominoun.com

الطبعة الأولى
تشرين الثاني / نوفمبر 2014
ISBN 978-614-418-253-6

جميع الحقوق محفوظة © جداول للنشر والترجمة والتوزيع
لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

طبع في لبنان

Copyright © Jadawel S.A.R.L
caracas Str. - Al-Baraka Bldg.
P.O.Box: 5558-13 Shouran
Beirut - Lebanon
First Published 2014 Beirut



المحتويات



الجزء الرابع

الجزء الخامس



الإهداء

أهدي هذا الكتاب باحترام
إلى أخي الروحي
رشيد ك. شريف البيه
من نيويورك.
إنه مشعل للتسامح والتفهم
تعلمت منه كثيرًا.




مكتبة
الفكر الجديد

كلمات شكر

لم يسبق أن جرى تأليف عمل كهذا من دون مساعدة وتشجيع ودعم من أشخاص عدة. وتعتمد مسؤولية محتويات هذا الكتاب كليًّا على المؤلف، لكنني أعترف ممتنًّا للمساعدة والتشجيع اللذين تلقيتهما من: ريتشارد بومونت من ستافرتون، في ديفون؛ ولورنس بلوم من لندن؛ وريتشارد بويدز من مرسيليا؛ ونيكول دو من أوكهامبتن؛ وساندي دوناغي من نيوتن آبوت؛ وجين ميتشل غارنييه من شارتر؛ والمرحوم غاي جوردن من بارغيمون؛ وجورجيز كيس من مركز فرسان الهيكل للدراسات والأبحاث، كامبين سور أود؛ ومايكل مونكتون من بكنغهام؛ والدكتور هيو مونتغومري من سامرسيت؛ وجيمز ماكاي مونرو من بنيكويك؛ وأندرو باتيسون من إدنبرة؛ وستيلا بيتس من أوتي سانت ماري؛ وألان بيرسون من ريني لي بينز؛ وأيمي رالستون من ستافرتون، في ديفون؛ وفيكتور روزاتي من توتنز؛ وبات سيبيل من أبردين؛ ونيفن سينكلير من لندن؛ وأليكس وود من شالدون؛ والأمير مايكل من ألباني، ومستشاري في أمور التحرير، جون بالدوك، الذي وجه يديّ عدة مرات في الماضي، وأخيرًا، مايكل مان وبني ستوبا من دار واتكينز للنشر.




مكتبة
الفكر الجديد

استهلالية المترجم

يقول أحد الباحثين في مراجعة لعمل ميرفي: «الكتاب في مجمله من أحسن ما كتب في السنوات الأخيرة لما بعد غزو العراق في موضوع الحوار الإسلامي الغربي. والسمة الكبرى للكتاب أنه ليس خطابات سياسية أو مقترحات للتواصل وفك الاشتباك فحسب بقدر ما هو تأصيل علمي تاريخي دقيق، متّزن وذو مصداقية من عالم غربي أنصف في كتابه الإسلام حتى غاظ بعض المتعصبين فحاولوا من خلال الردود على الكتاب توجيه الأنظار إلى سيل جديد من المؤلفات الأميركية (خلال السنوات الأربع الأخيرة) تقدح الإسلام وتهاجم نبيه وتتهم الحضارة الإسلامية بالخواء والادعاء. والكتاب يحتاج إلى ترجمة عربية ملحة حتى ينتفع به القراء العرب في أقرب الآجال»[1].

وانطلاقًا من هذا الرأي ومن حقيقة الحاجة إلى دراسات ترصد العلاقة بين الإسلام والغرب ماضيًا وحاضرًا ومستقبلًا نظرًا إلى التعقيدات والتحديات التي طرأت على هذه العلاقة مؤخرًا، قمت بمحاولة ترجمة هذا العمل والتقديم له وإبداء ملاحظات توضيحية في الهوامش حين تقضي الضرورة لعلّي أصيب الهدف آنف الذكر.

يتألف كتاب فيلسوف الأديان الإيرلندي تيم والاس ميرفي «ماذا فعل الإسلام لنا: إسهام الإسلام في الحضارة الغربية»، الصادر بالإنكليزية أول مرة عن دار واتكنز في لندن عام2006، من كلمة شكر ومقدمة وخمسة أجزاء ينقسم كل منها إلى فصول متباينة العدد والطول، وإحالات خاصة بكل جزء وثبت بالمراجع في نهاية الكتاب.

(1) طارق الشامخي، «باحث كاثوليكي يدافع عن الإسلام ضد التحيز الغربي»، مراجعة على الصفحة الإلكترونية لمؤلف الكتاب، ولعرض واف مع رأي تقويمي، انظر أيضًا بقية المراجعة.

مكتبة الفكر الجديد

تحمل أجزاء الكتاب الخمسة الأساسية العناوين العريضة الآتية: التقليد الأولي وأصول اليهودية والمسيحية، وتأسيس المسيحية، وتأسيس عالم الإسلام، وأوروبا المسيحية والرد على الإسلام، والعداء المستمر بين الإسلام والمسيحية.

ولا بد في البداية، من تقديم نبذة للقارئ العربي الذي لم يتعرف بَعد مؤلف الكتاب: دَرَسَ تيم والاس ميرفي الطب في الكلية الجامعية في دبلن بإيرلندا، وتخصص بعدها في الطب النفسي. ويعمل الآن مؤلفًا ومحاضرًا ومؤرخًا، فقد أمضى أكثر من ثلاثين عامًا يتقصى الأديان متبعًا مساره الروحي الشخصي، فكتب عددًا من المؤلفات المنتشرة انتشارًا واسعًا، منها: سمة الوحش (مع تريفور رافنسكروفت)؛ الملك الإله: اللغز الحقيقي لبلدة رين القلعة؛ روسلين: حارسة أسرار الكأس المقدسة (مع مارلين هوبكنز) وهذا الكتاب الذي استقى منه دان براون مادة مصدرية أساسية في روايته الشهيرة، شيفرة دافنتشي، وكتب أيضًا في وقت لاحق، تصدع شيفرة الرمز. ويعيش ميرفي حاليًّا في ديفون جنوبي إنكلترا. ولاشك أن مؤلف الكتاب واسع الاطلاع يمتلك ناصية البحث في الأديان، ولاسيما التوحيدية منها، تؤكد ذلك موضوعاته ومناقشاته وإحالاته على مراجع أساسية متخصصة واردة في نهاية الكتاب. كما أننا نلمس موقفه الفكري العام بوصفه إيرلنديًّا متعاطفًا مع مواطنيه الإيرلنديين المعارضين للسياسة والوجود الإمبريالي الإنكليزي، الموقف الذي يتماهى مع أصحاب قضايا التحرر في العالم أجمع.

يقول ميرفي إن كتابه يمثل محاولة في تقصي الإسهام الإسلامي في الحضارة الغربية التي تقتضي مراجعة كيفية فهم الشعوب الأوروبية للإسلام، فالأوروبيون ينقسمون إلى أناس متعاطفين ومتفهمين للإسلام وإلى أناس لا يعبرون عن ذلك الفهم والتعاطف. ويناقش الكتاب في أجزائه المختلفة الديانات السماوية الثلاث وتجاربها التاريخية العملية من خلال حوار سياسي يتطور وصولًا إلى الأيديولوجية الصليبية. وعلى الرغم من أن المؤلف لا يخوض بالتفصيل أو بوضوح في تقديم حلول أو رؤىً فكرية للمشكلات الأساسية التي يعرض لها، فإنه يقترح في مقدمته أن يكون عمله: «لفهم كيف تدنت العلاقة بين اليهودية والإسلام والمسيحية إلى مستواها الحالي من التعصب وعدم الثقة، من الضروري العودة بالزمن إلى الوراء لتفحص الأصل وا

مكتبة الفكر الجديد

والتطور المشترك لجميع هذه الأديان الكبيرة الثلاثة والعلاقات المتغيرة فيما بينها»(*). بيد أنه حين يعود عبر التاريخ مفتشًا عن أصول النزاع وعدم الثقة السائدة بين عالمي الإسلام والغرب لا يجد ما يثبت ذلك إلا في الجانب الغربي وعلى الرغم من أنه مؤرخ كاثوليكي المنشأ، فإنه يشير صراحة إلى أن عدم التسامح والتعصب إنما نشأ أساسًا في العالم الغربي ولا سيما خلال أعوام محاكم التفتيش للكنيسة الكاثوليكية في أوروبا منذ عهد فرسان الهيكل في القرن الحادي عشر مرورًا بالحروب الصليبية وحتى ما بعد سقوط الأندلس في القرن السادس عشر إلى بدايات عصر النهضة والتنوير، وقيام العلماء والمفكرين والفنانين وحركات التحرر والعلمنة بكبح جماح الكنيسة والدولة.

على الرغم من أزمنة الاضطراب التي يمر بها العالم حاليًا، والتي تصاعدت في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول عام 2003، واحتلال العراق وأفغانستان، والعمليات التي تسمى بالانتحارية ضد المصالح الغربية وانتشار الحركات الجهادية المتطرفة، التي ظهرت نتيجة شعور دائم هو أن الإسلام مازال يتعرض للهجوم الغربي الذي لا يتوقف، تظهر في خضم هذه الأحداث كتب تدرس حجم الإسهامات التي يدين بها الغرب لتبصرات الإسلام الروحية وهو حقًّا أمر لافت للنظر. يقدم الكتاب الحالي عرضًا واسعًا للجذور المشتركة بين اليهودية والمسيحية والإسلام ساعيًا في الوقت نفسه إلى إظهار إسهامات الإسلام العظيمة في المجتمع الغربي، بما في ذلك إرساء أسس أنظمة التربية والتعليم والفلك والرياضيات والهندسة. كما يبين كيفية قيام القوى الغربية الأوروبية في إذكاء نار الأزمة الراهنة في الشرق الأوسط، ولماذا يجب على الجميع البحث عن حل عادل متوازن للمشكلات الناجمة عن هذه الأزمة. ووفقًا لميرفي إن إحراز التفاهم بخصوص ذلك لا يمكن أن يبدأ إلا بالاعتراف الصريح بالتراث الروحي المشترك بين الغرب وعالم الإسلام، بما في ذلك مبادئ التسامح الديني واحترام العلم ومفاهيم الأخوة والفروسية.

وحسب ميرفي تصور وسائل الإعلام الحالية في الغرب الإسلامَ على نحو مخيف

(*) تيم والاس ميرفي، ماذا فعل الإسلام لنا: **فهم إسهام الإسلام في الحضارة الغربية** (لندن: دار واتكنز للنشر، 2007) ص،1 .

مكتبة الفكر الجديد

فهو دين غريب يحمل نطاقًا فكريًّا متعصبًا توسطيًّا قروسطيًّا(*)، ويعبر هذا غالبًا عن سوء فهم متعمد للخيوط المشتركة والقرابة الدينية التي يشترك بها الإسلام مع المسيحية واليهودية، هذا ما تفصح عنه فصول كتاب ميرفي الغنية بالمعلومات. وفي هذه الأجواء التي يشوبها التوتر والخوف وعدم الثقة، كما يقول ميرفي، من الضروري أن نتذكر كم هي مدينة ثقافتنا الغربية لتقاليد الإسلام السمحاء. ويقدم ميرفي بينات من الكتاب المقدس، وشرحًا لعمليات التبادل التجاري والثقافي وكشفًا لمدارس الطقوس السرية الدينية للكنيسة المسيحية المبكرة والحرب المقدسة، كي يظهر هذا الجانب من التراث المنسي.

وفقًا للمؤلف، تكمن أصول الإسلام، مثل أصول اليهودية والمسيحية، من رحلة خرجت من مصر مهد ديانة التوحيد، إذ إن الإسلام يشترك في سلفه مع سلفي اليهودية والمسيحية المتمثل بالنبي إبراهيم عليه السلام، والذي يُحترم بوصفه مؤسسًا للشعب اليهودي من خلال زوجه سارّة وبوصفه أبًا للشعوب العربية عبر زوجه هاجر، خادمة سارّة(**). فحسب التوراة، ولد إبراهيم في أور، وينبري ميرفي لتقديم دليل يدعم وجهة النظر حول كون النبي إبراهيم مصريًّا، فاسمه «أبرام» يعني بالمصرية القديمة «أبو الأمم»، واسم «سارّة» مصري أيضًا ويعني «أميرة».

يتتبع المؤلف بزوغ ديانة التوحيد، منذ ظهور اليهودية، ثم المسيحية، وانتهاءً بالإسلام. ويلاحظ القارئ المدقق أن ميرفي لا يماثل المستشرقين في أثناء محاكمته للمصادر الإسلامية، كما يفعل حيال المصادر اليهودية-المسيحية. وكأنه يقول ضمنًا: إن ميول التحريف والتزوير لم ينالا نيلًا من المصادر الإسلامية الأصلية كما هو في حال الديانتين السماويتين السابقتين. وكما قام السيد المسيح عليه السلام، فعل النبي محمد ﷺ،

(*) انظر: ليزلي كروسنغهام، مراجعة لكتاب ماذا فعل الإسلام لنا: **فهم إسهام الإسلام في الحضارة الغربية**، مجلة نيو دُون، العدد 102 ، ص، 1 ولمزيد من التفاصيل يمكن العودة إلى ص 2و 3.

(**) من الواضح هنا أن المؤلف يعرض الرواية التوراتية حول أصل التوحيد والنبي إبراهيم وزوجتيه سارّة وهاجر. ومن المفيد أيضًا مقارنة ذلك بما أورده محمد نجيب البهبيتي في كتاب، **المعلقة العربية الأولى أو عند جذور التاريخ**، الجزء الأول، راجع الفصول التي تدرس التوحيد وأصوله العراقية، ورحلة النبي إبراهيم عبر سوريا وفلسطين وزيارته مصر لتلبية دعوة وجهت إليه من المصريين الذين يدينون بالتوحيد لتكريمه بوصفه شخصية كبيرة معروفة بالتبشير بوحدانية الإله، وزواجه من سيدة مصرية نبيلة، هاجر ابنة كبير كهنة معبد آمون، وليست خادمة لسارّة العبرانية. [المترجم]

مكتبة الفكر الجديد

لم يدّعِ تشكيل دين جديد، بل دين يصحح أو يعيد صوغ التوحيد الحقيقي، الذي كان قد تشوه على يد اليهود، ثم ابتعد عن مساره عبر الاعتقاد المسيحي بالتثليث وألوهية المسيح. وعلى الرغم من وجود عدم توافق بين وجهات النظر تلك، صرّح النبي محمد ﷺ أن أصحاب «الكتاب» جميعًا، أي المؤمنين بالتوراة والإنجيل، يجب احترامهم وتركهم وشأنهم يمارسون طقوسهم ومعتقداتهم الدينية. وقد أدى مجيء الإسلام إلى انبثاق عظيم لروح العلم والتقصي العلمي إذ نشأت علوم كاملة في اسمها ومفهومها من مصطلحات وجهود عربية وإسلامية. وقد برز الإسلام في وقت مبكر من القرن السابع الميلادي في جزء غير معروف من شبه الجزيرة العربية، وأنتج حضارة متطورة للغاية كان مصيرها أن تؤثر عميقًا في تطور الثقافة الأوروبية، وفي الثقافة العالمية كلها من بعد. وفي مقارنة مثيرة مع الكنيسة المسيحية ونظرتها العالمية غير المتسامحة، شكل الإسلام منذ بداياته الأولى واحة للتقوى والعدل والتسامح والتعايش الديني.

وحين كانت العصور المظلمة بما فيها من وحشية تطحن القارة الأوروبية، كان الإسلام يزدهر. ولأن النبي محمدًا ﷺ كان يحث أصحابه وأتباعه على تحصيل العلم واحترام الحكمة، جرت حماية الكثير من العلوم اليونانية ودراستها على نحو جاد من قبل علماء المسلمين. يحاول ميرفي لفت الانتباه إلى الزعم الذي يتباهى به الغرب دائمًا حول استحواذه العلم المطلق والمعرفة والتسامح والبحث العلمي، فضلًا عن الحرية والديمقراطية، متناسيًا أن التقاليد الأولية مقتبسة من الحضارة الإسلامية وأن الغرب مدين بالكثير من حضارته الحالية للإسلام وتقاليده في التسامح والبحث العلمي الحر وصولًا إلى تقاليد الفروسية والعهد والشرف التي تعلمها الفرسان الأوروبيون بعد احتكاكهم أول مرة بنظرائهم المسلمين إبّان الحروب الصليبية التي ناهزت 200 عام. ولعل المثال الأبلغ الذي يورده ميرفي عن هذا كله، ما جرى تحت الحكم الإسلامي في ذروة تطور إسبانيا الإسلامية، حيث تعايشت الأديان التوحيدية الثلاثة في انسجام ملحوظ، متمتعة بدرجة عالية من التسامح الديني في بيئة مزدهرة اجتماعيًا وفكريًا وفنيًا. وثمة تقاليد عظيمة، يؤكدها ميرفي، نشأت عن ذلك التعايش الإيجابي منها حقيقة الكليات الجامعية الإسلامية التي بنيت في الأندلس وغدت نموذجًا أصليًا لكليات أكسفورد وكمبردج في إنكلترا. كما أن أول مدرسة طبية مؤثرة في أوروبا تأسست على أيدي أطباء يهود تعلموا باللغة العربية وتدربوا على أيدي أطباء قرطبة وغرناطة وطليطلة. وقدمت الثقافة الإسلامية للغرب أسس الرياضيات والإبحار في المحيطات وه

مكتبة الفكر الجديد

الأقواس وفن المعمار القوطي. ولعل معظم الناس يعلم أن علم الكيمياء يستند في اسمه وأصوله إلى تراث الإسلام وإنجازات الكيميائيين الذين أبدعوا هذا العلم. وقد ولد هذا التأثير فيما بعد إبداعات عصر النهضة وازدهار الثقافة والفن فيه.

ويسهب ميرفي في الجزء الرابع في حديث مفصل عن الأهوال التي شهدتها أوروبا في العصور الوسطى: داخليًا الاقتتال الأوروبي المستند إلى محاكم التفتيش والتطهير المذهبي وتشدد الكنيسة الكاثوليكية التي لم توفر جهدًا في سفك دماء مخالفيها من المسيحيين غير الكاثوليك وحرقهم أحياء في الساحات العامة أو في بيوتهم كما فعلت وربما على نحو أقسى بالمسلمين بالحملات الصليبية الأولى. ويقدم مثالًا عن تلك القسوة فتح الأوروبيين الكاثوليك للقسطنطينية التي كانت تحكمها الكنيسة الشرقية وملك مسيحي أرثوذكسي. وحسب وصف المصادر التاريخية المرعب دُمرت كنائس المهزومين واغتصبت الراهبات وبقرت بطون الحوامل وصال وجال المحاربون السكارى بالسكاكين والسيوف يحتفلون بأيام الفتح العظيم. وربما كانت أسوأ صفحة في تاريخ الغرب هي الحملات الصليبية المتوحشة الي عُرفت بالحرب المقدسة التي أثارتها وشجعتها أيضًا الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، ويذكر ميرفي كيف استفاد مؤسسو نظام فرسان الهيكل بصورة غير مباشرة من المسلمين، وهو نظام من رجال دين محاربين غرضه حماية الحجاج في طريقهم من ميناء يافا إلى القدس. فمن المثير ملاحظة أن أولئك الفرسان أمضوا وقتًا طويلًا يحاولون استكشاف جبل الهيكل تحت تأثير من المتصوفين الإسلاميين. ويتطرق ميرفي بعد ذلك للتاريخ المسيحي، بما في ذلك تدمير ما يسمى بدين الزنادقة، الذي يُعتقد أنه تأسس على يد مريم المجدلية، ولاجتياحات القدس من قبل الملك ريتشارد قلب الأسد ومعاركه العديدة مع القائد المسلم صلاح الدين يوسف بن أيوب. ويتحدث المؤلف عن جهود صلاح الدين في توحيد جيوش الإسلام وقيادتها إلى النصر على الصليبيين في النهاية، وبروزه بوصفه قائدًا عسكريًا قويًا مستنيرًا ومتسامحًا.

ويصل ميرفي في الجزء الخامس إلى أوروبا الحديثة والنظام الاستعماري الجديد الذي يطلق عليه صراحة تعبير «نظام فرِّق تسد» والذي لم يكن يبتعد كثيرًا عن مفاهيم الكنيسة الكاثوليكية في التعامل مع العالم الإسلامي. غير أن ميرفي يسرد بوضوح أن الدولة العثمانية كانت محظوظة في بدايات تكونها في القرن الرابع عشر إذ

مكتبة الفكر الجديد

ذلك مع قيام الأوروبيين الجدد الجشعين في البحث عن طرق لتجارة التوابل وفي خوض بحار جديدة غير البحر الأبيض المتوسط بحثًا عن مصادر جديدة للثروة وعن مستعمرات سهلة المنال. هذا الافتراق في ميادين التحرك جعل التجاذب الأوروبي الإسلامي ضعيفًا نسبيًا وإن كان الجانب الإسلامي قد تراجع بسبب سقوط الأندلس وسريان محاكم التفتيش على بقايا المواطنين المسلمين والرعايا اليهود والمسيحيين غير الموالين للكنيسة البابوية لمدة تجاوزت القرن من الزمن. ويسأل ميرفي هنا بصراحة: ما أسباب التعصب المسيحي في التاريخ؟ ولماذا يتحول اليهود فجأة إلى أناس شرسين من أجل الأرض والسلطة بعد أكثر من 1800 عام من الخمول التاريخي؟ ولماذا يتحول العالم الإسلامي إلى تعصب شديد ضد اليهود بعد أن عاشت جميع الأطراف جنبًا إلى جنب في انسجام وتسامح أكثر من 15 قرنًا؟ لماذا تُكْره بريطانيا وأمريكا في العالم الإسلامي؟ لماذا يقوم المتطرفون المسلمون بالانتفاضة ضد إسرائيل ويفجرون مبنى التجارة العالمية ويعلنون الجهاد باسم الإسلام؟ ويجيب ميرفي نفسه بأن الأسباب التاريخية معروفة عمومًا ولكن يجب على أيّة حال ألّا ننكر أن القوى الغربية قد قامت على نحو متكرر بمحاولات اعتداء وإذلال وخيانة للمجتمعات الإسلامية عبر وعود كثيرة كاذبة، وسياسات لتدمير الحكومات الوطنية الشرعية المنتخبة، وإعادة رسم الحدود في المنطقة العربية، وتقسيم البلاد إلى عشائر وطوائف ومجتمعات متفرقة. وقد أدّى اكتشاف حقول النفط على نطاق واسع إلى تغير الخارطة السياسية لشبه الجزيرة العربية، فجعل الشرق الأوسط ميدانًا قتاليًا غربيًا، بحيث أصبح الكثيرون في المنطقة يسمونه ومن منطلق سياسي «حملة صليبية» بوصفها حملة وحشية قاسية وظالمة تماثل الحملات الصليبية القروسطية ذات الأهداف السياسية المعلنة. ويستعرض ميرفي وفقًا لتساؤلاته تلك شواهد عدة من التاريخ الحديث على استعداء الغرب واستعماره أجزاء كبيرة من العالمين العربي والإسلامي قبل وما بين الحربين العالميتين مما أسهم في خلق أجواء من الفوضى والعنف وانعدام التسامح الديني، ولم يستثن من هذا الأمر ما فعله الكيان الإسرائيلي. ويورد على سبيل المثال الرسالة المفتوحة للنائب البريطاني وزعيم الجالية اليهودية جيرالد كوفمان إلى رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق أرييل شارون مذكرًا إياه أن نجمة داود لجميع اليهود في العالم وليست للإسرائيليين وحدهم وليست ملكًا خاصًا لدولة إسرائيل، لذلك لا يحق له ولإسرائيل تلطيخها بدماء الفلسطينيين الأبرياء.

مكتبة الفكر الجديد

كُتب هذا العمل بشكل جيد، واتبع فيه الكاتب أصول البحث معتمدًا على مراجع ومصادر واسعة ومتنوعة ودقيقة التخصص، لذلك جاء مفعمًا بالمعلومات التاريخية والدينية، ولا سيما حين يخوض في التاريخ اليهودي والمسيحي محاولًا تبيين جوهر الرسالتين اليهودية والمسيحية مستنطقًا النصوص والشواهد والمكتشفات الأثرية الحديثة بعمق وصبر وموضوعية فكرية. ويفيد هذا الكتاب دارسي التاريخ والأديان المقارنة والعلاقات الدولية ولا سيما بين العالم الإسلامي والغرب في الماضي والحاضر من خلال رحلة منيرة ومفيدة منذ بدايات التوحيد الديني في مصر وحتى الأزمنة الحديثة. ولعلنا جميعًا نقف أمام هذا الإرث الديني العميق الذي يتتبعه ميرفي عبر تبصراته الخاصة، لعلّ جميع أحفاد إبراهيم، وفقًا للمؤلف، يصبحون قادرين على مواجهة التحديات التي ستعرض لهم مستقبلًا؛ لذلك يحاول ميرفي من خلال تفحصه للتقليدين اليهودي والمسيحي ربطهما بتاريخ الدين والمجتمع الإسلاميين لتوكيد العوامل المشتركة فيما بينها.

على القارئ العربي الانتباه إلى أن هذا العمل كتب في مجمله من منظور فكري غربي ويخاطب من حيث الأساس القراء الغربيين، وأن يأخذ في الحسبان أنه سيصادف أفكارًا تعجبه وأخرى قد تستوقفه؛ لذلك كانت القراءة المطلوبة في التعامل مع المعلومات الواردة تستدعي التأني والتفكر والنقد أيضًا؛ وستؤدي هذه القراءة بدورها إلى نظرتين فكريتين مختلفتين في أثناء تكوين رأي تقويمي للكتاب. فحسب وجهة النظر الأولى، يمكن للقارئ أن يفكر مليًّا في عنوان الكتاب وتوصيفاته واقتراح عنوان مغاير مثل الإبداع العلمي اليهودي في التاريخ أو الأسس الدينية للحضارة الأوروبية أو أوروبا المسيحية وعلاقتها بعالم الإسلام أو مسح شامل لدين الإسلام وعلاقته بالديانتين اليهودية والمسيحية أو أصول التوحيد وتطورها في الديانات السماوية أو الإسهام الإيرلندي في الحفاظ على الثقافة الأوروبية، مرجّحًا رؤيته بحالات دراسية أو أمثلة تدعم أطروحته. فالتأمل في عنوان الكتاب يوحي مثلًا بوجود فصل كامل حول سبيل كون الكليات العلمية في إسبانيا الأسلاف المباشرة لجامعات أوروبية مثل السوربون وأكسفورد وكمبردج، بدلًا من ذلك يعثر القارئ على صفحة أو صفحتين حول هذه الحقيقة التي تحتاج إلى التفصيل والتدعيم. وانطلاقًا من ذلك يمكن النظر إلى بقية الكتاب على أنها تنظير فحسب أو تأريخ عام مستقى من كتب أخرى، بمعنى أنه لا يوجد هنا عمل بحثي أصيل أو جيد. ومن ثم يعرّج الكتاب للحديث عن

مكتبة الفكر الجديد

انهيكل، وسينبري القارئ للتساؤل عن مدى علاقة هؤلاء بالإسلام وبإسهاماته في الحضارة الغربية، وقد يتولد لديه شعور أن الكتاب يدور حول فرسان الهيكل وروسلين تشابل والكنيسة البابوية وغيرهم، لذا قد يُتهم الكتاب أنه بحث يعوزه التركيز. أما القراءة من وجهة النظر الثانية، فتوحي أن ميرفي يقدم شرحًا دقيقًا ومكثفًا عن تاريخ التجارب والصراعات والانتصارات والتنافسات والإسهامات التي انبثقت عن الأديان العالمية التوحيدية التي يجب أن يطلع عليها أي قارئ ينتمي إلى هذه الأديان الثلاثة أو يهمه أمرها. وذلك لأنه كان من المفيد والممتع أن يتعلم المرء دروسًا من التاريخ وسيظلّ كذلك، شريطة ألا يجري تجاهل الحقائق. بناء عليه يظهر الكتاب وكأنه نفحة من هواء نقي في أجواء تسممها وسائل الإعلام الغربية، حيث يتغلغل كثير من التشويه والوهم والعداء للإسلام. وثمة حقائق هنا على القارئ العربي أن يضعها في الحسبان، إن نشر كتاب ينتصر لإسهامات الإسلام أو يدافع عنها أو ينصفها أو يتفحصها هو أمر لا يُشجَّع في الغرب، أوروبا وأمريكا عمومًا، على الرغم من وجود التقدم والحرية والديمقراطية المزعومة، وإن قراءة التاريخ وتفحصه تتيح فرصة معرفة أن الكثير من الآلام والمعاناة التي تصيب المرء تأتي من عملية جلد الذات، وعليه كانت الوقائع التاريخية التي يزودنا بها المؤلف تثبت أنه إذا نظرنا إلى ما وراء مئة السنة الأخيرة، فإننا نجد أن المسلمين كانوا من أكبر المساهمين في التسامح والتعايش والاستقرار والنمو العالمي، أكثر من أتباع أي معتقد آخر، وتدفع وجهة النظر الثانية القارئ أن يستمتع بالأحداث التاريخية الواردة في الكتاب بالعودة إلى ذلك التنوع الواسع في مراجعه؛ كما تجعله يشعر بذلك الانتقال اللطيف من الشرح للتقاليد الأولية باتجاه تفسير العلاقات الدينية والحضارية بين القارات في العصر الحديث. أما موضوعات الجزء الأخير المحرم ذكرها في الغرب، بغض النظر عن مشاهدتها، والتي لو تجرأت وسائل الإعلام وامتلك أصحاب القرار الشجاعة الكافية لمناقشتها، لأصبح الطريق قصيرًا في عملية السعي للوصول إلى حلول سلمية للنزاعات مع العالم الإسلامي. وفي الواقع، إن الروح العملية الساعية لإيجاد حل سلمي للأزمات الحالية بين شعوب الشرق الأوسط والأيديولوجية الغربية، تكمن أولًا في عملية نشر لهذه التوترات وتفحصها ومناقشتها، ويبدو أن مؤلف الكتاب قام بهذه الخطوات لتلطيف ذلك التوتر من خلال تذكيرنا وإطلاعنا على ذلك التاريخ المشترك بين الأطراف المعنية.

وبالنسبة إلى الجزء الأخير من الكتاب والذي يكتسب أهمية حيوية نسبيا



الأجزاء الأربعة السابقة(*)، فإنه يعالج تحديدًا العداء المتنامي ضد المسلمين في أوروبا في أعقاب الدعوة إلى الحروب الصليبية. ويبرز السؤال: كيف تطور هذا العداء وكيف ثارت أوروبا فجأة في هذه الحرب المقدسة؟ ويبقى من الأسئلة التي لا جواب عنها في الأدب المكتوب حول الحملات الصليبية، التي ما زالت تثير كثيرًا من تساؤلات. بيد أن ميرفي يبقى هادئًا حيال أسباب هذه التطورات، وربما يأمل أن تثير تساؤلاته بعض الإجابات والمناقشات: هل حدث ذلك نتيجة للتحول المستمر باتجاه دين الإسلام والذي بدأ مع الفتح الإسلامي لإسبانيا مع زخم متزايد بعد عصر النهضة، فقد طورت أوروبا الشرقية مواطن ثقافية إسلامية قوية، اتسعت أكثر فأكثر في أيام الإمبراطورية الإسلامية، وتركزت بعدها في حقبة الرد التي بدأها المسلمون في أرجاء المناطق التي تعرضت للاستعمار الغربي جميعها وظلت فيما بعد فريسة للقوى الغربية، سواء في يوغوسلافيا أو فلسطين أو كشمير أو العراق أو أفغانستان وأصقاع أخرى بهدف السيطرة على أراضيها لاستغلال مواردها الطبيعية والاقتصادية، ولا سيما في البلدين الأخيرين. ومن المعروف والمُنتَقَد على نحو واسع أيضًا أن معظم البلدان الإسلامية، بما في ذلك الباكستان وبعض البلدان العربية، تجد نفسها مضطرة دائمًا للوقوف وراء السياسات الغربية الكونية. إجمالًا يشكل كتاب ميرفي اعتذارًا عن السياسات الغربية تجاه عالم الإسلام، مع الوعي في الوقت نفسه أن التأثير الذي تحدثه مثل هذه الأعمال في السياسات الغربية الرسمية وفي خزانات الفكر في أمريكا وأوروبا وإنكلترا ليس بذي بال.

ختامًا، لقد أضفت إلى الكتاب بنسخته العربية استهلالية ضمنتها تعريفًا بالمؤلف والكتاب مع نظرة تقويمية عامة. وحاولت في ترجمتي هذا الكتاب أن أتبع قدر المستطاع أسلوب الترجمة الأمينة. ووضعت في أثناء عملية الترجمة نصب عينيَّ هدف تعريب الكلمات والعبارات والجمل ما أمكن بحيث لا تخرج في النهاية عن سياقات النص الأصل ومعانيه. وألحقت بالنص أحيانًا شروحات أو تعليقات موجزة حيث اقتضت الضرورة فرض التوضيح أو التعقيب أو التنويه بنقاط حساسة وردت في النص، وذلك لأن طبيعة الموضوع المدروس وأسماء الأعلام والأماكن والجماعات الدينية

(*) من أجل عرض مفصل لأجزاء الكتاب الخمسة مع تقويم مقتضب، انظر مراجعة سيد عباس علي لطبعة جنوب آسيا في مجلة، **رؤيا باكستان**، 2008، المجلد 11، العدد 1 ، ص 274ـ281. [المترجم].

مكتبة الفكر الجديد

والوقائع التاريخية ستشكل بالضرورة صعوبةً بالغةً أمام المترجم في أثناء محاولته إعادة تلك الأسماء إلى أصولها سواء أكانت عربية أم أعجمية. وتدفع هذه الصعوبة المترجم لإنفاق وقت وجهد طويلين في كثير من الأحيان في عملية البحث في المعاجم أو الموسوعات والشابكة الإلكترونية للتأكد منها. وفي النهاية، لا بد لي أن أشكر عددًا من الأصدقاء ممن قدموا لي المشورة والتوجيه، والطباعة والتنسيق، والمراجعة والتصويب؛ فإن وقعت أخطاء فلا علاقة لهم بها، وجزاهم الله كل خير، وعليَّ يعود تحمل وزرها. وجلُّ قصدي من هذه الترجمة تقديم كتاب واضح بالعربية لمؤلف إيرلندي في موضوع يهمنا جميعًا عسى أن يكون مفيدًا ويدفع إلى شيء من النقاش والنقد والمراجعة، فإن أصبت فهذا ما أصبو إليه، والله الموفق.

فؤاد عبد المطلب




مكتبة
الفكر الجديد

المقدمة

ثمة شتيمة صينية قديمة تقول «ليتك تعيش في أوقات مثيرة»، وتُعرّف الأوقات المثيرة بأنها أيام الاضطراب. ونحن بالتأكيد نعيش اليوم في تلك الأوقات مدركين أن الدول الغربية في حالة حرب مع الإسلام، ويرد المتشددون المسلمون بموجات غير متوقَّعة من الإرهاب: الهجوم على البرجين التوأمين في نيويورك، هجوم تفجيري انتحاري على نادٍ ليلي في بالي، تفجير قطارات في مدريد والهجمات على قطار الأنفاق في لندن بتاريخ 7 يوليو/ تموز 2005.

لفهم كيف تدنت العلاقة بين اليهودية والإسلام والمسيحية إلى مستواها الحالي من التعصب وعدم الثقة، من الضروري العودة بالزمن إلى الوراء لتفحص الأصل والتاريخ والتطور المشترك لجميع هذه الأديان الكبيرة الثلاثة والعلاقات المتغيرة بينها. ونكتشف بعد ذلك أن الإسلام أظهر على نحو تقليدي درجة حقيقية وعميقة من التسامح تجاه الدينين الكبيرين الآخرين. وفي القرآن الكريم يوصف المسيحيون واليهود بأنهم «أهل الكتاب» وقد جرت معاملتهم باحترام وتسامح في العالم الإسلامي خلال تاريخه الطويل. وأهل الكتاب هم الأديان، مثل المسيحية واليهودية التي تأسست، مثل الإسلام نفسه، على مصدر مكتوب من الوحي الروحي[1]. بالإضافة إلى ذلك، كما سنكتشف أيضًا، أن مساهمة الإسلام في تطوير الثقافة الأوروبية كانت عميقة.

مع الدمار المأساوي للقدس على يدِ الجيش الروماني عام 70 الميلادي، كان على غالبية الشعب اليهودي، ومنه عائلات الأُسر الأربع والعشرين، وهم الكهنة المتوارثون

(1) غودوين، جفري، إسبانيا الإسلامية، ص 8 و9.

مكتبة الفكر الجديد

الكبار للهيكل الذين تنحدر منهم عائلة المسيح، أن يهربوا حفاظًا على حياتهم[1]. وقد تشتت الكهنة المتوارثون في جميع أنحاء العالم المعروف مع استقرار العديد منهم في أوروبا وعبور بعضهم نهر الأردن ليستقروا في الجزيرة العربية بين المنفيين اليهود الآخرين. نشأ محمد في منطقة تسكنها أقوام يهودية كثيرة انحدرت من الذين هربوا إلى الجزيرة العربية بعد عام 70 الميلادي. وعلى الرغم من أن التأثير اليهودي كان فعالًا في تلك المنطقة، فإن تأثير المسيحية القبطية والسورية كان أقوى. على أية حال، كان هؤلاء هم المسيحيين الذين يمكن النظر إليهم بوصفهم زنادقة تمامًا من قبل السلطات الكنسية في أوروبا، لأنهم اعتقدوا أن المسيح كان بشرًا وليس إلهًا[2]. كان محمد، الذي ولد في المدينة[*] عام 570 ميلادي، أو حوالي ذلك العام، مقتنعًا كليًّا أنه «رسول حقيقي لله» وفق التقليد الروحي الجليل والقديم لإبراهيم وموسى وإيليّا ويوحنا المعمدان والمسيح[3]، ولم يعدّ نفسه مؤسسًا لدين جديد أكثر مما كان عليه المسيح من قبله. وكان يعتقد أنه بُعث لإعادة التوحيد الحقيقي بالتأكيد على الدين القديم، دين «الله الحقيقي الواحد». ووفقًا للنبي محمد، كانت حقيقة التوحيد قد ظهرت لكل من اليهود والمسيحيين لكنهم إما حرّفوا الرسالة أو تجاهلوها[4].

على خلاف المسيحية، التي حاولت قمع جميع الأديان المنافسة، حافظ الإسلام منذ بدايته على درجة كبيرة من التسامح تجاه الأديان الأخرى، وكان أفراد جميع الأديان التوحيدية الكبيرة الثلاثة في العالم قادرين على العيش معًا في سلام وانسجام نسبيين تحت الحكم الإسلامي المتسامح. فاليهود، على سبيل المثال، الذين كانوا يطارَدون حتى الموت أو يُعدون مواطنين من الدرجة الثانية في أوروبا المسيحية، تمتعوا بنهضة ثقافية غنية خاصة بهم[5]، وكان مسموحًا لهم، مثل المسيحيين، بحرية دينية كاملة في جميع أنحاء الإمبراطورية الإسلامية. لقد جرى إنتاج مجلدات دراسية مخصصة

(1) يوسابيوس، **التاريخ الكهنوتي**، الكتاب الثالث، الفصل 11؛ أرمسترونغ، كارين، **تاريخ القدس**، ص 153.

(2) هاتشتاين، ماركوس ودليوس، بيتر (تحرير) **الفن والعمارة الإسلاميان**، ص 12.

(*) كذا في الأصل الإنكليزي والصواب أنه وُلد في مكة. [المُترجم].

(3) هاتشتاين، ماركوس ودليوس، بيتر (تحرير) **الفن والعمارة الإسلاميان**، ص 14.

(4) المصدر السابق نفسه، ص 16.

(5) أرمسترونغ، كارين، **محمد**، ص 23ـ24.



للحكمة الأولية في التيار الباطني التقليدي اليهودي المعروف باسم «كابالاه»(*) في المدارس الدينية اليهودية في إسبانيا المغربية، وكانت غالبية المسيحيين الإسبان تعتز كثيرًا بالانتماء إلى ثقافة متقدمة ومتطورة جدًّا تسبق بقية أوروبا بسنوات ضوئية. كان تقليد السر الديني الإسلامي متقنًا لدى مدارس السر الديني الصوفي في الأندلس التي قدمت مصادر واضحة ويسهل الوصول إليها من أجل التعليم الباطني في قارة قاحلة روحيًا بطريقة أخرى[2].

كان تأثير إسبانيا المغربية في تطوير الثقافة الغربية عميقًا فعلًا. فعلى سبيل المثال، كانت الكليات ذات الحضور الجيد والتي تتلقى منحًا سخية في الأندلس ستقدم لاحقًا نموذجًا لكليات أكسفورد وكمبردج في إنكلترا[3]. وعندما كان أغلب النبلاء والملوك والأباطرة الأوروبيين غير مثقفين تقريبًا، كان البلاط الأموي في قرطبة الأكثر تميزًا في أوروبا ويقدم ملاذًا للفلاسفة والشعراء والفنانين وعلماء الرياضيات والفلكيين[4]؛ كما قدمت إسبانيا الإسلامية إلى أوروبا تراثًا معماريًّا وفنيًّا لا يزال مثيرًا للإعجاب في العالم الحديث. وكانت الترجمة من العربية، وليس من اليونانية الأصلية، هي ما زحفت إليه معرفة الفلاسفة اليونانيين بحذر عائدة إلى الاتجاه العام للفكر المسيحي عن طريق المدارس في إسبانيا[5]. وإلى جانب الفلسفة والرياضيات والعلوم حصل تقدم أحدث في الطب والفن والهندسة المعمارية. كانت هذه كلها ثمار بصيرة ومعرفة روحية مقدسة تدفقت من التقاليد الباطنية الإسلامية التي انتقلت إلى أوروبا المسيحية عن طريق عائلات الملك الإله التي تزعم أنها انحدرت من عائلات الكهنوت العالي الأربع والعشرين في القدس.

أصبح التباين في المواقف تجاه التعلم والتسامح الديني بين الثقافتين المسيحية والإسلامية واضحًا بشدة في زمن الحملات الصليبية. وبينما كان الفرسان المسيحيون

(*) يمكن ترجمته «القَبَلانية» ويشير إلى فلسفة دينية سرية، عند أحبار اليهود وبعض مسيحيي العصر الوسيط، مبنية على تفسير الكتاب المقدس تفسيرًا صوفيًّا. [المترجم].

(1) أرمسترونغ، كارين، **محمد**، ص 22.

(2) والاس ميرفي وهوبكنز، روزلين: **حارسة أسرار الكأس المقدسة**، ص 83.

(3) أكبر، س. و. أحمد، **اكتشاف الإسلام**، ص 4.

(4) غودوين، جفري، **إسبانيا الإسلامية**، ص 5.

(5) رافنسكروفت ووالاس ميرفي، **سِمة الوحش**، ص 132.



يذبحون «الكفار» بعد الاستيلاء على القدس، كان أفراد آخرون، أكثر تنورًا، من الدين نفسه يجلسون عند أقدام علماء مسلمين في إسبانيا[1]. ولم تكن إسبانيا الجسر الثقافي الوحيد بين العالمين المسيحي والإسلامي، فقد قدمت الغارات المغربية على بروفانس، والغزو العربي لصقلية، وبطبيعة الحال الحملات الصليبية والاحتلال الطويل للأرض المقدسة الذي تلا ذلك، فرصًا وافرة للإبداع الثقافي المتبادل.

في الأوقات المضطربة التي نعيشها اليوم، حين يتعرض الدين والثقافة الإسلاميان إلى هجوم متواصل كما يبدو على جميع الجبهات، علينا أن نتذكر كم ندين، في الغرب المسيحي المتعصب، للبصائر الروحية لتلك الثقافة الدينية العظيمة. إن التسامح الديني واحترام التعلم ومفاهيم الفروسية والأخوّة معنية اليوم كما كانت سابقًا. لقد تعلمنا هذه المبادئ من الشعب الإسلامي عندما كانت تعمل، في إسبانيا، مثل مشاعل ضوء في العصور المظلمة للتعصب الديني وضيق أفق التفكير والاضطهاد الأوروبي.

---

(1) أرمسترونغ، كارين، محمد، ص 29.



الجزء الأول




مكتبة
الفكر الجديد

التقليد الأولي
وأصول اليهودية والمسيحية

إن أقدم دليل معروف لدينا على رغبة الإنسان في الاتصال مع العالم القدسي الغامض، هو صور كهوف العصر الحجري الأول العديدة التي يمكن أن توجد في جميع أنحاء العالم. وكان الفرنسي نوربرت كاستيريه هو من اكتشف أول أمثلة أوروبية رائعة في كهوف مونتسبان ومن المستحيل تقريبًا تخيل انفعاله حين وجد صور الأسود والخيول التي تغطي جدران هذه الغرف تحت الأرض. لقد عثر كاستيريه على الفن والرمز المقدس لسكان كهوف ما قبل التاريخ[1].

ظلت الطبيعة الحقيقية لصور الكهوف الساحرة هذه مسألة تخمين حتى ظهر، بعد بضع سنوات، اكتشاف صور كهوف أخرى داخل مغاور الإخوة الثلاثة في أرييج بفرنسا. كانت هذه صور رجال بزي حيوانات، رسومًا من العصر الحجري الأول لرجال يرتدون أزياء الشامان[*][2]. وبرأي ميرسيا إيلييد، أحد مؤرخي العالم البارزين حول التطور الروحي للإنسان، «من المستحيل تخيل فترة لم يكن الإنسان يحلم فيها ويرى أحلام يقظة ولم يدخل في «غيبوبة» ـ وهي غياب للوعي كان يُفسر بأنه سفر الروح إلى المجهول»[3]. كان شامانات العصر الحجري الأول، مثل نظرائهم في قبائل الصيد

(1) ولسون، كولن، السّحريّون، ص 35.

(*) الشّامان: كاهن يستخدم السحر لمعالجة المرضى ولكشف المخبأ وللسيطرة على الأحداث. [المترجم].

(2) ولسون، كولن، السِحريّون، ص 35.

(3) استشهد به كولن ولسون في السّحريّون، ص 38.



والجمع في أجزاء قَصيّة من العالم اليوم، يعتقدون أن العالم الخارق الذي نعيش فيه يستند إلى حقيقة أخرى، العالم غير المرئي للروح.

لم يترك لنا أسلافنا من العصر الحجري الأول أي سجلات مدونة حول الطبيعة الدقيقة للممارسات الطقسية التي كانوا يقومون بها لتحسين مداركهم الروحية. على أية حال، مع نشوء الحضارات المثقفة والمدونات الضخمة التي تركتها لنا يمكننا البدء بإدراك كم كانت مبكرة بداية ممارسة وولوج العالم الروحي. ومع أن الأمر قد يبدو غريبًا، كانت «المصادفة» التي تستند إلى الفضول وإلى مشكلة التوق الشديد القديمة هي التي أدت مجددًا إلى اكتشاف أقدم مجموعة من النصوص الروحية التي عرفتها البشرية، نصوص أهرام مصر القديمة.

أصبحت المعرفة المقدسة المُتَضمنة في نصوص الأهرام القلب الحيوي الذي عزز تطور حضارة مصر القديمة وحافظ عليه؛ والذي مر عبر الكهانة الوراثية بوساطة ولوج أسرار المعبد القديمة. أبقت هذه المعارف الكهنوتية وحسّنت ونقلت هذا الحجم الاستثنائي من المعرفة من المعلم إلى التلميذ عبر الأجيال وأمكن أن تتحول، بعد الخروج الجماعي لشعب إسرائيل من أرض مصر، إلى دين وثقافة جديدين، هما دين اليهود وثقافتهم. أدى هذا في النهاية، بعد صدمات كثيرة، إلى تدوين الكتاب الذي تحترمه أديان العالم العظيمة التوحيدية الثلاثة كلها، «التاناخ»، وهو المدونات المقدسة اليهودية التي أصبحت لاحقًا العهد القديم التوراتي.



الفصل الأول

مصر القديمة

ذات صباح مبكر في شتاء عام 1879، رأى عامل مصري يقظ وذكي يقف قرب هرم أوناس في سقارة، ظل ثعلب صحراء أمام ضوء الشمس المشرقة. كان هذا الحيوان الحذر يتصرف بأسلوب غريب وغير معهود إلى حدٍّ ما. كان يتحرك ويتوقف ثم ينظر مباشرة نحو العامل وكأنه يدعوه إلى ملاحقته، ثم يتحرك ثانية قبل أن يختفي في شق داخل الواجهة الشمالية للهرم. افتتن الرجل المستثار بهذا، مستشعرًا ربحًا محتملًا، فالأهرام والقبور كانت تشتهر بأنها مستودعات للكنوز، ولحق بالثعلب إلى البناء القديم، وبعد زحف صعب عبر ممر يشبه النفق، وجد نفسه في حجرة كبيرة داخل الهرم[1]. وعند إضاءة مشعل ناري، اكتشف أن جدران الحجرة مغطاة بنقوش هيروغليفية فيروزية وذهبية[2]. ولاحقًا، بعد المزيد من الاستقصاء على أيدي علماء الآثار، عُثر على نقوش مماثلة في الأهرام القريبة الأخرى. تُعرف هذه النقوش اليوم بشكل إجمالي باسم نصوص الأهرام[3]. وهي تتضمن أكثر من 4000 سطر من التراتيل والصيغ المقدسة. وكان البروفسور غاستن ماسبيرو، مدير مركز الآثار المصرية القديمة أول عالم مشهور يراها في موقعها الأصلي.

كان هذا الاكتشاف «العَرَضيّ» كما يبدو ذا أهمية كبيرة، رغم وضوح أنه نجم عن تجسيد دنيوي للإله المصري القديم أنوبيس، وهو إله له شكل ابن آوى المعروف باسم «ثعلب الصحراء»؛ وكان تجسيده القدسي الآخر على شكل أوبووت المعروف أيضًا

(1) ولسون، كولن، من أطلانطس إلى أبي الهول، ص 81.
(2) باوفال روبرت وجلبرت أدريان، لغز أوريون، ص 58.
(3) إدواردز ي. إ. س.، أهرام مصر، ص 150.



باسم «فاتح الطرق». وهكذا فإن التجسيد الحديث ذا الأرجل الأربعة للأوبووت قد فتح، بشكل حرفي ومجازي، الطرق ليس إلى فهم أعمق للاعتقادات الروحية في زمن الفرعون أوناس، الحاكم الأخير في السلالة الخامسة فحسب، ولكن إلى فهم مهم أيضًا للعمق الكبير بأن المعرفة المقدسة أو المعرفة الروحية قد تحققت في العصر القديم السحيق عندما تمّ وضع النصوص فعلًا. لأن معظم النصوص، كما ذكر البروفسور ماسبيرو، كانت التعبير المدون لتقليد أقدم بكثير يعود إلى ماضي مصر ما قبل التاريخ[1]. وهو ماضٍ يسبق الأحداث المذكورة ثانية في سفر الخروج قبل أكثر من 2000 سنة وكتابة العهد الجديد قبل 3400 سنة تقريبًا[2]. وصرح البروفسور أي. إ. س. إدواردز من المتحف البريطاني دون تحفظ بأن «نصوص الأهرام لم تكن بالتأكيد من اختراع السلالتين الخامسة أو السادسة، بل نشأت في العصر القديم السحيق؛ وليس من المستغرب، لذلك، أنها تحتوي أحيانًا تلميحات إلى أحوال لم تكن سائدة في عصر أوناس..»[3].

وهكذا فقد وافق اثنان من أكبر علماء آثار مصر القديمة على أن نصوص الأهرام هي أقدم مجموعة من الكتابات الدينية التي تمّ اكتشافها. ومع ذلك، من المحزن، رغم أهميتها الكبيرة، أنه لم يتمّ نشر الترجمة الأولى التي عُدت موضع ثقة فعلية من غالبية العلماء الحديثين حتى عام 1969 على يد أستاذ اللغة المصرية القديمة في الكلية الجامعية بلندن، ريموند فوكنر، الذي أكد أن، «نصوص الأهرام تشكل أقدم مجموعة موجودة الآن للأدب الديني والجنائزي المصري»[4]. إن هذه المدونات الهيروغليفية داخل الأهرام مقبولة الآن من علماء الآثار المصرية والأكاديميين على أنها أقدم مجموعة للمعرفة المقدسة، أو «الحكمة الباطنية» سبق وجودها حتى الآن.

تيب زيبي

تشير نصوص الأهرام كثيرًا إلى (تيب زيبي)، الذي يُدعى «الزمن الأول»، وهو العصر الأسطوري لأوزيرس عندما كانت مصر، وفقًا للتقاليد، تحكمها على نحو مباشر الآلهة التي تتخذ هيئة البشر. تلك الآلهة التي منحت، وفقًا للأساطير، الشعب المصري

(1) باوفال روبرت وجلبرت أدريان، **لغز أوريون**، ص 63.

(2) باوفال روبرت وجلبرت أدريان، المصدر السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(3) إدواردز أي. إ. س.، **أهرام مصر**، ص 151.

(4) فوكنر، ر. و.، **نصوص الأهرام المصرية القديمة**، ص v.



المواهب المباركة للمعرفة المقدسة بالإضافة إلى معرفة معقدة ودقيقة على نحو خارق بعلم الفلك. وهذا يطرح السؤال «كيف ظهر هذا المستوى المتطور جدًّا من المعرفة الروحية والفلكية في مصر ما قبل التاريخ؟» كما يثير مسألة مهمة أيضًا «متى كان الزمن الأول وأين حدث؟». قدم المؤلف وعالم الآثار المصرية، جون أنتوني ويست، نظرية يمكن أن تساعدنا في الإجابة عن السؤال الأول:

> **يبدو أن كل سمة للمعرفة المصرية كانت كاملة تمامًا في البداية. فالعلوم والتقنيات الفنية والمعمارية والنظام الهيروغليفي لا تُظهر عمليًّا أي دلائل على «التطوير»؛ وفي الحقيقة إن العديد من إنجازات السلالات الأقدم لم يكن ثمة ما يتفوق عليه أو حتى يساويه لاحقًا... وجواب اللغز واضح طبعًا، ولكن لأنه مكروه من الاتجاه السائد للتفكير الحديث، من النادر التفكير فيه بجدية. لم تكن الحضارة المصرية تطويرًا، بل كانت تراثًا[1].**

إذا كانت الحضارة المصرية وقاعدة معرفتها العميقة تراثًا فعلًا، إذًا فتراث مَن كانتا؟ وبما أنه لا يوجد دليل على أيّة أزمنة تطويرية داخل التاريخ المصري، فإن هذا يقودنا حتمًا إلى نتيجة أن هذه المعرفة إما أنها قد تطورت في مكان آخر، أو أنها نجمت عن ثقافة مصرية أقدم بكثير، غير مكتشفة حتى الآن على الأقل. هذا الاحتمال الأخير، مع أنه قد يكون غير ممكن لأول وهلة، يظل من الضروري التفكير فيه لأن ثمة مناطق مصرية واسعة مدفونة تحت رمال الصحراء أو أصبح التنقيب عنها غير ممكن بسبب الضواحي الممتدة للقاهرة والمدن الأخرى.

ثمة نظرية أخرى، ربما تكون معقولة أكثر قدمها وليم ماثيو فليندرز بتري (1853-1942)، وهي نظرية العرق السلالية. كان فليندرز بتري أستاذ علم الآثار المصرية في الكلية الجامعية بلندن ولا يزال موضع تقدير بوصفه أبا علم الآثار المصرية الحديث. خلال التنقيب عن أكثر من 2000 قبر تعود إلى ما قبل السلالات في نقادة عامي 1893-1894، تفحص فليندرز بتري وجيمز كيبيل أكثر من 2000 قبر من زمن ما قبل السلالات وصنفا اكتشافاتهما على أنها مستمدة من حقبين متميزتين، نقادة(1) ونقادة(2)[2]. وفي قبور حقبة نقادة(2)، عثر بتري على أجزاء فخارية ذات خصائص واضحة لمنطقة ما

---

(1) ويست، جون أنتوني، ثعبان في السماء، ص 1؛

(2) رول، ديفيد، الأسطورة: تكوين الحضارة، ص 310.



بين النهرين[1]، ومع ذلك ففي عمليات التنقيب الأخرى وكلها داخل مواقع وادي النيل خلال حقبة سابقة، لم تكن توجد عمليًا أي صناعات يدوية أجنبية[2]. وفي عام 1956، ناقش أحد تلاميذ فليندرز بتري، وهو عالم الآثار المصرية الإنكليزي، دوغلاس ديري، أن الدليل كان يوحي:

... بوجود عرق مهيمن، ربما قليل نسبيًّا في عدده لكنه يتفوق بكثير على السكان الأصليين في الذكاء؛ وهو عرق جلب إلى مصر معرفة البناء بالحجارة والنحت والرسم والنقش النافر، وقبل كل شيء الكتابة؛ وحقق من ثمّ قفزة كبيرة في الحضارة المصرية البدائية لما قبل السلالات إلى الحضارة المتقدمة للإمبراطورية القديمة (المملكة القديمة)[3].

على أية حال، إن الظهور المفاجئ لعدد كبير من الأدلة على وجود اتصال ثقافي متبادل بين بلاد ما بين النهرين ومصر، رغم احتمال أهميته، لا يثبت، حتى الآن على الأقل، أن الثقافة المصرية وأسسها الروحية كان أصلها من منطقة ما بين النهرين. وربما تكون مستمدة أيضًا من التقليد الأولي للزرادشتية في بلاد فارس القديمة. والحقيقة هي أننا، في الوقت الحاضر على الأقل، يمكننا أن نخمن فحسب. على أية حال، أن التقليد الروحي المصري في مدوناته الضخمة يسمح لنا بتتبع تطوره اللاحق داخل مصر نفسها.

التقليد المصري الأولي

أمضى عالم الآثار المصرية الإنكليزي ديفيد رول سنوات عدة في التحقيق حول شمسا حور، أتباع حورس، المذكورين في نصوص الأهرام[4]. ويقترح أن شمسا حور كانوا الأسلاف المباشرين للفراعنة الأوائل[5]. إن الأوصاف الواردة في نصوص الأهرام التي تصف هذه المجموعة المنتخبة من الأوائل هي أقدم مراجع وثائقية عُثِرَ عليها حتى الآن لأسلوب نقل المعرفة المقدسة التي استمرت منذ ذلك الحين حتى الزمن الحاضر.

---

(1) رايس، م.، إنشاء مصر: أصول مصر القديمة 5000_2000 قبل الميلاد، ص 33.

(2) كانتور، هـ. ج.، «الترتيب الزمني النسبي للأحداث في مصر وارتباطاتها الأجنبية قبل العصر البرونزي المتأخر»، في ترتيبات الأحداث في علم الآثار العالمي القديم، ص 6.

(3) ديري، د. إ.، «عرق السلالة الحاكمة في مصر»، (1956) مجلة علم الآثار المصرية، الإصدار 42، 1956، ص 80_85.

(4) باوفال وهانكوك، القيّم على سِفْر التكوين، ص 203.

(5) رول، ديفيد، الأسطورة: تكوين الحضارة، ص 265.



ووفقًا للأسطورة المصرية، ظهرت هذه المعرفة أولًا في «عصر نيتيرو» الغامض ـ العصر الأسطوري عندما حكمت الآلهة مصر مباشرة قبل أقدم عصر للفراعنة. وقد جرى انتقالها حينئذٍ عن طريق تعاقب مبتدئين كهنوتيين حفظوا هذه المجموعة الاستثنائية للمعرفة وحسنوها ونقلوها من المعلم إلى التلميذ عبر الأجيال.

أعاد المؤلف الإنكليزي، جون أنتوني ويست، في كتابه «ثعبان في السماء»، صياغة آراء العالم الروحي الفرنسي البارز في القرن العشرين حول علم الآثار المصرية، شوالر دي لوبيز الذي سجل أن العلم والطب والرياضيات وعلم الفلك تلك العلوم المصرية كانت ذات نظام استثنائي أعلى في النقاء والتطور مما قد يعترف به غالبية العلماء الحديثين بصورة عامة. علاوة على ذلك، وحسب شوالر دي لوبيز، كانت الحضارة المصرية تستند إلى فهم كامل ودقيق للقوانين العالمية وأنه بالاستخدام المُلهم لعلم الأساطير والصور الرمزية والهندسة المقدسة لعمارتهم، كان المصريون قادرين على التعبير بإيجاز عن معرفتهم بالتراكيب النموذجية الأساسية للكون.

مرت هذه المستويات المتطورة والعالية جدًّا للمعرفة المقدسة عبر أجيال نخبة كهنوتية وراثية متعاقبة من المعلم إلى التلميذ من خلال عملية التعرف على أسرار المعبد. لم تكن هذه المعرفة الروحية المقدسة مستخدمة بغية كسب شخصي من المبتدئين الكهنوتيين والملكيين، فبينما كانت الولادة الراقية والملكية تحمل من دون شك مستويات كبيرة من الامتياز الاقتصادي والسياسي، كانت المعرفة المقدسة لعلم الفلك والزراعة والهندسة المعمارية والبناء والطب والرياضيات والملاحة وعلم المعادن مستخدمة لمصلحة كامل المجتمع الذي يخدمه الكهنة والفراعنة والأرستقراطية. وهكذا، نتيجة حماية الحضارة المصرية بالصحاري المحيطة بها والمحافظة عليها بالمعرفة الروحية المُلهَمة قدسيًّا، تطورت درجة من الصقل والاستقرار والسلام والتطور التي كان يجب آنذاك مساواتها أو تجاوزها من نواح عديدة، ناهيك عن فهمها كليًّا. كان قدر كبير من المعرفة الغامضة مدونًا ضمن نصوص الأهرام بالإضافة إلى ترميزه على جدران المعبد في مكان آخر، مثل نصوص إدفو، المنقوشة على جدران المعبد هناك، وكتب الموتى (النصوص الجنائزية في مصر القديمة). وقد لاحظ الثنائية الموجودة في قلب المعرفة المقدسة المصرية المؤلفان الحديثان باوفال وهانكوك حين كتبا: «إن لغة جميع هذه النصوص غريبة جدًّا، ومحملة بالتفكير الثنائي الموجود في قلب المجتمع الم

مكتبة الفكر الجديد

وربما كانت تحرك أكبر إنجازاته»[1]. وتشير نصوص إدفو، على نحو خاص، مرات كثيرة إلى «حكمة العقلاء» وتؤكد باستمرار أن المعرفة كانت أثمن مواهب النخبة المصرية[2].

وفقًا لشوالر دي لوبيز، كان للمصريين القدماء طريقتهم الفريدة والفعالة في عملية فهم الكون ومكانة الإنسان فيه. وقد سجلوا هذا وحافظوا عليه ضمن نظام معرفة مختلف تمامًا عن النظام الذي احترمه الإنسان الحديث[3]، لأن «طريق المعرفة» المقدس هذا لا يمكن نقله على نحو ملائم بوسيلة اللغة الطبيعية بل يمكن تعليمه فقط أو إظهاره بالأسطورة والرمزية[4]. بدأ شوالر دي لوبيز عمله المهم في الرمزية بقوله إن ثمة طريقتين متميزتين ومختلفتين دائمًا لترجمة النصوص الدينية المصرية، الظاهرية والباطنية؛ وهذا هو بالضبط المبدأ نفسه الذي يمكن تطبيقه على العديد من سمات الفن المسيحي المقدس في العصور الوسطى. إن المعنى الظاهري هو التفسير القياسي، الذي يمكن الوصول إليه بالترجمة البسيطة والمباشرة للمدونات الهيروغليفية أو بدراسة كتب النصوص الملائمة حول الدين والتاريخ. وفي الحقيقة، إن هذه النسخة «القياسية» توجد فقط كي تخدم بوصفها وسيلة للوصول إلى معنى أعمق أو خفي أو باطني، وصفه شوالر بأنه التفسير الرمزي[5]. ثمة كاتبان باطنيان فرنسيان آخران، هما باويل وبرجييه، علقا بشكل دقيق على هذه السمة للرمزية القديمة وعلى بصيرة المبتدئين الذين استعملوها على مدار القرون التالية، عندما ذكرا ببساطة:

> **أنهم... كتبوا في الحجارة رسالتهم السحرية. وهي رموز غامضة بالنسبة إلى البشر الذين لم يخضع وعيهم للتحولات... لم يكن هؤلاء البشر متكتمين لأنهم يحبون السرية، ولكن ببساطة لأن اكتشافاتهم حول قوانين الطاقة والمادة والعقل جرت في حالة أخرى من الوعي ولذلك لا يمكن إيصالها على نحو مباشر[6].**

بينما كان هذا الشكل من المعرفة الباطنية إما مهملًا عادة بصورة متعمدة من

(1) باوفال وهانكوك، **القيّم على التكوين**، ص 228.
(2) ريموند، إ. أ. إ.، **الأصول الأسطورية للمعبد المصري**، ص 273.
(3) فاندنبروك، أندريه، **الكيمي**.
(4) ولسون، كولن، **من أطلانطس إلى أبي الهول**، ص 32.
(5) دي لوبيز، رينيه شوالر، **العلم المقدس**، ص 120.
(6) باويل وبرجييه، **فجر السحر**، ص 247.



الأكاديميين أو غير معترف به مطلقًا ببساطة من عامة الناس، فإن بقاياه الرمزية جرى نقلها، بشكل أو بآخر، عبر جميع الأديان التوحيدية الكبيرة وهي اليهودية والمسيحية والإسلام التي انطلقت جميعها من الجذور المصرية المشتركة[1]. لذلك ليس من المستغرب معرفة أن المبتدئين المصريين القدماء لم يكونوا الوحيدين الذين استعملوا الرموز بهذا الأسلوب؛ فالرمزية هي شكل فعال وفطري للاتصال، لأنها استُعملت، على نحو متواصل، طوال آلاف السنين، من الحكماء والمبتدئين في جميع تقاليد العالم الدينية الكبيرة.

الأب المؤسس للشعبين اليهودي والعربي

يوقَّر النبي إبراهيم لأنه في آن واحد مؤسس شعب إسرائيل وأبو الشعوب العربية. وهكذا، نجد في هذه الشخصية المؤثرة المؤسس الروحي والدنيوي المباشر للتوحيد الذي انحدرت منه الأديان الكبيرة الثلاثة وهي اليهودية والمسيحية والإسلام. ووفقًا للرواية الواردة في العهد القديم، وُلد إبراهيم في مدينة أور. ومع ذلك، فإن هذه المقولة البسيطة قد تكون مسألة تمويه فحسب أوجدها الكتّاب اليهود العاملون في بابل خلال القرن السادس قبل الميلاد لإخفاء أصول الأب الحقيقية.

في ذلك الوقت، عندما اتخذت الكتب المقدسة للمرة الأولى شكلها المكتوب الحالي، كان الإسرائيليون التوراتيون وحلفاؤهم المصريون قد تعرضوا حينها للهزيمة على يد البابليين وكان الكتّاب أنفسهم يعملون في المنفى تحت مراقبة يقظة من آسريهم. وكان من الممكن حسبان ذلك ضروريًا بشكل حيوي للتقليل من أي ارتباطات سلالية كانت للشعب العبري مع مصر. ومع ذلك، لم تكن الرواية في سفر التكوين نقية تمامًا وظلت تكشف بعض الحقائق حول إبراهيم وعائلته التي تبين بصورة واضحة أنه لم يكن مصريًا فحسب بل وأصيلًا أيضًا. فمثلًا، يُقتبس عن إبراهيم وصف زوجته بالتعبيرات الآتية: «... وبالحقيقة أَيضًا هي أختي ابنة أَبي غير أَنها ليست ابنة أمي فصارت لي زوجة»[2]. كان زواج السِفاح الواضح هذا بالأخت نادرًا ما يعلق عليه العلماء التوراتيون الجدد، ومع ذلك فهو فائق الأهمية، لأن هذه الزيجات بين الأشقاء خلال ذلك العصر في منطقة الشرق الأوسط اقتصرت على الأفراد الكبار من العائلة المالكة المصرية.

---

(1) ولسون، كولن، من أطلانطس إلى أبي الهول، ص 14.

(2) سفر التكوين، الإصحاح 20، الآية 12.



لذلك، من المؤكد تقريبًا أن إبراهيم كان فردًا من ذلك النسق السلالي المنتقى. إنني لست وحدي في الوصول إلى هذه النتيجة، ولست بالتأكيد أول من يحاول القيام بذلك، لأن عالم القرن الحادي عشر التوراتي الحاخام سولومون آيزاكس، (1040ـ1105) المعروف أيضًا باسم راتشي، كتب إن، «عليك معرفة أن عائلة إبراهيم كانت ذات مرتبة عالية»[1]. ويرفض رأي راتشي على نحو قاطع الفكرة المقبولة بأن إبراهيم كان راعيًا بدويًّا ويؤكد مركزه الاجتماعي الحقيقي.

إن الاسم الذي عُرف به الأب أصلًا، وهو أبرام[2]، يترجم بلقب «الأب الرفيع المقام»، وهو أحد الألقاب الطقسية المستخدمة بانتظام من فراعنة مصر. علاوة على ذلك، هناك أيضًا الأمر الغريب في التغيير الكلي لاسمي أبرام وساراي، زوجته، المدون في الكتب المقدسة[3]، لأن هذا يعزز حقيقة أصل إبراهيم المصري[4]. والتعبير «أب لجمهور من الأمم» يُطلق على إبراهيم في رواية سفر التكوين[5]. وحين أصبح ابنه إسحاق أصل شعب إسرائيل، فإن ابنه إسماعيل من خادمة زوجته هاجر، أسس الشعوب العربية. واسم زوجة إبراهيم الجديدة، سارة، هو التعبير المصري لكلمة «أميرة». وهي أيضًا مسألة مدونة بأن هاجر خادمة سارة كانت أيضًا مصرية أصيلة نسبيًّا، لأنها ابنة أحد الفراعنة من إحدى عشيقاته[6](*). ولتعزيز هذه النقطة، يسجل الكتاب المقدس أيضًا

---

(1) راتشي، **التوراة وفقًا لراتشي**، سفر التكوين، ص 251.

(2) **سفر التكوين** الإصحاح 11، الآية 27.

(3) المصدر السابق نفسه، الإصحاح 11، الآية 29.

(4) المصدر السابق نفسه، الإصحاح 17، الآية 5 والآية 15.

(5) المصدر السابق نفسه، الإصحاح 17، الآية 4.

(6) **سفر هاجاشار**، الفصل 26.

(*) يشير المؤلف هنا إلى الرواية التوراتية التي تَعدُّ النبي إبراهيم من اليهود. ويمكن مقارنة هذه الإشارة بما ورد خلاف ذلك في كثير من المصادر: القرآن الكريم (خمسًا وثلاثين مرة)، وبخاصة سورة آل عمران، الآيتين (65 و67)؛ وتاريخ **الطبري** وتفسير **ابن كثير** و**البداية والنهاية** و**الكامل**؛ وعدد من الدراسات التاريخية الدينية حول هذا الموضوع والهوة بين التوراة والتاريخ وتلفيق الإسرائيليات. انظر مثلًا كتب د. سيد القمني، **النبي إبراهيم والتاريخ المجهول**، **الأسطورة والتراث**، ورب الزمان ودراسات أخرى؛ ونجيب البهبيتي، **المعلقة العربية الأولى أو عند جذور التاريخ**؛ ود. ف. ب. ماير، **حياة إبراهيم وطاعة الإيمان**، ترجمة القس مرقس داود؛ ومحمد حسني عبد الحميد، **أبو الأنبياء إبراهيم الخليل**؛ وأبو القاسم السهيلي، **الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام**، ضبط وتعليق طه عبد الرؤوف؛ ود. كمال صليبي، **التوراة جاءت من الجزيرة العربية**، ترجمة عفيف الرزاز؛ ود. محمد السيد الوكيل، **نظرات في أحسن القصص**، ج1، وغيرها. [المترجم].

مكتبة الفكر الجديد

حقيقة أن إسماعيل ابن الأب اتخذ زوجة مصرية[1].

يسجل سفر التكوين أيضًا علاقة غريبة إلى حدٍّ ما بين سارة والفرعون غير المسمى في ذلك الوقت[2]؛ وقد سبب هذا الكثير من التخمين العلمي في كل من اليهودية والإسلام، لأن كلًّا من التلمود البابلي[3] والقرآن[4] يثير شكوكًا جدية حول الأبوة الحقيقية لابن إبراهيم إسحاق. يشير ضمنًا كل من هذين المصدرين الموثوق فيهما إلى أن الفرعون كان الوالد الحقيقي للصبي، وليس إبراهيم. لذلك، نتيجة للروايات التوراتية لدينا سؤالان يتضمن جواباهما، حتى إذا لم يثبتا هذا بشكل تام، أن الأصول الحقيقية لكل من الشعب الإسرائيلي والعربي ستوجد في مصر! أولًا: «هل كان إبراهيم من مدينة أور، أم كان مصريًّا؟» ثانيًا: «هل ينحدر شعب إسرائيل من إبراهيم أم من الفرعون»؟

تنشأ هذه الأفكار الخلافية عن بيانات واضحة وصريحة في سفر التكوين وتعزز أكثر بكلمات ملكي صادق، مَلِك الحق، المدونة لاحقًا في الرواية نفسها: «مبارك أبرام من الله العلي مالك السماوات والأرض»[5]. ويستعمل كل من ملكي صادق، الملك الكاهن في القدس وإبراهيم العبارة البليغة نفسها تمامًا لوصف الله، «الله العلي»[6]، وهو أحد التعبيرات الأكثر شيوعًا المستخدمة في المدونات المصرية لإله المعبد الأعلى. ومن المهم جدًّا أيضًا أن إبراهيم تبنى لنفسه ولجميع أحفاده عادة الختان المصرية، بأمر من الله العظيم نفسه كما يُقال[7]. والختان، رغم حقيقة أنه كان إلزاميًّا لدى العائلة المالكة المصرية والكهنة وطبقة النبلاء الوراثية منذ عام 4000 قبل الميلاد، كان من أكثر الممارسات غير المعتادة بين المجموعات أو الأديان أو الأمم الأخرى[8].

على أية حال، وإن تقبّل المرء التفسير التقليدي لهذه الروايات في سفر التكوين،

---

(1) سفر التكوين، الإصحاح 21، الآية 21.

(2) المصدر السابق نفسه، الإصحاح 12، الآية 15.

(3) «هل رأيت الرجل والمرأة العجوزين اللذين أحضرا لقيطًا من الشارع ويزعمان الآن أنه ابنهما؟» التلمود البابلي.

(4) القرآن، (الأنبياء) السورة 21، الآية 72.

(5) سفر التكوين، الإصحاح 14، الآية 19.

(6) استعمل التعبير مرات عديدة كل من إبراهيم وملكي صادق في سفر التكوين، الإصحاح14.

(7) سفر التكوين، الإصحاح 17، الآية 10.

(8) الموسوعة البريطانية، لندن 1956، ج 5، ص 721.



فإن اللقاء بين إبراهيم والفرعون يشير بلا شك إلى بداية إخصاب متبادل مستمر للأفكار والتجارب الروحية التي حدثت بين أحفاد إبراهيم وأرض مصر وتتوجت بتأسيس اليهودية. ثمة عالمان يهوديان بارزان لهما شهرة عالمية، هما سيغموند فرويد[1] وإرنست سيلين[2]، علّق كلاهما بحرية على الأهمية العميقة للفكر المصري في تطور اليهودية المبكرة.

ربما حلّت لحظة التتويج في حياة إبراهيم حين استعد، في طاعة الله، للتضحية بابنه إسحاق قربانًا على الموقع المقدس لجبل مُريا[3]. وعندما رأى الله طاعة إبراهيم الكلية لأوامره، أرسل ملاكًا للتدخل. توقفت التضحية وحل كبش محل الصبي البريء قربانًا. ومن ذلك الوقت فصاعدًا، كانت التضحية البشرية من أي نوع يقوم به الشعب اليهودي، خصوصًا التضحية بطفل، التي كانت شائعة بين الكنعانيين، ستبدو شيئًا كريهًا في نظر الرب. ونتيجة ولاء إبراهيم وطاعته المطلقة لإرادة الله، كوفئ بالوعد: «... ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض من أجل أنك أصغيت لقولي»[4].

موسى، فرعون مصر

بالنسبة إلى الذين يرون الكتاب المقدس «كلمة الله المعصومة» تفرض مشكلات وضع أساس تاريخي لقصص العهد القديم حول الإقامة المؤقتة لشعب إسرائيل في مصر نوعًا من المعضلة. ولا يمكن الوصول إلى أساس صحيح لأي تاريخ واقعي للأحداث التي جرى وصفها في الروايات التوراتية وهذه الحالة تتعقد أكثر نتيجة الطريقة غير المتقنة التي كُتبت بها تلك القصص. فما من فرعون محدد وردت تسميته، وعلاوة على ذلك، رغم المدونات الضخمة والمفصلة للتاريخ المصري التي بقيت، لا يمكن تمييز مجموعة بشكل لا يُدحض على أنها «شعب إسرائيل». كانت جمعية استكشاف مصر وجمعية استكشاف فلسطين كلتاهما قد تأسستا لوضع الأساس التاريخي للكتاب المقدس عن طريق البحث الأثري والوثائقي. ومع ذلك، على الرغم مما يزيد عن

(1) فرويد، س.، موسى والتوحيد.
(2) سيلين، إ.، موسى وأهميته في التاريخ الإسرائيلي اليهودي.
(3) سفر التكوين، الإصحاح 22، الآية 2.
(4) المصدر السابق نفسه، الإصحاح 22، الآية 18.



150 سنة من الجهد المشترك، لم تستطع أي من هاتين المنظمتين المُمولتين جيدًا والمُزودتين بالعاملين بشكل ممتاز أكثر من مجرد خدش سطح هذه المشكلة. وكان ثمة علماء آخرون، يعملون من منظور مخلص مشابه، ساعدوا في حل بعض أهم القضايا التي حجبت هذه السمة الحيوية من تاريخنا الروحي والدنيوي. وبالنسبة إلى المؤمن بجميع الأديان التوحيدية الرئيسة الثلاثة، قد يبدو مفاجئًا أن تعريف الشخصية التاريخية المسماة موسى في الكتاب المقدس وأصلها الحقيقي، قد تحددا عمليًا من دون شك. ولا يوجد نقاش بين العلماء وعلماء الآثار المصرية حول ما إذا كان موسى فرعونًا أم لقيطًا، بل هو نقاش فحسب حول أي فرعون كان.

يبدو أن هذا يناقض الرواية التوراتية، فقصة الطفل موسى حين عثرت عليه ابنة الفرعون في البَرْدِيّ وتبنته العائلة المالكة المصرية[1] هي نقطة البداية لسلسلة من الأحداث المترابطة التي تبلغ ذروتها بخروج «شعب إسرائيل» من مصر. وتتضمن هذه الرواية فرضية مؤكدة سابقًا بأن شعب إسرائيل كان، في عصر موسى، مجموعة عرقية واضحة ومميزة ـ أمة توحيدية خاضعة لميثاق، أو عهد، مع رب إبراهيم. وهذا الاعتقاد راسخ على نحو عميق في أذهان جميع أتباع اليهودية والمسيحية والإسلام المؤمنين. ومع ذلك، وفقًا لعلماء ذوي سمعة معصومة ودولية، لا شيء يمكن أن يكون بعيدًا عن الحقيقة.

لم يكن سيغموند فرويد (1856ـ1939) محللًا نفسيًا ذا سمعة دولية حقًا فحسب، لكنه كذلك عالم توراتي ذو مكانة كبيرة. وقد كتب أنه لم يستطع العثور على أي أثر لتعبير «عبري» قبل النفي البابلي[2]. ويؤكد العالمان التوراتيان الإسرائيليان الحديثان، مسعود وروجر صباح، على نحو قاطع أنه ليس ثمة دليل على وجود العبرانيين بشكل أمة أو قبيلة في عصر موسى على غرار ما جرى وصفه في الكتب المقدسة[3]. ثم يطرحان المسألة المقلقة الآتية:

كيف يمكن لشعب متشرب بمثل هذا الجزء الأساسي من حكمة مصر أن يختفي

(1) سفر الخروج، الإصحاح 2، الآيات 1ـ10.
(2) فرويد، س.، موسى والتوحيد.
(3) صباح، م. ور.، أسرار الخروج.



من السجل التاريخي (المصري) بشكل غامض؟ إن ما يزيد على 200 سنة من البحث في الصحاري والقبور والمعابد لم يظهر أي شيء![1]

بالنسبة إلى الذين يؤمنون بالحقيقة التاريخية للكتاب المقدس ثمة مشكلة يصعب التغلب عليها لأنه، رغم الأوصاف الدينية المفصلة للإقامة المطولة لشعب إسرائيل في مصر، لا يمكن وجود أثر واضح لهذا الشعب في المدونات التاريخية المصرية الشاملة والضخمة. وفي الحقيقة، كما أشار فرويد، إن تعبير «عبري» في إشارة إلى العرق لا يوجد في أي مصدر ما عدا الكتاب المقدس، قبل النفي اليهودي إلى بابل. علاوة على ذلك، ثمة إشارة أثرية قديمة منفصلة واحدة فقط إلى شعب إسرائيل قبل ذلك الحدث القاسي. وحقيقة أن الأمة المدعوة «إسرائيل» كانت قد تأسست عام 1207 قبل الميلاد مؤكدة بنصب تذكاري منقوش يسجل غزو الفرعون مرنبتاح لها كُتب فيه، «إسرائيل قد تدمّرت، ذريتها لا..». وهذا أول تأكيد مستقل لوجود شعب إسرائيل وهو لم يظهر إلا بعد قرنين تقريبًا من آخر تاريخ معطى للخروج من مصر[2].

قبل أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، كان يُعتقد أن القصص التوراتية روايات تاريخية دقيقة لأحداث حقيقية. على أية حال، مع بدايات الثقافة التوراتية الحاسمة في ذلك الوقت، بدأ هذا المفهوم يخضع لتغيير تراكمي راديكالي سريع. وفي أوائل سنوات القرن العشرين، نشر الدكتور كارل أبراهام، وهو عالم توراتي يهودي مشهور، مقالة تزعم أن الفرعون أخناتون ربما كان الشخص التوراتي الذي يُعرف باسم موسى[3]. تلقى هذا درجة ما من التأكيد عندما نشر سيغموند فرويد عمله الأخير، موسى والتوحيد عام 1939. بيّن فرويد أن قصة ولادة موسى في العهد القديم كانت دمجًا لأسطورة سرغون (2800 قبل الميلاد) القديمة وأساطير مصرية عن ولادة حورس. إذ كانت الشخصيتان الأسطوريتان كلتاهما مخبأتين في سرير قصبي لتفادي قتلهما. وزعم فرويد أن قصة أصول موسى كانت تلفيقًا أُوجد خلال النفي البابلي لإخفاء حقيقة أن هذا النبي «اليهودي» البارز كان، في الحقيقة، فردًا من العائلة المالكة المصرية. وبيّن أيضًا أن اسم موسى كان اشتقاقًا من الاسم المصري الشائع موس أو طفل.

---

(1) صباح، م. ور.، **أسرار الخروج**.
(2) صباح، م. ور.، **أسرار الخروج**، ص 6؛ فرويد، **موسى والتوحيد**، ص 96 و123 (الطبعة الفرنسية).
(3) **مجلة إيماجو**، 1، 1912، ص 346_347.



لم يكن كارل أبراهام وفرويد أول من زعم أن موسى وُلد مصريًّا، لأن هذا التأكيد قام به مرات عدة كتّاب سابقون منهم المؤرخ المصري والكاهن الأكبر في القرن الثالث قبل الميلاد، مانيثو؛ والمؤرخ اليهودي في القرن الأول قبل الميلاد فيلو الإسكندري؛ والمؤرخ اليهودي في القرن الأول الميلادي، فلافيوس جوزيفوس، وجوستن مارتير، وهو كاهن قديم في الكنيسة المسيحية عاش خلال القرن الثاني الميلادي. وقد تلا فرويد والدكتور أبراهام روبرت فيذر، المؤلف الإنكليزي، الذي زعم أن:

> **التحليل المفصل للكتاب المقدس والتلمود والميدراش قادني إلى الاستنتاج بأن موسى لم يولد مصريًّا فحسب، بل كان، في الحقيقة، أمير مصر ـ ابن أسرة الفرعون الملكية**[1].

وهكذا فإن كارل أبراهام وسيغموند فرويد وروبرت فيذر، وفي زمن أحدث الكاتب الإنكليزي الشعبي موريس كوتيريل[2]، وافقوا على أن موسى كان إما الفرعون أخناتون أو أحد أفراد حاشيته القريبة. وقد عزز هذه الاستنتاجات العالم الإسلامي أحمد عثمان، وهو محام ومؤلف عبّأ مهارته القانونية العالية لإثبات أن المرشح الأكثر احتمالًا الذي يمكن عدُّه موسى كان اقتراح الدكتور أبراهام الأصلي، الفرعون أخناتون[3].

الأصول المصرية للدين اليهودي

في عمله الأخير، موسى والتوحيد، وصف فرويد التشابهات المذهلة بين الأتونية، دين أخناتون، واليهودية، وتابع زاعمًا أن موسى نقل دينه الخاص الأتونية بسهولة من دون تغيير عملي إلى شعب إسرائيل الجديد. علاوة على ذلك، زعم فرويد أن الصلاة Yisrael Adonai Elohenu Schema Adonai Echod (اسمعوا، يا إسرائيل، إن الرب إلهكم هو إله واحد)، بعيدًا عن كونها دعاء جديدًا وفريدًا بعد الخروج اليهودي، كانت تكرارًا دقيقًا لصلاة أتونية. وناقش أن الحرف العبري d، في الترجمة، هو تمثيل صوتي للحرف المصري t، وبأسلوب مماثل، الحرف e يصبح o، وهكذا تصبح هذه الصلاة عند ترجمتها إلى المصرية: «اسمعوا، يا إسرائيل، إن إلهنا أتون هو الإله

---

(1) فيذر، ر.، **المخطوطة النحاسية مترجمة**، ص 34 أكده أيضًا جوزيف بوبر ـ لينكوس في ابن ملوك مصر، **خيالات وحقائق**، كارل ريزينر، 1899.

(2) كوتيريل، م.، **نبوءات توت عنخ آمون**، ص 335.

(3) عثمان، أحمد، **موسى فرعون مصر**.



الوحيد»[1]. قد لا تكون هذه الفكرة مذهلة جدًّا كما تبدو، فقبل ألفي سنة من ولادة فرويد، أشار الكاهن والمؤرخ مانيثو إلى أن موسى أدى واجبات كهنوتية في مصر[2]. وقد فعل أخناتون ذلك تمامًا بوصفه الكاهن الأكبر والأعلى في معبده تجاه أتون في تل العمارنة.

ثمة ممارسة مصرية تقليدية أخرى جرى تبنيها تحت قيادة موسى، وهي إحداث الكهانة الوراثية. ويروي الكتاب المقدس أن هذا كان يستند إلى قبيلة ليفي، وفي الحقيقة كان مجرد استمرار للكهانة المصرية، وهي طائفة وراثية كانت حارسة المعرفة المقدسة. تابعت هذه الكهانة الوراثية اليهودية «الجديدة» بيُسْر النقل المتقدم للحكمة المقدسة، من المعلم إلى التلميذ ونزولًا عبر الأجيال، مثل السابق. كذلك يمكن وجود مثال مذهل آخر ذي أصل مصري للسمة المركزية لليهودية حين نتفحص أساس القانون المقدس اليهودي ـ التوراة.

لقد أُسس قانون موسى بقوة على الوصايا العشر التي تلقاها موسى، وفقًا للكتاب المقدس، من الله القدير على جبل سيناء. ومع ذلك، على الرغم من أصلها السماوي، ثمة شكلان مختلفان من الوصايا العشر في الكتب المقدسة أحدهما يوجد في سفر التثنية يحتوي ما يلي:

> **أنا هو الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية. لا يكن لك آلهة أخرى أمامي. لا تصنع لك تمثالًا منحوتًا صورةً ما مما في السماء من فوق وما في الأرض من أسفل وما في الماء من تحت الأرض. لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأني: أنا الرب إلهك إله غيور، أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء وفي الجيل الثالث والرابع من الذين يبغضونني**[3].

على نحو خفي، يشير التعبيران «أرض مصر» و«بيت العبودية» إلى العالم الدنيوي حيث تستعبدنا الأنا. إن الهروب من «أرض مصر» مع الإيمان بسلسلة من الآلهة يرمز هكذا إلى تغيير في الوعي. ويربط هذا المقطع أيضًا اليهودية بالأتونية، لأنه، وفقًا للبروفسور فليندرز بتري «**كان أتون المثال الوحيد لإله غيور في مصر**، وهذه العبادة

(1) فرويد، س.، موسى والتوحيد.
(2) استشهد به فيذر، ر.، المخطوطة النحاسية مترجمة، ص 36.
(3) سفر التثنية، الإصحاح 5، الآية 6ـ9.



كانت حصرية بين العبادات الأخرى كلها، وتدّعي العالمية»[1]. ويؤكد العالمان الإسرائيليان، مسعود وروجر صباح، أن الأتونية ألغت جميع صور الآلهة الأخرى وأصنامها. كان هذا المفهوم «الجديد» يتعلق بإله عُدَّ خالق الكون بأسلوب يتفق كليًّا مع الدين المصري القديم[2]. لذلك ليس من المفاجئ معرفة أن الأوامر بعدم استعمال الصور المحفورة الموجودة في نسخة سفر التثنية للوصايا العشر تكرر ببساطة تلك الموجودة في القانون الأتوني. ويذكر كتاب الموتى المصري المبادئ التي شهدت الأرواح بأنها مفروضة من بلاط أوزيرس بعد الموت، في القائمة الآتية[3]:

إنني لم أرتكب أي كذب ضد البشر
إنني لم أُفقر (أسرق) رفاقي
إنني لم أقتل
وهذا مُدَّون في رواية الخروج حول الوصايا العشر، ليصبح:
لا تقتل
لا تسرق
لا تشهد على قريبك شهادة زور[4]

هذه المقارنة البسيطة مظهر آخر لصلاحية الفرضية بأن اليهودية تطور مباشر عن الأتونية. كذلك تُظهر مقارنة المزمور 104 في العهد القديم وترتيل أخناتون إلى أتون الروابط بين هذين الدينين. تذكر الآية 24 من المزمور:

ما أعظم أعمالك يا رب!
كلها بحكمة صنعتَ:
ملآنة الأرض من غناك[5]

مع التغاضي عن المشكلات في الترجمة، توجد صياغة وبناء مماثلان تقريبًا في الترتيل إلى أتون:

(1) بتري، ف.، دين مصر القديمة.
(2) صباح، م. ور.، أسرار الخروج، ص 99.
(3) فوكنر، ر. و.، كتاب الموتى المصري القديم ، ص 29.
(4) سفر الخروج، الإصحاح 20، الآيات 13، 15، 16.
(5) المزامير، 104، الآية 24.



ما أعظم أعمالك كلها،
إنها مخفية من أمامنا،
أيها الإله الوحيد، الذي لا يمتلك سلطاته أحد آخر
أنت خلقت الأرض حقًّا
وفقًا لرغبتك[1].

إن التشابه اللافت للنظر بين المصطلح المقدس والممارسة الطقسية واسع الانتشار وعميق في آن واحد. وفي عمل مختصر كهذا يمكنني فقط أن أذكر بعض الأمثلة العديدة الموجودة. إن كلمة «سفينة» أو «صندوق» متشابهة بشكل ملحوظ جدًّا في كل من المصرية والعبرية وأسهمت في زعم أنطوان فابر دوليفيه، اختصاصي القرن التاسع عشر في اللغات السامية: «إنني أرى أن المصطلح العبري المفهوم في السِّفر (المخطوطات[*] الدينية للتوراة) كأنه فرع مزروع من اللغة المصرية[2].

إن السفينة، المستخدمة بشكل رمزي للانتقال لدى الإله أتون خلال المراسم في تل العمارنة، كان يستخدمها يهود الخروج لاحقًا لنقل الألواح الحجرية التي حُفرت عليها الوصايا العشر. إن Sephirot أو صفات الله العشر الموجودة في كابالاه، مثل العُلُوّ والحكمة والذكاء والرحمة والقوة والجمال والنصر والمجد والأساس والملك كانت، وفقًا للأخوين صباح، مدرجة أصلًا بوصفها صفات الفراعنة[3]. وكان أخناتون يضحي بالحيوانات في تل العمارنة بأسلوب مماثل لموسى. ووُصف تل العمارنة نفسه بأنه المدينة المقدسة وقد كُتب أن أخناتون ترك أرض الكرنك المقدسة إلى الأرض المقدسة في أخيتاتن أو تل العمارنة. و«الأرض المقدسة» - هي تعبير معبّر لدى اليهود والمسيحيين[4]. وقد نقش المصريون القدماء نصوصًا مقدسة على نحوٍ طقسي فوق مداخل معابدهم، وهي عادة يكررها الشعب اليهودي اليوم ولا يزال بالإمكان العثور

(1) جيديس وغروسيت، الأسطورة والتاريخ في مصر القديمة، ص 268.
(*) الترجمة الحرفية هي لفائف أو لفّات، وقد استخدمت كلمة مخطوطات لأنها تمثل التعبير الأدق المتداول. [المترجم].
(2) صباح، م. ور.، أسرار الخروج.
(3) دوليفيه، أ. ف.، (1768-1825)، عودة اللغة العبرية.
(4) صباح، م. ور.، أسرار الخروج.



على هذه النصوص المعروفة باسم ميزوزوث عاليًا قرب أبواب البيوت المتمسكة بالعقيدة[1].

وهكذا كانت اليهودية المبكرة بعد الخروج من دون شك، عرقيًا وروحيًا معًا، مصرية في الأصل. وقد ميّزَ العلماء هذه الحقيقة البارزة لعدة سنوات، ومع ذلك من المحزن أنه يظل عليها فرض نفسها على وعي الجمهور العالمي عمومًا. ربما تكون هذه الفجوة الصارخة في معرفة الجمهور عاملًا مساهمًا أكثر لدفع أفراد مضللين من الأديان العالمية الرئيسة الثلاثة للتصرف بشكل خصوم بدلًا من إخوة.

(1) صباح، م. ور.، أسرار الخروج.




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الثاني

الوحي الأول للدين الإبراهيمي
كتابة العهد القديم

من الغريب أن الحرب والدمار أديا دورًا فعالًا في نشوء الأديان التوحيدية الكبيرة للعالم. وهي ليست الحروب التي يجري خوضها على ما يبدو باسم الدين، والتي يُكتشف عادة أنها ناجمة عن الطمع البشري من أجل السلطة أو الأرض، بل تلك التي أدت إلى نهب مدينة من دون غيرها، وهي مدينة القدس المقدسة.

حدد موت الملك سليمان، كما وردت روايته في العهد القديم، نهاية مملكة إسرائيل القديمة. وتسببت زيادات الضرائب التي فرضها ابنه ووريثه، الملك يربعام[1] بانشقاق البلاد إلى مملكتين، سُميت كل واحدة باسم قبائلها الرئيسة. ففي الجنوب كانت يهودا، وعاصمتها القدس؛ وفي الشمال كانت أفرايم، المسماة إسرائيل في الكتاب المقدس، والتي أصبحت السامرة لاحقًا. وفي عام 722 قبل الميلاد، استولى الآشوريون على السامرة وزالت مملكة أفرايم من الوجود. يُعدُّ غزو السامرة هذا ونفي شعبها أحد الأحداث المهمة القليلة التي وصفها الكتاب المقدس خلال ما يسمى «مرحلة الهيكل الأولى» التي يمكن التحقق منها بوضوح عن طريق مصادر تاريخية معاصرة خارجية. ونجد في سجلات سرغون الثاني، ملك الآشوريين: «في بداية حكمي الملكي، حاصرت مدينة السامريين وفتحتها... واقتدت 27290 من سكانها أسرى»[2]. ولا يزال هذا الحدث ذا أهمية مؤلمة لدى اليهود في جميع أنحاء العالم، لأن شبح «خسارة عشر

(1) سفر الملوك الأول، الإصحاح 12، الآية 11 وسفر أخبار الأيام الثاني، الإصحاح 10، الآية 11.
(2) مقتبس في الأطلس التاريخي للشعب اليهودي، ص 22.



من قبائل إسرائيل» لا يزال يطارد الذاكرة الجماعية للشعب اليهودي. وبعد نحو 20 سنة حاصر الآشوريون القدس بدورها، لكن المدينة لم تسقط. على أية حال، لم تكن حريتها ستدوم، ففي عام 598 قبل الميلاد، غزا الأرض فاتح جديد، هو الملك نبوخذ نصر ملك بابل. وسقطت القدس عام 597 قبل الميلاد واقتيد إلى الأسر 10000 من مواطنيها البارزين، منهم وريث العرش[1]. وبين عامي 734 و581 قبل الميلاد، جرت ست عمليات نفي لشعب إسرائيل، ونتيجة ذلك هرب آخرون كثيرون بحثًا عن الأمان في مصر وأراض مجاورة أخرى[2].

النفي البابلي

نتيجة هذه الأحداث المؤلمة بدأ شتات اليهود بصورة جدية، ومنذ هذا الوقت فصاعدًا، سيعيش أغلب اليهود دائمًا خارج أرض الميعاد. وقد أدركوا بالغريزة أن دينهم وثقافتهم، من دون معبد أو بلاد خاصة بهم، كانا تحت ضغط جدي، لأنهم واجهوا انقراضًا وشيكًا لشعبهم عبر استيعابهم من الوثنيين الذين وجدوا أنفسهم بينهم. وفي رد على ذلك اتجهوا إلى الله. وكانت لديهم هبة سامية تتجلى بالتوراة وكتاباتهم المقدسة الأخرى، وحول هذا المركز الروحي أوجدوا شكلًا جديدًا من اليهودية، شكلًا متجردًا من جميع القيود الإقليمية والولاءات السياسية وبنوا بثبات الدين والدرس استنادًا إلى التقوى والتعلم[3].

وهكذا، تحولت كارثة النفي الإجباري الواضحة لشعب إسرائيل في بابل إلى ميزة بأسلوب يمكن وصفه فقط بأنه ملهم إلهيًا. لم ينقل اليهود المنفيون في بابل دينهم ويضمنوا بقاءهم بصورة شعب فحسب، لكنهم باشروا، كما أظهرت القرون التي تخللت ذلك، عملية حوّلت العالم في النهاية. ومن كتاباتهم المقدسة، أوجد الكهنة والكتّاب التحفة الأدبية والروحية التي يدعوها المسيحيون بالعهد القديم ـ الأساس الديني لأديان العالم التوحيدية الثلاثة الكبيرة. كان لدى المنفيين القانون، وسفر التثنية (الذي اكتُشف في ظروف غريبة إلى حدٍّ ما قبيل سقوط القدس)، وبعض سجلات ماضيهم، وتقاليدهم

(1) سفر الملوك الثاني، الإصحاح 24، الآية 14.
(2) جونسن، بول، تاريخ اليهود، ص 82.
(3) إبشتاين، أي.، اليهودية، ص 83.



الشفهية، وأقوال الأنبياء. ومع إحساس عاطفي بالهدف أسسوا دينهم على ما كان لديهم، ووضحوا حقائق معاناتهم الحالية ثم وجهوا رؤيتهم ليس إلى المستقبل فحسب، ولكن باستعادة الروايات الموضوعة حديثًا والمنمقة بعناية حول ماضيهم. لذلك من الواضح أن الكثير من الأشخاص المهيمنين في التاريخ التوراتي، مثل شاوُل، وداود، وسليمان[1]، وإيليّا وحتى يوشع، عاشوا وماتوا من دون أن يستفيدوا من الكتب المقدسة لتوجيههم. والذي وجه هؤلاء العمالقة الروحيين في التاريخ اليهودي كان التراث الباطني الأولي لأسلافهم المصريين، بعد دمجه في الكتب المقدسة الجديدة المكتوبة في بابل. لم تصل العملية التي بدأت في منفى بابل إلى الكمال حتى القرن الثاني قبل الميلاد. ويتألف الكتاب المقدس العبري، الذي يستند إليه العهد القديم المسيحي، من ثلاثة أجزاء رئيسة: التوراة أو الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم، نيفيم أو الأنبياء وكيتوفيم أو الأمثال. وأجزاء دانيال وعزرا وأرمياء المكتوبة بالآرامية، والبقية مكتوبة بالعبرية[2].

ثمة إجماع عام الآن بين العلماء التوراتيين الحديثين حول تأليف الكتاب المقدس. ويمكن تمييز المساهمات من المصادر والتقاليد السابقة إما وفقًا للأسلوب الذي يصفون فيه الله، أو للتحيز أو التأكيد اللذين يكشفان أصولهم المحتملة. خلال النفي في بابل وبعده، مزج الكتّاب جميع مصادرهم المختلفة في كل واحد فعال، ولو كان متناقضًا أحيانًا، واستخدموا معتقداتهم الأساسية حول التاريخ والأساطير اليهودية لمنحهم أسلوبًا قصصيًا مثيرًا للاهتمام. ووفقًا للفرضية الوثائقية العلمية الحديثة، يمكن تمييز أربعة مصادر رئيسة وهي: (J)، التي تشير إلى الله باسم يهوه أو جيهوفاه؛ و(E) التي تشير إلى الله باسم إيلوهيم؛ و(D)، المؤلف المفترض لسفر التثنية؛ و(B)، المصدر الكهنوتي[3]. وخلف العَالَم الأكاديمي، يتقبل أيضًا المسيحيون، مع الاستثناء المحتمل لأصحاب الإيمان الأصولي، وبعض اليهود الأرثوذكسيين، هذه الفرضية، أو أحد أشكالها المختلفة العديدة، بدلًا من الفكرة القديمة بأن الكتاب المقدس كتبه موسى.

كان الكتّاب الموهوبون والعلماء والكهنة الذين جمعوا الكتاب المقدس ملهمين

---

(1) فوكس، روبن لين، النسخة غير المعتمدة: **الحقيقة والخيال في الكتاب المقدس**، ص 53.
(2) كوهن ـ شيربوك، دان، **موسوعة مختصرة عن اليهودية**، ص 43ـ44.
(3) المصدر السابق نفسه، ص 61 و62.



روحيًا فيما كتبوا. ومع ذلك كانت لديهم وسائلهم الخاصة للعمل، لأن الكتب المقدسة الجديدة شددت على دور كامل الفئة الكهنوتية الوراثية وأهميتها، وأرست داخل تلك المجموعة تأكيدًا خاصًا على أفراد المعمادوت الأربعة والعشرين، أو العائلات الوراثية الكهنوتية العالية التي تناوبت على خدمة المعبد في القدس والتي كان عليها كلها أن تكون من أحفاد صادوق الكاهن الأكبر في المعبد خلال عصر الملك داود.

كانت ثمة ميزة مهمة واحدة لتسليط فهمهم الروحي بشكل ذي أثر رجعي وهي أن تفسيرًا معقولًا وصحيحًا كما يبدو جرى ابتكاره لتوضيح حدث النفي المؤلم. كان شعب إسرائيل يعاني لأنه أخفق، بشكل فردي وجماعي، وبشكل واضح ومتكرر، في المحافظة على الميثاق مع الله. وكانت عبادة الأصنام والردة المتكررتان اللتان ورد تفصيلهما في الكتب المقدسة الجديدة تستعملان لتوضيح غضب الله من شعبه المختار، الذي نجمت عنه كارثة الغزو والنفي. وهكذا، فإن شعب إسرائيل جلب الدمار لنفسه ـ كان النفي عقابًا إلهيًا على ماضيه الشرير. وهذا التفسير لم يوضح الكارثة بتعبيرات صحيحة روحيًا فحسب، لكنه أتاح لغالبية اليهود استعادة احترام الذات. كان هذا تفسيرًا يعني أن التوبة الممنوحة المستحقة والعودة إلى الصواب سيكون فيهما تجديد لبركة الله ورعايته[1]. وكان اليهود قد تشجعوا بقوة آنذاك للاقتراب أكثر من يهوه عن طريق التقيد بالتوراة. أدرجت الكتابات المقدسة لسفر التثنية المكتشفة حديثًا عددًا من القوانين الإلزامية، تتضمن الوصايا العشر، التي توسعت آنذاك إلى التشريع المُرَكب والمُقر كتابيًا للوصايا البالغة 613 أو الميتزفوت في الكتاب المقدس[2]. كانت بذلك اليهودية قد تحولت إلى قانون تشريعي رفيع الأثر آنذاك في كل سمة من سلوك أتباعها.

كذلك يمكن تتبع تطور الهياكل اليهودية واستخدامها بالعودة إلى المنفى، لأن اليهود في بابل كانوا محرومين من مقامهم المركزي في هيكل القدس. وكانوا بحاجة إلى نقطة مركزية جديدة لنشاطاتهم، نقطة تربطهم معًا في عرف ديني، يقوم بدور مركز لنشر الكتب المقدسة الجديدة، وبالأهمية نفسها لاستمرارهم العرقي، وتعزيز هويتهم الوطنية والثقافية. ومن دون هيكل يستطيعون التردد عليه، لا يمكن حدوث تضحية

(1) فوكس، روبن لين، النسخة غير المعتمدة: **الحقيقة والخيال في الكتاب المقدس**، الصفحة72.
(2) أرمسترونغ، كارين، **تاريخ الله**، ص 79.



طقسية بالطريقة الصحيحة، ونتيجة لذلك، كانوا مجبرين من أجل عبادتهم المشتركة أن يعتمدوا على الصلاة وقراءة النصوص الدينية الجديدة.

وفي بابل بدأ اليهود التحدث بالآرامية، اللغة السامية المحلية التي تشبه العبرية كثيرًا، رغم تميزها عنها[1]. وتابعوا التحدث بالآرامية عند عودتهم إلى القدس ويهودا وأصبحت اللغة الشائعة، اللغة التي تحدث بها المسيح لاحقًا. وحافظوا على العبرية للنصوص المقدسة والمناسبات الرسمية والطقسية ومع أنها تُعدُّ الآن بشكل عام لغة شعب إسرائيل، فإنها لم تكن معروفة بذلك الاسم قبل استعمالها في مقدمة سفر الجامعة (كُتب حوالي عام 130 قبل الميلاد).

التقليد الأولي اليهودي

يتضح تمامًا من الكتب المقدسة أن اليهود حافظوا على تقاليدهم الدينية الأولية والباطنية وأكدوا عمدًا أهميتها في الكتابات المُلهمة المؤلفة خلال النفي. وكان دور الملك الكاهن داود والحكمة الأولية لابنه، الملك سليمان، موضع احترام وانتشر المفهوم الأولي للدرجات القدسية التصاعدية عبر الحياة اليهودية وحَرَم المعبد نفسه.

علاوة على ذلك، كانت الرؤية الباطنية للأنبياء ممجدة كثيرًا، خصوصًا إيليّا وأليشع. بالإضافة إلى هذا، يقترح نورمان كانتور وجون أليغرو والبروفسور مورتن سميث جميعًا أن اليهود تعلموا أشياء أكثر من الآرامية والعبادة في المعابد خلال وجودهم في منفى بابل وأنهم عادوا بنوع مُتَقلّب الطبيعة من الدين الباطني من بابل لاستكمال الدين التوراتي الأكثر وقارًا الذي نعرفه اليوم[2]. وفيما بعد، تطور تيار مميز من اليهودية المؤثرة كان لها جذور تعود إلى الجليل[3]، بالإضافة إلى نوع باطني متعدد الأوجه ذي جذور مصرية / عبرانية فعلًا. منذ القرن الثاني قبل الميلاد جرى بناء ديفير، أو قدس الأقداس، لوضع تابوت العهد ـ عرش الله على الأرض ـ وأصبح مركز الباطنيين الذين تخيلوا الصعود مباشرة إلى قصر الله السماوي والاقتراب من عرشه الإلهي. وهكذا قرأنا عن

---

(1) كانتور، نورمان، **السلسلة المقدسة**، ص 29.

(2) المصدر السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(3) فيرمز، **المسيح اليهودي**، ص 79.



الباطنيين اليهود وهم يستعدون لهذا الصعود الباطني بقواعد أولية خاصة[1]. وتركز التأملات الباطنية الأخرى الموجودة داخل التلمود على maaseh bereshith، أو عمل الخلق الموصوف في الإصحاح الأول من سفر التكوين، وmaaseh merkabah، أو العربة القدسية في رواية رؤية حزقيال. ولا حاجة للقول إن هذه المذاهب الباطنية كانت محمية بعناية وكان تفسيرها محرمًا إلا لبعض الأتباع المختارين بالأسلوب المصري التقليدي.

هنالك أيضًا «مزامير الصعود» في الكتاب المقدس وقد انتقل نوع من الباطنية الأولية المعروفة باسم «تقليد الصعود» بشكل شفهي طوال قرون قبل اكتسابه شكلًا مكتوبًا في الكابالاه خلال العصور الوسطى. ووصَفَ هذا الشكل من الباطنية الصعود إلى السماوات العليا، أو الصعود عبر درجات مختلفة من التنوير الأفلاطوني المُحْدَث أو المعرفة الروحية في تنوع آخر من تقليد المركاباه المعروف باسم هيكالوث[2]. ويُقال إن الكابالاه نفسها مستمدة من هارون، الأخ الكهنوتي لموسى ويمكن الزعم على نحو منصف أنها أقدم تقليد باطني لليهودية. كان التعليم يمر نزولًا من المعلم إلى التلميذ بتقليد شفهي اتخذ أخيرًا شكلًا مكتوبًا في القرن الثاني عشر الميلادي. وأحد أشهر مبادئه هو فكرة الصدّيق أو الشخص المستقيم[3] الذي، كما عبّر عنه حزقيال، لن يعاني بسبب ذنب شخص آخر. وهو لن يموت. «النفس التي تخطئ هي التي يجب أن تموت. الابن لا يحمل من إثم الأب والأب لا يحمل من إثم الابن»[4] وفي سِفْر ها زوهار، أو سِفْر البهاء، مكتوب إن نوحًا كان شخصًا مستقيمًا وقيل عنه: «الشخص المستقيم هو أساس العالم»، والأرض مؤسسة على ذلك، لأن هذا هو العمود الذي يدعم العالم. لذلك فإن نوحًا كان يُدعى «المستقيم... وتجسيد ميثاق العالم حول السلام»[5].

وهكذا، كان في صميم هذا الشكل الجديد من اليهودية مزيج مُحكم من المفهوم القانوني الجديد والتقليد النبوي القديم والمبجل والأولي الذي أوحى بدين مهيمن

(1) أرمسترونغ، كارين، **تاريخ القدس**، ص 116.
(2) أيزنمان، روبرت، **يعقوب أخو المسيح**، ص 200.
(3) المصدر السابق نفسه، ص 133.
(4) **سفر حزقيال**، الإصحاح 18، الآيات 17ـ21.
(5) زوهار 59 b حول «نوح».



والتزام أخلاقي عميق دائم. وقد أصبح هذا واضحًا في اختلاف مفهوم العبادة قبل عصور النفي وبعدها. والعبادة خلال حقبة الهيكل الأولى مسجلة في الكتب المقدسة بأنها صاخبة وبهيجة ومفعمة بالضجيج؛ وبالمقابل، في حقبة الهيكل الثانية، مالت العبادة إلى كونها أهدأ بكثير وذات طبيعة أكثر رصانة. وفي المنفى، كان شعب إسرائيل قد أصبح واعيًا تمامًا أن ذنوبه كانت مسؤولة عن دمار القدس، وتعزز هذا بالاحتفال الجديد ليوم الغفران، يوم التكفير. وكان هذا هو اليوم السنوي لدخول الكاهن الأكبر ديفير، أو قدس الأقداس، ممثلًا لشعبه وجاثيًا على ركبتيه أمام عرش الله من أجل غفران ذنوب الأمة بكاملها[1].

كانت النتيجة المركَّبة لتأليف الكتب المقدسة، والتوحيد المطلق والمؤكد والحصري، وتصنيف قيود القانون البالغ عددها 613، وبناء المعابد والرؤية الدينية الجديدة للكهنة والكتّاب قد لخصتها كارين أرمسترونغ على نحو رائع:

> **لقد استوعب يهوه منافسيه أخيرًا في الخيال الديني لإسرائيل؛ وفي المنفى، فَقَدَ سحر الوثنية جاذبيته ووُلد دين اليهودية[2].**

التاريخ التوراتي المحول إلى أسطورة

وهكذا، بينما يألف غالبية اليهود والمسيحيين والمسلمين الروايات التوراتية لخروج شعب إسرائيل من مصر وكل ما تلا ذلك مثل التيه لمدة 40 سنة في القفار والغزو اللاحق لأرض الميعاد، فإنهم يُغفلون بسعادة عادة أن هذه الكتب المقدسة كُتبت على مدى سبعة قرون بعد الأحداث التي تصفها. وقد حلل مؤرخون جدد هذه الروايات المثيرة بنتائج مختلفة ويميلون إلى تأمل محتوياتها بحذر زائد أو حتى بشك تام. وفي الحقيقة يصف كثير من العلماء الإسرائيليين البارزين الخروج على أنه محض أسطورة. وقد اقترح يهودي أميركي بارز، هو نورمان كانتور، أن هذه الرواية حول استعباد شعب إسرائيل في مصر كانت ضربًا من الخيال المتعمد:

> ... ربما جرى تلفيق الإقامة المصرية المؤقتة كلها في القرون اللاحقة لغاية مكيفة أيديولوجيًا أو مفيدة اجتماعيًا[3].

---

(1) أرمسترونغ، كارين، **تاريخ القدس**، ص 96.

(2) أرمسترونغ، كارين، **تاريخ الله**، ص 75.

(3) كانتور، نورمان، **السلسلة المقدسة ـ تاريخ اليهود**، ص 7.



وفي العمل نفسه استمر كانتور بهذا الخط الفكري لاحقًا إلى خاتمته العقلانية، وهو خط عَدَّه تجديفًا أولئك الذين يؤمنون أن الكتاب المقدس هو «كلمة الله المعصومة»:

هذه هي القصة التوراتية التي يتحدى إثباتها مسار العلم التاريخي والأثري. إنها خيال رومانسي[1].

وصف سيغموند فرويد العصر التالي للخروج مباشرة، والمتعلق بغزو أرض الميعاد، أنه عصر، «... عَصِيّ على البحث»[2]. كما كتب المؤرخ الكاثوليكي الروماني المتدين، بول جونسن، الذي يرى عمومًا أن الكتب المقدسة سجل تاريخي حقيقي:

تحددت بعض المواقع الأخرى المذكورة في سفر الخروج بصورة أولية. لكن رسم هذه الجولات على خريطة، رغم محاولة ذلك غالبًا، والتفكير فيه بالتأكيد، لا يمكن أن يؤدي إلى شيء أكثر من التخمين[3].

وكان الباحث في مخطوطات البحر الميت، جون أليغرو، واضحًا أكثر:

نحن في نصف عالم غامض، حيث تتلاشى حقائق التاريخ الصعبة إلى أساطير، وحيث لا مكان لخط التقسيم الواضح الذي نريد رسمه بين الحقيقة والخيال[4]...

على أية حال، وعلى الرغم من شكوكه حول تاريخية الخروج، ميز جون أليغرو بوضوح الحقيقة الروحية التي تكمن وراء هذه الخرافة الساحرة حين زعم أنه:

خلال التيه في الصحراء بقيادة موسى، بعد الهروب الذي رعته السماء، التحم الإسرائيليون في أمة، مما سمح بمعرفة الاسم السري لله، وقدم المنحة التي لا تقدر بثمن وهي التوراة، أو القانون[5].

يوصف التيه المُطَّول في القفار غالبًا أنه رمز لبحث الإسرائيليين عن «حقيقة روحية» تُتوج في منح الله التوراة لهم والسماح لهم بدخول «أرض الميعاد».

كذلك، ضمن الكتب المقدسة المبكرة، ثمة إشارات واضحة عدة تؤكد الجذور

---

(1) كانتور، نورمان، السلسلة المقدسة ـ تاريخ اليهود، ص 11.
(2) فرويد، س.، موسى والتوحيد.
(3) جونسن، ب.، تاريخ اليهود، ص 42.
(4) أليغرو، ج. م.، مخطوطات البحر الميت والأسطورة المسيحية، ص 65.
(5) المصدر السابق نفسه، ص 40.



المصرية والمعرفية الروحية لليهودية الناشئة. ويسجل مؤلفو المزامير، على سبيل المثال، أن الله تكلم معهم بوساطة عمود السحاب[1] الذي جرى تفسيره لاحقًا أنه يعني نبع الوحي أو مقر الحكمة نفسها[2]. أشار هذا التفسير ضمنًا إلى أن «الحكمة» كانت كيانًا قدسيًّا منفصلًا عن الرب إله إسرائيل. وفي أبوكريفا[*] نجد أن علاقة الله بالحكمة تتحدد أيضًا برمزية السحاب: «في السماء جعلت مسكني، وعرشي في عمود السحاب»[3] وهكذا، كانت المعرفة الروحية، أو الحكمة المقدسة، مهمة للكهنة الوراثيين «الجدد» الذين أسسهم موسى كما كانت لأسلافهم المصريين. وتظهر أهمية الحكمة في وصفها على أنها مساعدة الله في عملية الخلق، بالكلمات: «الحكمة بَنَت بيتها. ونحتت أعمدتها السبعة»[4]. وتوصف الحكمة أيضًا بأنها «رفيقة الله»، وهي عبارة غريبة إلى حدٍّ ما بالنسبة إلى أي كهانة أو شعب توحيديين حقًّا.

كان غزو أرض الميعاد الواردة روايته في الكتب المقدسة، قد تأكد على ما يبدو بعمل عالم الآثار، ألبرايت، الذي أجرى سلسلة من أعمال التنقيب في مدينة أريحا بين عامي 1935ـ1965. وحين اكتشف دليلًا على انهيار أسوار المدينة وزعم بأن هذا برهان على الدقة التاريخية في الكتاب المقدس، استُقبل إعلانه بالبهجة من المتشددين في جميع الأديان[5]. وكانت هذه الغبطة المنتشية قصيرة الأجل، على أية حال، لأن مزيدًا من التنقيب قامت به عالمة آثار أخرى، هي كاثلين كينيون، بعد بضع سنوات، أظهر على نحو جلي أن الأطلال التي نقبت عنها ألبرايت كانت في حقبة تسبق بكثير الغزو المزعوم لأريحا بقيادة يوشع، ولذلك، لا يمكن نسبتها إلى غزوه للمدينة[6].

ربما تكون دولة إسرائيل الحديثة أكثر بلاد جرى التنقيب فيها على نحو شامل في العالم، وعلى الرغم من ذلك فإن علماء الآثار اكتشفوا دليلًا ملموسًا صغيرًا أو لم

---

(1) المزامير، 99، الآية 7.

(2) أليغرو، ج. م.، مخطوطات البحر الميت والأسطورة المسيحية، ص 173.

(*) أربعة عشر سفرًا تلحق أحيانًا بالعهد الفصل الثالث عشر القديم من الكتاب المقدس ولكن البروتستانت لا يعترفون بصحتها. [المترجم].

(3) سفر الجامعة، الفصل 24، الآية 4.

(4) سفر الأمثال، الإصحاح 9، الآية 1.

(5) كيلر، و.، الكتاب المقدس بوصفه تاريخًا، هودر وستوتون، لندن، 1956.

(6) كانتور، نورمان، السلسلة المقدسة ـ تاريخ اليهود، فونتانا، لندن، 1996.



يكتشفوا شيئًا عن غزو شعب إسرائيل خلال احتلالهم المزعوم لتلك الأرض. وقد كتب العالم والمؤرخ التوراتي الإنكليزي، روبن لين فوكس: «لا توجد أية إشارة على احتلال أجنبي في المرتفعات، التي ستصبح الداخل الإسرائيلي»[1]. علاوة على ذلك، يسجل الكتاب المقدس الكثير من الأحداث التي تعارض كليًا التوحيد المزعوم لشعب إسرائيل مع الروايات العديدة لعبادة الأصنام الوثنية التي حدثت من وقت لآخر.

إن إحدى أقدم الإشارات إلى الله الواحد الحقيقي هي الإشارة إلى إله ملكي صادق، إل إليون، «الله العليّ»[2] الذي دفع إبراهيم من أجله ضرائب العشر إلى ملكي صادق. كان اسم إل إليون، أو إل، لقب الإله الكنعاني بعل في جبل زافون، كلمة سامية غربية عامة تعني الله. وعلى نحو مشابه، إن إيلوت، الكلمة السامية التي تعني إلهة، وجمعها الأنثوي إيلوهيم، توجد كثيرًا في الكتاب المقدس[3]. ويسجل الكتاب المقدس أن الإسرائيليين شاركوا في مناسك خصوبة بعل، وعبدوا العديد من الآلهة السورية، وقدّسوا إلهة الخصوبة، عشتروت، التي أتى وصفها بأنها رفيقة إل في هيكل القدس[4]. وكانت عشتروت، التي عُرفت على نحو مختلف بأنها «تلك التي تمشي في البحر»، و«القدسية» وإيلاث «الإلهة»، قد وُصفت بأنها زوجة يهوه حين شبّه نفسه بصورة الأب الإله إل[5]. وقد بنى ملك لاحق لإسرائيل، هو الملك منسّى، مذبحًا لعشتروت في الهيكل[6]، وهو مذبح هدمه يوشيّا لاحقًا[7].

وأخيرًا، اندمجت الأعداد الكبيرة المختلطة التي فرت من مصر مع القبائل الساميّة في كنعان، وبدأت تسيطر عليها. وأخذت بشكل تدريجي تعزل شركها وممارساتها

---

(1) فوكس، روبن لين، النسخة غير المعتمدة: **الحقيقة والخيال في الكتاب المقدس**، ص 225ـ233.

(2) أليغرو، ج.، **مخطوطات البحر الميت والأسطورة المسيحية**، ص 61.

(3) **الآلهة السامية**، ص 132ـ133.

(4) أرمسترونغ، كارين، **تاريخ القدس**، ص 30.

(5) بارينغ، أ. وكاشفورد، ج.، **أسطورة الإلهة**، ص 454.

(6) **كتاب القدس المقدس**، ص 419، آير وسبوتيسوود، لندن، 1968 (ملاحظة: جرت ترجمة كتاب القدس المقدس مباشرة عن العبرية وليس عن اليونانية) انظر أيضًا زيتلين، ي. م. (1986) ـ **اليهودية القديمة**، مطبعة بوليتي، كمبردج، المملكة المتحدة، ص 173 وهانكوك، ج.، **العلامة والختم**، 1992، ص 419ـ420.

(7) **سفر الملوك الثاني**، الإصحاح 13، الآية 12.



الوثنية وتتحد حول إيمانها بيهوه، الذي اتخذ مظاهر عبادة الإله الكنعاني بعل أو إل إليون إله ملكي صادق[1]، وفي النهاية أصبحت هذه المجموعة الغريبة معروفة بشعب إسرائيل. وتذكر كارين أرمسترونغ هذا باختصار مفيد حين تكتب:

يوضح الكتاب المقدس أن الشعب الذي نعرف أنه الإسرائيليون القدماء كان اتحادًا من مجموعات عرقية مختلفة، ارتبطت معًا على نحو أساسي بولائها ليهوه، رب موسى[2].

هيكل الملك سليمان

تطابق تصميم هيكل سليمان، كما جاء وصفه في العهد القديم، على نحو كبير مع نماذج لمعابد مصرية وكنعانية وسورية أقدم[3] وشمل ثلاث مناطق مربعة، تؤدي إلى غرفة مكعبة صغيرة نسبيًّا معروفة باسم ديفير، أو «قدس الأقداس» احتوت على تابوت العهد[4]. مع ذلك، وعلى الرغم من التحريم الديني كله للصور المحفورة، احتوى المعبد على ملائكة منحوتة بارتفاع عشرة أذرع[5] ورسوم لنخيل وزهور. كما احتوى على مذبح برونزي بالإضافة إلى حوض برونزي ضخم يمثّل يام، البحر الأولي في الأسطورة الكنعانية[6]، وكان هذا محمولًا على ثيران مسبوكة أيضًا من البرونز، مع عمودين طليقين بارتفاع 40 قدمًا يمثّلان خصوبة عشتروت[7]. وانتصب أمام الهيكل، بتوافق مع تقليد الحكمة المصرية القديمة، عمودان طليقان، كل منهما بارتفاع 35 ذراعًا، اسمهما ياكين وبوعز[8].

واصل الشعب في عصر سليمان عبادة يهوه في الأماكن العالية التي ورثها من الكنعانيين في بيث إل وشيلُوة والخليل وبيت لحم ودان، وحضر مرارًا طقوسًا وثنية في

(1) أرمسترونغ، كارين، **تاريخ القدس**، ص 59.
(2) أرمسترونغ، كارين، **تاريخ الله**، ص 19.
(3) أوسيشكين، د.، «**قصور الملك سليمان**»، عالم الآثار التوراتي، ص 35، 1973.
(4) **سفر الملوك الأول**، الإصحاح 6، الآية 19.
(5) المصدر السابق نفسه، الإصحاح 6، الآية 26.
(6) **سفر أخبار الأيام الثاني**، الإصحاح 4، الآية 2.
(7) أرمسترونغ، كارين، **تاريخ القدس**، ص 34.
(8) **سفر أخبار الأيام الثاني**، الإصحاح 3، الآية 15ـ17.



هذه الأضرحة. وفي الحقيقة، يقال إن سليمان نفسه مجّد آلهة وثنية وأنشأ مكانًا عاليًا لكَموش، إله المؤابيين، ومولوخ، إله العمّونيين[1] وكانت عبادة عشتروت إلهة سكان صيدا مسموحًا بها في إسرائيل خلال هذا العصر. لذلك ومع أن بناء الهيكل الأول ليهوه في القدس يُنسب إلى الملك سليمان، فإنه نفسه لا يمكن تمجيده تقريبًا على أنه موحِّد صرف. ولم تتخذ الكتب المقدسة شكلًا مكتوبًا نهائيًّا للمرة الأولى حتى زمن النفي البابلي (597ـ539 قبل الميلاد)، وذلك حين قرر الإسرائيليون أخيرًا أن يهوه هو إلههم الوحيد وأنه لم يكن ثمة آخرون[2]. قبل ذلك الوقت، كانت تعد المسألة مشوشة إلى حدٍّ ما بالنسبة إلى شعب يزعم أنه توحيدي بصورة حصرية وفريد من نوعه.

تحتوي الأخبار التوراتية المختلفة حول هيكل سليمان على أمور غريبة وغير طبيعية أخرى. فالرواية في سفر الملوك لا تأتي على ذكر أي كهنة[3]، لكن رواية أخرى في سفر أخبار الأيام تفصل واجباتهم الدقيقة في عصر الملك داود وتؤكد ضمنًا أن هذه الممارسات استمرت فيما بعد[4]. ويفسر صموئيل سانميل، المؤرخ التوراتي، هذا التناقض الغريب بزعمه:

> **إن الرأي الاعتيادي للعلماء الحديثين هو أن التنظيم الكهنوتي في سفر أخبار الأيام الذي ظهر في الجزء الأخير من حقبة ما بعد النفي كان يُقرأ سابقًا بشكل يتضمن مفارقة تاريخية على أنه في أيام داود وسليمان، معطيًا بذلك إقرارًا بقدم النظام الكهنوتي في حقبة ما بعد النفي. إذ قدّم هذا النظام الكهنوتي أربعًا وعشرين معمادوتًا، أي فرقًا كهنوتية تناوبت على خدمة المعبد في القدس[5].**

إن سانميل على صواب عندما يصرح بأن الروايات الدينية لعصري داود وابنه سليمان كُتبت بعد الأحداث التي تصفها بأربعة قرون على الأقل، لأن العهد القديم، كما وصفتُه، بدأ يأخذ شكله الحالي خلال النفي البابلي فقط ولم يكتمل إلا بعد بضعة قرون. وهكذا ففي عصر ما بعد النفي فحسب تطورت اليهودية إلى نظام توحيدي بشكل متين

(1) سفر الملوك الأول، الإصحاح 11، الآية 7.
(2) أرمسترونغ، كارين، تاريخ القدس، ص 27.
(3) سفر الملوك الأول، الإصحاح 8.
(4) سفر أخبار الأيام الأول، الإصحاح 23، الآية 24.
(5) سانميل، س.، اليهودية وبدايات المسيحية، ص 22.



وحصري مع جماعة كهنوتية مؤسسة بشكل واضح وأصبحت دينًا قانونيًّا تمامًا مستندًا إلى القيود القانونية البالغ عددها 613.

التوراة

بعد النفي في بابل أصبح الكتاب المقدس في صميم قلب كل من الحياة الدينية والعلمانية وكان تتويج القانون هذا هو الذي أنقذ اليهودية من أن تصبح مجرد دين كهنوتي آخر، يهتم فقط بأمور الممارسة الطقسية والدينية، وبدلًا من ذلك حوله إلى دين يضم جميع سمات الحياة بأسلوب سمح لإسرائيل بأن تتطور إلى أمة ثيوقراطية[1]. وعلى أيّة حال، لم تعد هوية شعب إسرائيل محددة بأي حدود إقليمية، لأن حكم الله امتد إلى الشتات، مع أن مقامه الخاص كان في ديفير داخل الهيكل في القدس.

كانت تعليمات الله لشعبه المختار موجودة في الكتب المقدسة المتطورة دائمًا. وتسببت الكتابات، التي كانت هائلة في حجمها وعسيرة أحيانًا في غموضها، في حشد متزايد من الكتّاب والكهنة لتفسيرها. وملأت هذه التعليقات الضخمة، مثل دراسات ميشنا والدراسات التلمودية، المكتبات العامة الكبيرة وأحدثت جدلًا ونقاشًا لا ينتهيان. ونتيجة ذلك، كان العَالم اليهودي بكامله، في أرض الميعاد وفي الشتات معًا، زاخرًا بالنزاعات الداخلية التي أنتجت خليطًا من الطوائف والانقسامات التي تعايشت، بسلام تقريبًا، تحت المظلة الروحية الواسعة لليهودية. وبما أن الإمبراطورية الفارسية كانت متسامحة مع معتقدات رعاياها الدينية، فإن هذه التطورات استمرت من دون تدخل خارجي. وفي عام 333 قبل الميلاد، عندما فتح جيش الإسكندر الكبير المنطقة، مُنحت يهودا ثانية حكمًا ذاتيًّا مميزًا وظل الكاهن الأكبر قائدًا دينيًّا وسياسيًّا معًا لشعبه. وفي بادئ الأمر، كان العبء الإضافي الوحيد المفروض على اليهود المحتلين حديثًا، هو المستوى العالي جدًّا من النظام الضريبي الذي فرضه الغزاة.

ولاحقًا، تحت حكم الملك السلوقي، أنطيوخس الرابع، تضاعفت هذه الضرائب العالية أصلًا وخُلع الملك الكاهن الأكبر الصادوقي الأخير عام 175 قبل الميلاد وعُين مرشحه الخاص مكانه. وقد بنى ابن الكاهن الأكبر المخلوع هيكلًا منافسًا في ليونتوبوليس في مصر بينما انسحب أغلب كهنة المعمادوت الصادوقيين من الهيكل

(1) إبشتاين، أي.، اليهودية، ص 85.



في القدس وشكلوا طائفتهم الخاصة في البرية قرب قمران. وهناك طوروا شكلًا جديدًا من العبادة يستند إلى قواعد صارمة من النقاء والولاء المتشدد للكتاب المقدس تحت القيادة الملهمة لرجل من جماعتهم أطلقوا عليه معلم الحق.

ردًّا على انتهاك الهيكل وعبء الضرائب المتزايد، انتفضت البلاد بقيادة الكاهن ماثياس ولاحقًا بقيادة ابنه يهوذا المكابي. وكانت هذه حربًا خاضوها على جبهتين: أولًا ضد أي يهود كانوا قانعين بطاعة القوانين اليونانية وثانيًا ضد الغزاة اليونانيين. وفي النهاية أدت الثورة المكابية إلى النصر. وجرى تطهير الهيكل في القدس وتكريسه ثانية في الاحتفال الأول للعيد الجديد للحانوكة، مهرجان الضوء. في عام 143 قبل الميلاد سمّى اجتماع كبير في القدس سمعان المكابي كاهنًا وراثيًّا أكبر وحاكمًا. لقد بدأ عصر المكابيين، وللمرة الأولى طوال قرون كان لشعب إسرائيل كاهنهم الملك الخاص. ازدهرت المملكة الجديدة في بادئ الأمر، وأصبحت تحت حكم ألكسندر جونانيوس قابلة للمقارنة مع المملكة التي حكمها الملك الأسطوري سليمان. ومن المحزن، بعد أن تمزقت سلالة المكابيين نتيجة نزاع مدمر، أن حربًا أهلية اندلعت في النهاية وقامت إحدى الفئات المتحاربة بالتوجه إلى الإمبراطورية الرومانية بوصفها حليفًا. وفي النهاية، أدى هذا إلى حكم رجل وُصف بأنه «صديق روما»، ذلك الرجل المعقد والموهوب سياسيًّا والوحشي المعروف في التاريخ باسم هيرودوس الكبير.



الفصل الثالث

اليهودية في عصر المسيح

أصبحت دولة يهودا اليهودية دولة دمية في يد روما عام 63 قبل الميلاد إثر تدخل بومبي في الحرب الأهلية بين الفريسيين والحاكمَين اليهوديين، هيركانوس وأريستوبولوس[1]. وفي عام 43 قبل الميلاد، اعتلى هيرودوس الكبير العرش وأكدت روما أنه ملك اليهود بعد حوالي أربع سنوات عندما سجل سترابو، المؤرخ الروماني، أن هيرودوس «كان متفوقًا جدًّا على أسلافه، ولا سيّما في تعامله مع الرومان وفي إدارته لشؤون الدولة، وبذلك حاز لقب الملك»[2].

في البداية كان هيرودوس ملكًا شجاعًا وداهية، وإداريًّا رائعًا وسياسيًّا قديرًا بدرجة عالية فأرسى دعائم النظام والاستقرار في هذه البلاد المضطربة جدًّا. وكان بنّاء منتجًا أعاد بناء الهيكل في القدس بالكامل، وأسس ميناء قيصرية، وبنى قلاعًا تصل جنوبًا إلى الأردن وشمالًا في دمشق. ولأنه من أدومية وغير مقتنع بيهوديته كثيرًا، فقد بنى معابد لآلهة وثنية: واحدًا في قيصرية، وآخر في سيباستي وثالثًا في بانياس[3]. وبنى أيضًا معبدًا للإله الكنعاني القديم بعل في سيا، وقدم مساعدة مالية كبيرة إلى الذين يبنون معابد وثنية في بيروت وصور[4]، كذلك ساعد في ترميم معبد أبولو البيثي في رودس[5]. وبنى

(1) جونسن، بول، **تاريخ المسيحية**، ص 10.

(2) سترابو، **الموسوعة الجغرافية**، الكتاب 16، الفصل 2، ص 46.

(3) ريتشاردسون، بيتر، هيرودوس، **ملك اليهود وصديق الرومان**، ص 184ـ185.

(4) جوزيفوس، **الحرب**، الكتاب الأول، الفصل 4، 22 و**العصور القديمة**، الكتاب السادس عشر، الفصل 1، 47.

(5) جوزيفوس، **الحرب**، الكتاب الأول، الفصل 4، 24 و**العصور القديمة**، الكتاب السادس عشر، الفصل 1، 47.

مكتبة الفكر الجديد

أنطونيا لمارك أنتوني، وهو بناء أصبح لاحقًا مقر حكام المقاطعات الرومانية واحتله في النهاية بيلاطس البنطي.

يمكن إثبات عيوب الروايات الإنجيلية حول هيرودوس بسهولة لأنه كان من دون شك أحد أكثر الأشخاص توثيقًا في ذلك العصر. وفيما يتعلق بقسوته فهي مسألة مُدَوَّنَة بأنه كان يتصرف على نحو عنيف تجاه أي من أفراد عائلته يشعر أنه يشكل تهديدًا لسلطته[1]. وفي الحقيقة، لقد قال الإمبراطور أوغسطس عنه، «إنني أفضّل أن أكون خنزير هيرودوس بدلًا من ابنه»[2] ـ وهو تعليق صادق بقسوة من أقوى حاكم على وجه الأرض حول موضوع أحد أكثر أتباعه المؤتمنين. والرواية الإنجيلية حول «ذبحه للأبرياء»[3] على أية حال، تفتري عليه بشكل ظالم. ويلقي إخفاق المؤرخ اليهودي فلافيوس جوزيفوس في ذكر هذا الحدث ضمن ابتهاله الشامل حول قسوة هيرودوس، شكًّا كبيرًا على الرواية الدينية. كذلك، لا يوجد ذكر لهذه المذبحة مطلقًا في الأدب التلمودي لذلك الوقت، وهو عمل لم يفتتن تقريبًا بالمزايا المريبة للملك هيرودوس. وحين نتأمل هذه الحقائق على ضوء الفوارق المذهلة بين الروايات الإنجيلية المختلفة لولادة المسيح، فإنها لا تقدم لنا سببًا وجيهًا للشك في هذه الحكاية القاسية فحسب، بل تقودنا إلى الاستنتاج بأنها لم تحدث مطلقًا، لأنه لم يجر تدوينها من أكثر النقاد حدة للملك هيرودوس.

في العقود الأولى لعهد هيرودوس، منح الرومان، الذين تدخلوا بأقل قدر ممكن في الشؤون الداخلية للأقاليم المحتلة، اليهود مساحة واسعة من الحكم الذاتي وكان مسموحًا للشعب بحرية كاملة في العبادة الدينية، وهكذا فإن العلاقة بين الرومان واليهود كانت مثمرة كما يبدو[4]. كما أن مهارات هيرودوس السياسية الجديرة بالثناء استطاعت إبقاء الغطاء على المرتع الهائج للسخط القومي الذي كان الخلفية الدائمة لشؤون الدولة منذ عصر أنطيوخس الرابع (169 قبل الميلاد)، قبل مدة طويلة من وصول الرومان.

(1) جوزيفوس، **العصور القديمة**، الكتاب الخامس عشر، الفصل 2، 59ـ65.
(2) ماكروبيوس، **عيد الإله ساتورن**، الكتاب 2، الفصل 1، 4.
(3) **إنجيل متّى**، الإصحاح 1، الآية 22 وما بعدها..
(4) رافنسكروفت ووالاس ميرفي، **سِمة الوحش**، ص 113.



اليهود المتمردون

بعد موت هيرودوس، تدفق هذا التأجج القومي والديني إلى السطح بشكل متكرر في مجابهات عنيفة مع كيتيم، المحتلين الرومان المكروهين. وكان التمرد الرئيس، واسمه حرب فاروس في التلمود، ثورة أساسية بدأت خلال عيد العنصرة وانتشرت بسرعة من القدس إلى يهودا والجليل والبيرة وأدومية. وعلى الفور حشد فاروس، حاكم سوريا الروماني، فيالقه في الميدان، وأحرق إموس وسيفوريس وساق الباقين على قيد الحياة في هاتين المدينتين عبيدًا[1]. وباستخدام العقاب الروماني النموذجي للعصيان، صلب 2000 يهودي من دون رحمة بسبب التمرد[2]. وكان هذا الحدث الأول فحسب في سلسلة الأحداث العنيفة التي دلّت على السخط اليهودي الدائم من الرومان. وبعد زيادة الرومان وملوكهم الدمى للضرائب باستمرار، ازداد المزيج المندفع من التأجج الديني والهياج السياسي زخمًا.

كانت إسرائيل التوراتية، كما ذكرتُ سابقًا، حكومة دينية؛ وكانت التوراة القانون الوحيد الذي احترمه اليهود، وبالنسبة إليهم، كان أي قانون روماني مفروضًا. وفي دولة ثيوقراطية، كان من المستحيل الإدلاء بتصريح ديني من دون أن يكون سياسيًّا أيضًا، وبالطريقة نفسها، كان من المستحيل بصراحة على الرومان فرض أي قيود قانونية على الشعب من دون أن يحسبوه شكلًا من أشكال الانتهاك الديني. كانت هذه هي الحقيقة العاصفة وربما العنيفة التي عمّت يهودا، وليس الجو الريفي السلمي اللطيف الذي لمّحت إليه الأناجيل.

كان روبرت أيزنمان، عالم مخطوطات البحر الميت ومدير مركز دراسة الأصول اليهودية المسيحية في جامعة ولاية كاليفورنيا، قد اقترح أن البلاد السلمية ظاهريًّا والتي اتخذت الطابع اليوناني حيث ألقى صيادو السمك الجليليون شباكهم، ومشاهد العهد الجديد التي تصور المسؤولين والجنود الرومان بأنهم «شبه قديسين»، وحقد الغوغاء اليهود الموصوف في الأناجيل، يجب فهم ذلك كله في ضوء حقيقة أن هذه الروايات

---

(1) جوزيفوس، **العصور القديمة**، الكتاب السابع عشر، الفصل 9، 10؛ **الحروب**، الكتاب الثاني، الفصل 1، 5.

(2) جوزيفوس، **العصور القديمة**، الكتاب السابع عشر، الفصل10، 10؛ **الحروب**، الكتاب الثاني، الفصل 2، 5.

مكتبة الفكر الجديد

التي يُزعم أنها «ملهمة إلهيًا» كُتبت خضوعًا للحقائق الدائمة والوحشية للسلطة الرومانية[1]. وفي هذا إنما يردد قول فلافيوس جوزيفوس فحسب الذي ذكر النقطة نفسها قبل 2000 سنة زاعمًا أن جميع الروايات التاريخية لذلك الزمن كانت تعاني من عيبين أساسيين: «تملق الرومان وتشويه سمعة اليهود وهما مداهنة وظلم استُبدلا بالسجل التاريخي الحقيقي»[2].

الطوائف اليهودية في عصر المسيح

تعطي قراءة الإنجيل انطباعًا متميزًا أنه كان ثمة فئتان دينيتان أساسيتان فقط ضمن اليهودية في عصر المسيح، وهما الصدّوقيون والفريسيون، مع ذكر مختصر وتنقصه المعلومات المفيدة نسبيًا للسامريين. وفي الحقيقة، يُشار ضمنًا على نحو مؤكد إلى أنه باستثناء الصّدوقيين والفريسيين، كانت اليهودية في ذلك الوقت دينًا موحدًا إلى حدٍّ ما. على أية حال، تروي الوثائق التاريخية المعاصرة قصة مختلفة جدًا. ويصف جوزيفوس أربع طوائف أساسية داخل اليهودية في ذلك الوقت، الإيسينيون، الصّدوقيين، الفريسيون وأتباع المجموعة المدعوة باسم «الفلسفة الرابعة»[3]. كان الإيسينيون الأحفاد الروحيين والمباشرين لعائلات المعمادوت الأربع والعشرين التي انسحبت إلى قُمران احتجاجًا على انتهاك أنطيوخس للهيكل وتعيينه لكهنة كبار غير صدوقيين من المَكابيين[4]. وكانوا هم وأتباعهم الكثيرون قد جعلوا سلعهم مشتركة، وعاشوا حياة متقشفة، وحافظوا على النقاء الطقسي وآمنوا أن الروح خالدة. وكان يتملكهم هاجس إصرار متشدد حول «العمل وفق التوراة»، أي أن يعيشوا حياة متفقة مع القانون الإلهي. وبالنسبة إليهم، كان الهيكل في القدس مدنسًا؛ وكان الهيكل الجديد ذو الطابع الروحي هو المجتمع الإيسيني المطهر[5]. وهو هيكل الله المشكل من رجال مكرسين ومؤمنين. وقد وصفهم جوزيفوس بالتعبيرات الآتية: «إنهم يتفوقون على جميع الرجال الآخرين الذي يكرسون أنفسهم للفضيلة، وذلك بالاستقامة»[6].

---

(1) أيزنمان، روبرت، **يعقوب أخو المسيح**، ص 21.

(2) جوزيفوس، **الحرب**، الكتاب الأول، الفصل 1.

(3) جوزيفوس، **العصور القديمة**، الكتاب الثامن عشر، الفصل 1، 2ـ6.

(4) أرمسترونغ كارين، **تاريخ القدس**، ص 121.

(5) جونسن، بول، **تاريخ المسيحية**، ص 17.

(6) جوزيفوس، **العصور القديمة**، الكتاب الثامن عشر، الفصل 1، 5.



لم يؤمن الصّدوقيون، خلاف ذلك، بخلود الروح، لكنهم مع ذلك ظلوا مُصرّين على أن قانون موسى تجب طاعته من دون أي تحريف[1]. وكانت هذه المجموعة المحافظة جدًّا، الآتية من طبقة أصحاب الملكية، قد تأثرت عميقًا بالثقافة اليونانية وأيدت التعاون مع السلطة الإمبراطورية في روما. كان المجلس اليهودي الأعلى، وهو المحكمة الدينية المكونة من كهنة كبار، تحت سيطرة الصّدوقيين ومارست هذه المجموعة سلطة قضائية في جميع القضايا، سواء الدينية أو المدنية، التي تضمنت خرقًا للقانون اليهودي. كذلك كان هناك المجلس اليهودي السياسي الأعلى الذي عمل وسيطًا بين الإدارة الرومانية والشعب. وكان مكلفًا بمراقبة حالات العصيان والتمرد تحت القانون الروماني وتسليم المتهمين إلى الحكام الرومان. على أية حال، كان جميع الحكام الذين حكموا يهودا يميلون إلى إساءة استخدام سلطتهم وجعلوا العديد من رعاياهم اليهود بائسين وساخطين[2]. وقد صوّر المؤرخ إيزادور إبشتاين الاختلافات الرئيسة بين الصّدوقيين والفريسيين هكذا:

> **أراد الفريسيون أن تكون جميع شؤون الدولة محكومة وفق توجيهات التوراة الصارمة، من دون اهتمام بأي اعتبار آخر. وأكد الصّدوقيون، من ناحية أخرى، أنه بينما يحسن النظر إلى التوراة بوصفها دستورًا أساسيًّا للدولة، كان من المستحيل استمرار حكومة تتطلب بالضرورة، تحت الشروط المتغيرة، علاقات وثيقة مع القوى الوثنية من دون جعل التلاؤم السياسي والمصلحة الاقتصادية الحكم النهائي للأمور[3].**

وفقًا لإبشتاين، كان الفريسيون الطرف الوحيد المناسب حقًّا للتعامل مع ضرورات العصر. وآمنوا بأن القانون الشفهي تجلى في تعليم روحي لموسى حين تلقى الوصايا العشر، وكانوا ـ خلافًا لسمعة انتقاد صغائر الأمور الموجهة إليهم في الأناجيل ـ متحررين في محاولتهم تفسير هذا. وقد حاولوا في الحقيقة تفسير معناه وتعديل طقسه لجعله وثيق الصلة بحياة الناس العاديين، وهو موقف أكسبهم دعمًا كبيرًا. في هذه المحاولة، قوبلوا

---

(1) جوزيفوس، **العصور القديمة**، الكتاب الثامن عشر، الفصل 1، 5.

(2) إبشتاين، ي.، **اليهودية**، ص 106.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 112.



بمعارضة عنيفة من الصّدوقيين. وهكذا، في بعض النواحي، كان موقف الفريسيين ردًّا ملهمًا وشعبيًّا على التشدد الكثير التطلب والمخطئ تاريخيًّا للصّدوقيين[1].

ضمن مخطوطات البحر الميت ثمة وصف آخر أكثر مرارة للفريسيين يصورهم بأنهم «باحثون عن الأمور السهلة»، ومستعدون تمامًا للتأقلم مع الأجانب، وجعلهم هذا، بالنسبة إلى معارضيهم الأكثر تطرفًا، أشبه بالمتعاونين[2]. ومنذ عصر المكابيين إلى سقوط القدس عام 70 الميلادي، كان الصّدوقيون والفريسيون متنافسين سياسيين ودينيين نشيطين يتنافسون للسيطرة على الدولة[3]. كما يذكر جوزيفوس طائفة رابعة بين اليهود يصفها بأن لديها «ارتباطًا منيعًا بالحرية يدفع الأمة إلى الشعور بالسخط من هذه الفوضى ويجعلها تتمرد ضد الرومان»[4]. وضمن التقليد الإيسيني ـ مع أنها لا تنتمي بالضرورة إلى تلك الطائفة ـ كان ثمة مجموعة أخرى من الخياليين الذين يحفظون أفكارهم بتقديس في المجموعة الأدبية المعروفة بالرؤيا[5]. كذلك، في مقارنة واضحة مع الإيسينيين وأتباع الرؤيا، كان يوجد المتطرفون الخارجون للقتال ضد الظالمين الرومان ووضع حد للاستبداد الأجنبي. فقد ربط هؤلاء الوطنيون المتحمسون ولاء للتوراة مع محبة متقدة لبلادهم وكانوا مستعدين للقتال والموت من أجلهما معًا[6]. ويجب أن نضيف إلى جميع هذه الطوائف النشيطة المجموعات الباطنية المختلفة المدرجة سابقًا.

لذلك، وعلى الرغم مما كُتب أو أشير إليه في الأناجيل وأعمال الرسل، ضمت اليهودية في ذلك الوقت 24 فئة أو طائفة على الأقل لم تكن متهمة بالهرطقة، بل كانت جزءًا مكملًا للدين اليهودي[7]. ولتعقيد الأمر أكثر، كان أي يهودي مؤمن يمكن أن يجلس عند قدمي معلم في أي واحدة أو العديد من هذه المجموعات، في أوقات مختلفة، ليكتسب معرفة روحية وينشد سبيل الحق ـ كل هذا من دون أي تناقض ظاهري.

(1) جونسن، بول، **تاريخ المسيحية**، ص 15ـ16.
(2) أيزنمان، روبرت، **مخطوطات البحر الميت والمسيحيون الأوائل**، ص 227.
(3) إبشتاين، ي.، **اليهودية**، ص 97.
(4) جوزيفوس، **العصور القديمة**، الكتاب الثامن عشر، الفصل 6.
(5) إبشتاين، ي.، **اليهودية**، ص 103.
(6) المصدر السابق نفسه، ص 105
(7) تلمود القدس، **المجلس اليهودي الأعلى**، 10، 5.



يدرج جوزيفوس حالات متكررة من التمرد ضد الاحتلال الروماني، ألهم الكثير منها زعماء أو أنبياء في تقليد الرؤيا اليهودي. تحدث هذا التقليد الخيالي عن تدخل الله في معركة الحق النهائية ضد قوى الشر. كان هذا مظهرًا مهمًّا لتعاليم المسيح المنتظر التي كانت مشتركة أيضًا ضمن سمات أخرى لليهودية السائدة. وداخل كل من التقاليد الصدّوقية / الإيسينية والفريسية، كان ثمة مسيحان منتظران، وليس واحدًا: مسيح منتظر كهنوتي ومسيح منتظر ملكي. واعتقد التقليدان كلاهما بأنه حتى تلتزم نخبة إسرائيل على نحو صارم بالعهد مع الله، لا يمكن أن يحدث التحرر النهائي للشعب المختار والنصر الأبدي للخير على الشر[1]. لذلك كان المسيح الكهنوتي المنتظر متوقعًا لتطهير النخبة وبعد ذلك كان على المسيح المنتظر الملكي أن يقودهم إلى النصر في الحرب النهائية ضد الشر. وقد تنبأت الكتب المقدسة بمجيء رسول العهد الذي سوف «يطهر أبناء ليفي»[2] وتحدثت عن عودة إيليّا بوصفه مصلحًا[3].

يوحنا المعمدان

حين نصل إلى دراسة شخصية يوحنا المعمدان الغامضة ، من الملائم ملاحظة أن الإنجيل يذكر أن أتباع يوحنا كانوا يؤمنون بأنه إيليّا الآتي ثانية[4]. ويصف المؤرخ الكاثوليكي المتدين، بول جونسن، كيف أدى نموذج الإيسينيين إلى قيام عدد من الحركات المعمدانية في وادي الأردن. ويصف، في الحقيقة، المنطقة الكاملة بين بحيرة طبرية والبحر الميت بأنها «ممتلئة بالمقدسين ذوي الأطوار الغريبة»، والعديد منهم مشبع بالتعاليم الإيسينية[5]. إن أكثر العلماء مقتنعون الآن أن يوحنا المعمدان كان ذات مرة إيسينيًّا يرى أن مهمته هي إيجاد «نخبة داخل نخبة» مطهرة ـ وهي المقدمة اللازمة للرؤيا الآتية[6]. ويحدد جوزيفوس كلًّا من مهمته وإنجازه اللاحق كما يلي:

لقد أعدمه [أي يوحنا الملقب بالمعمدان] هيرودوس، مع أنه كان رجلًا صالحًا

---

(1) شونفيلد، هيو، رحلة الإيسيني الطويلة، ص 39.
(2) سفر ملاخي، الفصل 3، الآيات 1ـ4.
(3) المصدر السابق نفسه، الفصل 4، الآيتان 5ـ6.
(4) إنجيل يوحنا، الفصل 1، الآية 21.
(5) جونسن، بول، تاريخ المسيحية، ص 19.
(6) المصدر السابق نفسه، ص 19ـ20.



> وحثّ اليهود على العيش حياة مستقيمة وممارسة العدل مع إخوانهم وعلى تقوى الله، والمشاركة بالمعمودية للقيام بذلك. وكان هذا في رأيه تمهيدًا ضروريًا إذا كان الله سيتقبل المعمودية. ويجب ألا يستخدموها لكسب العفو عن أي ذنوب ارتكبوها، بل تكريسًا للجسد مما يشير ضمنًا إلى أن الروح كانت مطهرة مسبقًا بالسلوك الصالح. وبينما انضم آخرون أيضًا إلى الحشود حوله، لأنهم أثيروا إلى أعلى درجة بخطبه، شعر هيرودوس بالقلق. فالفصاحة التي كان لها تأثير كبير جدًّا في البشرية قد تؤدي إلى نوع من العصيان... وكان يوحنا، بسبب شكوك هيرودوس، قد أُحضر بالسلاسل إلى مكاريوس... وجرى إعدامه هناك[1].

ويمكن تصديق السبب الذي يعطيه جوزيفوس لإعدام يوحنا تمامًا. وعلى أيّة حال، إن الرواية التي قدمها الإنجيل معقولة جدًّا أيضًا على ضوء اتصال يوحنا مع الإيسينيين، الذين أدانوا «الزنا» بصورة دائمة. إن رأي جوزيفوس حول مسألة اعتقادات يوحنا ورأيه في المعمودية قد يكون أكثر أهمية. ووفقًا للعالم التوراتي، جون دومينيك كروسان، يُظهر رأي جوزيفوس أن معمودية يوحنا لم تكن عملًا طقسيًّا يمحو الذنب، بل كان، على العكس، تطهيرًا جسديًّا وخارجيًّا، ورمز إلى أن التطهير الروحي والداخلي قد حدث قبل معمودية الحواري أو التلميذ[2]. ووضحت المؤرخة جوان تايلور هذا الإجراء الأولي:

> وضع الناس أنفسهم في موقع حواريي يوحنا [المعمدان] ليتعلموا كيف يتطهرون بشكل فعّال داخليًّا وخارجيًّا معًا. وحالما يشعرون بأنهم واثقون تمامًا من صلاحهم، بحسب تعريف يوحنا، كانوا يأتون عندئذ للتعميد... ولم يصبح جميع الناس حواريين له. على أية حال، حالما يجري تعميد الناس، سيكونون قد تقبلوا تعاليم يوحنا وأصبحوا بذلك حواريين له قبل هذا[3].

كانت الكنيسة المسيحية تنكر دائمًا بشكل عنيف أي دور تعليمي ليوحنا المعمدان في علاقته مع المسيح. مع ذلك، وعلى الرغم من هذا، تدعم غالبية البحث العلمي الحديث الرأي القائل إن المسيح كان تلميذ يوحنا المعمدان، مؤكدة بذلك تقليدًا ظل

---

(1) جوزيفوس، **العصور القديمة**، الكتاب الثامن عشر، الفصل 5، 2.

(2) كروسان، جون دومينيك، **المسيح سيرة ذاتية ثورية**، ص 34.

(3) تايلور، جوان إ.، المعمدان، **يوحنا المعمدان في يهودية الهيكل الثاني**، ص 278.



حيًّا طوال 2000 سنة بوساطة أحفاد المعمادوت، أي عائلات الملك الإله وورثتهم الروحيين، فرسان الهيكل والماسونيين.

يسوع النازوري

تبيّن علاقة المعلم - التلميذ بين يوحنا والمسيح أن الكنيسة، لسبب ما، كانت «مقتّرة في ذكر الحقيقة» قليلًا بطريقة تؤثر على نحو مباشر في الاعتقاد بقدسية المسيح. لأن المسيح إذا كان فعلًا حواريًّا ليوحنا المعمدان، فإنه لا بدّ عندئذ أن يكون خاطئًا أعيد إلى الصلاح كي يتأهل للمعمودية؛ وهذا مفهوم مشوش بالنسبة إلى الذين تعلموا أن المسيح قدسي. لقد كان المسيح يهوديًّا مؤمنًا أصبح تلميذًا ليوحنا المعمدان وخضع للتطهير من الخطيئة وللمعمودية، لذلك من المستحيل تقبّل أنه حَسِب نفسه قدسيًّا في أي وقت. وبالنسبة إليه وإلى جميع اليهود الآخرين، كان يمكن عَدُّ ذلك أقصى درجات الكفر. وقد توصل المؤلف أ. ن. ولسون إلى نتيجة مماثلة وذكر أن المسيح كان يهوديًّا حسيديًّا جليليًّا، أو رجلًا مقدسًا، ومعالجًا وفق التقليد النبوي. ويكتب ولسون:

> **كان علي الاعتراف بأنني وجدت من المستحيل الاعتقاد بأن رجلًا جليليًّا مقدسًا من القرن الأول ظن نفسه في أي وقت من حياته أنه الشخص الثاني من الثالوث المقدس. لقد كان أمرًا غير محتمل بالشكل الطبيعي أن يؤمن به يهودي توحيدي[1].**

إن محاولة التوصل إلى أي فهم واقعي لتعاليم المسيح صعبة جدًّا، لأنه أحدث تأثيرًا ضئيلًا خارج العهد الجديد. وتخبرنا قصص الإنجيل، مع استثناء بارز أو اثنين، عن وجهة نظر المؤلفين أكثر مما تفعل عن المسيح نفسه، ومع أنها وثائق ذات أهمية روحية كبيرة، من المحزن أنها تحمل مصداقية تاريخية ضئيلة. لذلك علينا محاولة إعادة صياغة تعاليم المسيح، ليس في الكتب المقدسة المعترف بها فحسب ولكن في الكتب المقدسة غير المعترف بها أيضًا والتوثيق ذي الصلة الموجود بين الاكتشافات في قمران ونجع حمادي.

كذلك يجب تقويم جميع هذه المصادر بعناية إزاء إطار العادة والممارسة اليهوديتين خلال أواخر عصر الهيكل الثاني. وعلينا ألا ننسى أبدًا أن المسيح كان

(1) ولسون، أ. ن.، المسيح، ص 16.



يهوديًا مؤمنًا يُعلّمُ اليهود الآخرين. وفي الحقيقة، تروي كارين أرمسترونغ حادثة تبرز هذا المنظور المنسي غالبًا عندما تعلق: «لم يفكر حواريو المسيح بالتأكيد أنهم أسسوا دينًا جديدًا: فقد واصلوا العيش بصفة يهود ملتزمين كليًا وكانوا يترددون يوميًا على نحو جماعي للعبادة في الهيكل»(1) وهذا تعليق استند إلى مقطع من أعمال الرسل(2). علاوة على ذلك، ووفقًا لفيلسوف القرن الثاني أريستيدس، أحد أقدم المدافعين عن المسيحية، كانت عبادة «مسيحيي» القدس الأوائل بشكل أساسي أكثر توحيدًا من عبادة اليهود. وهكذا فإن تعاليم المسيح لم تكن تُعدُّ بالتأكيد سواء من تلاميذه أو حوارييه أنها إما تأسيس لشكل ديني جديد أو اتهام لليهودية. وكان الاختلاف المهم بينهم وبين رفاقهم اليهود هو تمسكهم المتشدد بتفسير المسيح للتوراة، الذي عززه إيمانهم بطبيعة المسيح المنتظر في دوره.

إن استخدام الكنيسة للقب «المسيح الناصري» مضلل بشكل فادح، لأن الناصرة لم تكن موجودة في ذلك الوقت. ولقبه الحقيقي هو المسيح النازوري، ويدل على انتمائه إلى طائفة أولية من الإيسينيين. ويتضح احترامه للتقليد الباطني والأولي القديم في مقطع من إنجيل توما اكتُشِفَ بين مخطوطات نجع حمادي في مصر عام 1945، الذي يسجل قول المسيح: «من سيشرب من فمي سيصبح مثلي. وأنا نفسي سأصبح هو، والأمور الخفية ستوحى إليه»(3). وهكذا أدخل المسيح نخبة أتباعه ضمن النازوريين بشكل من أشكال المعمودية. وقد جرى اكتشاف حقيقة هذا على يد البروفسور مورتن سميث حين وجد أجزاء من إنجيل مرقس السري في دير مار سابا في إسرائيل(4)، وهو وثيقة ربما كانت معروفة أصلًا بإنجيل العبرانيين.

يمكننا بثقة أن نتقبل الأقوال المنقولة عن المسيح عندما تكون غير متأثرة بالتحيز المؤيد للرومان أو متفقة مع الإيمان اليهودي السائد. فمثلًا، يُقتبس عن المسيح قوله، «إلى طريق أمم وثنية لا تمضوا وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا. بل اذهبوا بالحري إلى

(1) أرمسترونغ، كارين، **تاريخ القدس**، ص 145.
(2) **أعمال الرسل**، الإصحاح 2، الآية 46.
(3) **إنجيل توما**، 108.
(4) مورتن سميث، **الإنجيل السري**.



خراف بيت إسرائيل الضالة»[1] وبما أن هذا متفق كليًّا مع التعليم الإيسيني، يمكن عَدُّه حقيقيًّا. وثمة قول آخر منسوب إليه، «فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس»[2]، يجب رفضه لأنه لا أحد من التقليد الإيسيني يأمر حوارييه بوعظ غير اليهود. والأهم من ذلك، أن استخدام عبارة، «باسم الآب والابن والروح القدس» سيكون لعنة على أي يهودي ولم يوضع في الاستعمال العام بالتأكيد إلا بعدما أنجز المذهب المسيحي درجة كبيرة من التطوير.

المرحلة الحاسمة الواجب فهمها هي المرحلة الموسومة بدخول المسيح إلى القدس وصلبه بعد أقل من أسبوع. وتقديم عملية دخوله المنتصر إلى المدينة المقدسة قبل عيد الفصح بأسبوع، كما تكررت روايته في الأناجيل[3]، شكل إنذارًا مبكرًا للرومان وحلفائهم الصدّوقيين بأن ثمة تمردًا محتملًا يجري إعداده. ويسجل أحد الأناجيل أنهم استقبلوه بعبارة «مبارك الملك»[4]، التي قد تبدو في المسامع الرومانية مثل دعوة واضحة إلى التمرد. وهذا تحذير لا بدّ أنه تضخم حين قلب موائد الصيارفة في الهيكل، بعد مدة قليلة من دخوله المدينة[5]. حدث هذا كله حين كانت المدينة تزدحم بمجموعة كاملة من الصدّوقيين والفريسيين والمتشددين والحاسيديين ومتعصبين وأصوليين نبوئيين متنوعين مشبعين بتأجج قومي وديني.

ونادرًا ما كان الحاكم الإقليمي الروماني في ذلك الحين خيارًا مثاليًّا للتعامل مع هذه الظروف المتفجرة فعلًا. وكان بيلاطس البنطي ذا سمعة فعلية في الفساد والعنف وأحكام الإعدام العديدة من دون الالتزام بشكلية المحاكمة[6]. وقام حارس الهيكل، بناء على أوامر صادرة من المجلس السياسي اليهودي الأعلى، باعتقال المسيح وتسليمه

(1) **إنجيل متّى**، الإصحاح 10، الآيتان 5ـ6.
(2) المصدر السابق نفسه، الإصحاح 28، الآية 19.
(3) المصدر السابق نفسه، الإصحاح 21، الآيات 1ـ11؛ **إنجيل مرقس**، الإصحاح 11، الآيات 1ـ11؛ **إنجيل لوقا**، الإصحاح 19، الآيات 28ـ44؛ **إنجيل يوحنا**، الإصحاح 12، الآيات 12ـ19.
(4) **إنجيل لوقا**، الإصحاح 19، الآية 38.
(5) **إنجيل متّى**، الإصحاح 21، الآية 12؛ **إنجيل مرقس**، الإصحاح 11، الآية 15؛ **إنجيل لوقا**، الإصحاح 19، الآية 45.
(6) فيلو الإسكندري، **مهمة القاضي الروماني**، ص 301؛ إبشتاين، ي.، **اليهودية**، ص 106؛ ولسون، أ. ن.، بول، **ذهن الحواري**، ص 56.

مكتبة الفكر الجديد

إلى بيلاطس الذي لا يعرف الرحمة[1]. وعلى الرغم مما هو مكتوب في الإنجيل، لم يُجر المجلس اليهودي الأعلى محاكمة ليلية للمسيح بتهمة الكفر، لأن ذلك كان يمكن أن يبدو غير قانوني في ذلك الوقت. كذلك لم تجر مواجهة أمام هيرودوس. ومن المستحيل تصور وجود أي مراوغة من جانب بيلاطس. فلماذا في الحقيقة عليه أن يقلق نفسه بحياة رجل واحد بينما كانت لديه سابقة سلفه فاروس الذي صلب 2000 يهودي بتهمة العصيان؟ ولم يكن واردًا أن اليهود استدعوا المسيح إلى المحاكمة بتهمة الكفر، لأن تعاليمه كانت متفقة مع التقليد اليهودي. لقد حاكمه بيلاطس البنطي وأعدمه[2] ليوقف أي تمرد محتمل منذ بدايته. وكان الصلب عقابًا رومانيًّا على العصيان والتمرد والتحريض عليهما، كما كانت العقوبة اليهودية على الكفر هي الموت بالرجم، كما سنرى لاحقًا.

(1) إبشتاين، ي.، **اليهودية**، ص 107.

(2) تاسيتوس، **التأريخ السنوي**، الكتاب الخامس عشر، الفصل 44.



الجزء الثاني




مكتبة
الفكر الجديد

تأسيس المسيحية

قد يكون مفاجئًا للعديد من المسيحيين المؤمنين اكتشاف أن دينهم يستند إلى تعاليم المسيح أقل مما يستند إلى آراء الرجل المعروف باسم القديس بولس، الذي يصفه بعض المؤرخين أنه «أبو المسيحية». بدأت تعاليم بولس بعملية شرعت بإبعاد المسيحية عن التوحيد الصارم لليهود وكذلك للإسلام الذي أتى لاحقًا، مسببة بذلك توترات بين الأديان التوحيدية تشوه نتائجها المتزمتة العالم الذي نعيش فيه اليوم.

أدّت الكنيسة المسيحية بلا شك دور المنقذة لأوروبا من الغزوات الهمجية التي تلت سقوط الإمبراطورية الرومانية، لكنها تطلبت ثمنًا باهظًا لهذا، بفرض نظام صارم على تجمعاتها وسيطرتها المطلقة ورقابتها على التعليم وتحكمها المتشدد بجميع أشكال العبادة، وإنكار شرعية جميع الأديان الأخرى وقمعها من دون رحمة.




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الرابع

التعاليم الحقيقية للمسيح

توصَف أناجيل متّى ومرقس ولوقا بأنها متشابهة لأنها تشترك كثيرًا في المحتوى واللغة والترتيب. وثمة اتفاق تام الآن بين علماء الكتاب المقدس أن هذه الأناجيل المتشابهة كلها مؤسسة بشكل أولي على مصدر مشترك سابق واحد مفقود، يُشار إليه بشكل عام بالحرف «Q»، الذي استند ربما، بكامله أو جزئيًا، على شهادة شهود عيان. كذلك، تمّ التوصل إلى إجماع حول محتوى Q وأسلوبه مما أدى إلى إعادة خلق مضبوط لهذه الوثيقة الحيوية. ويصرح البروفسور بيرتن ل. ماك، مدير دراسات العهد الجديد في مدرسة كليرمونت لعلم اللاهوت في كاليفورنيا بأن:

> الشيء اللافت للنظر هو أن مؤلفي Q لم يفكروا في المسيح على أنه المسيح المنتظر أو المسيح، ولم يفهموا تعاليمه على أنها اتهام لليهودية. ولم يحسبوا بالتأكيد أن صلبه ملهم إلهيًا، أو حدث خلاصي. ولم يعتقدوا أنه رُفع من بين الموتى ليحكم العالم. لقد رأوا أنه نبي يهودي مكّنت تعاليمه من العيش حياة سهلة وقويمة في أوقات مضطربة جدًا. وهم بالنتيجة لا يجتمعون للعبادة باسمه، أو يكرمونه على أنه إله ـ وهذا بالنسبة إليهم، بوصفهم يهودًا مؤمنين كان يمكن أن يُعدّ أقصى درجات الكفر ـ ولا يحتفلون بذكراه عبر التراتيل أو الصلوات أو الطقوس[1].

لكن الأناجيل المسيحية، المستندة أساسًا إلى معلومات من Q، تذكر المسيح مع ذلك على أنه شخصية قدسية. على أية حال، إن أي تفحص علمي لمكانة المسيح «القدسية» المزعومة، ليس محددًا بالدين لكنه، على العكس من ذلك، مستقى من

(1) بيرتن، ماك، من كَتَب العهد الجديد؟، ص 4.



معرفة معقولة بالممارسة والدين اليهوديين في عصر الهيكل الثاني، يكشف الاستحالة المستنتجة لقدسية المسيح المزعومة. إن عقيدة الإنسان القدسي تتعارض تمامًا مع المفهوم اليهودي لله. ويجب التأكيد بأن المسيح قد وُلد ونشأ وتعلم وهو يهودي، وكما رأينا، كان أتباعه يعدّون أنفسهم حركة يهودية. وأي يهودي، خصوصًا من سعى إلى تقبل اليهود الآخرين له، وقدم نفسه بهذه الطريقة سيُرجم حتى الموت بوصفه كافرًا.

على أية حال، إن تقديس البشر كان تقليدًا شائعًا في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية، مما أدى إلى النتيجة الحتمية أن تقديس المسيح كان تدخلًا من مصادر رومانية أو وثنية أو كافرة. وهذا لم يكن ضروريًّا بكل تأكيد لأمانة رسالة المسيح. إذ كانت فكرة تقديس المسيح بحد ذاتها قد تعرضت لمقاومة مستمرة من الحواريين واليهود الأصليين الذين اعتقدوا أنه المسيح المنتظر(1). لا شك أن العهد الجديد، بوصفه مصدرًا، يحمل أهمية روحية هائلة، لكنه ذو موثوقية حقيقية ضئيلة، بالإضافة إلى أنه جرى تحريره وتنقيحه مرات عديدة لأسباب مذهبية عادةً بحيث أتت النتيجة النهائية ممتلئة بالأخطاء إلى حد كبير. يصبح هذا واضحًا بشكل كبير عندما ندرس ما هو معروف عن العائلة المباشرة للمسيح في الكتب المقدسة ونقارن ذلك بالتصريحات اللاحقة للكنيسة.

عائلة المسيح وزواجه

عندما قررت الكنيسة، في القرن الثاني، بحكمتها الموجهة إلهيًّا، أن مريم أم المسيح كانت عذراء، وأن المسيح كان ابنها الوحيد، بالإضافة إلى أنه كان أعزب، فتحت بابًا من التشويش الديني المعقد لم يكن ممكنًا إغلاقه بنجاح أبدًا. وكما توضح الأناجيل بشكل مسهب، كان المسيح فردًا من عائلة كبيرة إلى حدّ ما اشتملت على يعقوب ويوسي وسمعان ويهوذا وأخوات عدة لم تُذكر أسماؤهن(2). لم تكن هذه المشكلة الصعبة الوحيدة التي توجب على علماء الدين في الكنيسة أن يتغلبوا عليها، بل كان هناك أخرى: مسألة حالة المسيح الزوجية. في ذلك الزمن تطلب العرف اليهودي أن يتزوج جميع الذكور، ولا سيّما الحاخامات، ويكوّنوا عائلة وبناءً عليه، لأنه حاخام، كان المسيح ملزمًا بالزواج. كذلك، بما أنه كان من النسل المباشر لداود ووريث العرش، كان عليه أن ينجب وريثًا. إن الاستثناءات القليلة نفسها لهذا الالتزام بالزواج محددة بوضوح

(1) شونفيلد، هيو، أولئك المسيحيون المدهشون، ص 48.

(2) إنجيل متّى، الإصحاح 13، الآية 55.



في العهد الجديد والتفسيرات المقدسة الأخرى. والمثال الأساس لهذا هو أن يعقوب أخا المسيح، الذي وصفه الآباء وعلماء الدين الكنسيون الأوائل أنه ناصري كان «مكرسًا للقداسة من رحم أمه»[1] وأنه، نتيجة ذلك، كان أعزب. وقد ذكر بروفسور علم لاهوت العهد الجديد في المدرسة الكتابية في القدس، الأب جيروم ميرفي أوكونور، في برنامج لهيئة الإذاعة البريطانية، أن:

بولس قد تزوج بالتأكيد... ولم يكن الزواج مسألة اختيار لليهود، ولهذا لديك القليلون جدًّا في القرون الأولى ممن لم يتزوجوا ولهذا... لا بد أن بولس... قد تزوج لأن هذا كان التزامًا اجتماعيًّا وإنجازه الاجتماعي كان واضحًا[2].

لم تطبق الكنيسة ولا الأب ميرفي أوكونور هذه الحجة المقنعة على حالة المسيح، على الرغم من حقيقة عدم وجود إشارة في العهد الجديد إلى أن المسيح كان أعزب، وهي حالة كانت بلا شك ستثير تعليقًا كبيرًا في ذلك الوقت. على أية حال، لا يزال هناك آثار لوضع المسيح الزوجي ودلالات على هوية زوجته التي يمكن تتبعها في الأناجيل. ويقترح أ. ن. ولسون أن، «قصة مأدبة الزفاف في قانا تحتوي على ذكر غامض لزفاف المسيح[3]، ويقدم العالم المسلم، البروفسور فداء حسنين التعليق الآتي حول تلك المأدبة:

يبرز السؤال مَن الضيف ومَن العروس؟ وأقترح أن مريم هي المضيفة لأنها تأمر بإحضار النبيذ للضيوف، الذي يتعاطاه المسيح. ويتساءل المرء إن كان ذلك يشير إلى زواجه من مريم المجدلية، أو إن كان الحدث كله أبقي مموهًا... أعتقد أن مريم المجدلية تصرفت على أنها الرفيقة الأساسية للمسيح، كما عدّها هو أيضًا زوجة له[4].

إن قصة ذلك الزفاف و«معجزة» تحويل الماء إلى نبيذ يمكن إيجادها في إنجيل يوحنا[5]. بعد المعجزة، يأمر المسيح الخدم بتوزيع النبيذ وتذكر العادة اليهودية أن العريس

---

(1) يوسابيوس، **التاريخ الكهنوتي**، الكتاب الثاني، 234ـ235؛ إبيفانيوس، **ضد الهرطقات**، القسم 78، الفصل 14، ص 1.

(2) ضمن سلسلة حول القديس بولس في هيئة الإذاعة البريطانية البرنامج الرابع.

(3) ولسون، أ. ن.، **المسيح**، ص 101.

(4) حسنين، فداء، **بحث عن المسيح التاريخي**، ص 84.

(5) **إنجيل يوحنا**، الإصحاح 2، الآية 1ـ5.



أو أم العريس وحدهما لديهما السلطة لإعطاء الأوامر إلى الخدم في مأدبة الزفاف[1]، مما يدل، في هذه الحالة، على أن هذا كان زفاف المسيح. وقد حددت بالتفصيل الدليل على زواج المسيح في عدة أعمال سابقة[2]. وكانت العالمة الدينية الكاثوليكية مرغريت ستاربيرد، التي تولت دحض بدعة زواج المسيح كما أتى وصفها في الدم المقدس والكأس المقدسة، قد نشرت بدلًا من ذلك عرضًا مفصلًا لدليل قاطع يثبت زواج المسيح من مريم المجدلية وتأسيسهما سلالة في «المرأة صاحبة جرة المرمر»[3].

بعد الصلب

إن مسألة من كان سيخلف المسيح بصفة قائد ومعلم للحواريين الأصليين هو مجال آخر حيث عكرت الكنيسة الأم المقدسة إلى حدٍّ ما صفو مياه الحقيقة. فقد اختفت إحدى الوثائق المبكرة التي قمعتها الكنيسة، وهي إنجيل توما، عن الأنظار طوال أكثر من 1500 سنة حتى أعيد اكتشاف نسخة في نجع حمادي عام 1945. ونجد فيها:

قال الحواريون للمسيح:

نعرف أنك ستغادرنا.

من سيكون قائدنا؟

قال المسيح لهم:

حيثما تكونوا تذهبوا إلى يعقوب الصالح،

الذي من أجله خُلقت السماء والأرض[4].

إن عبارة «الذي من أجله خُلقت السماء والأرض» لها أصداء متميزة في وصف نوح للكابالا التي كُتبت عنه، «الرجل الصالح هو أساس العالم». ثمة إشارة أخرى أيضًا إلى تعيين المسيح يعقوب بصفة قائد الحواريين الجديد في«التقديرات» المنسوب إلى كليمنتين[5]،

(1) حسنين، فداء، بحث عن المسيح التاريخي، ص 84.

(2) الملك الإله، اللغز الحقيقي لرين القلعة وسلالة المسيح، الفصل 7، حراس الحقيقة، الفصل 6، وتصدع شيفرة الرمز، الفصل 4.

(3) منشورات بير وشركاه..

(4) من إنجيل توما الآية 12، كما تُرجم في مكتبة نجع حمادي، إعداد جيمز روبنسن.

(5) التقديرات، المنسوب إلى كليمنتين، الكتاب 1، ص 43.



ويذكر كاهن كنسي آخر ومؤرخ للمسيحية، هو إبيفانيوس، وصفًا ليعقوب بوصفه «أول من ائتمنه الرب على عرشه فوق الأرض»(1). كما يعترف العهد الجديد بهذا عندما يقدم يعقوب بوصفه «أول أسقف للقدس»(2). وقد لخص روبرت أيزنمان هذه الحالة:

كان يعقوب الوريث الحقيقي والخليفة لأخيه المسيح الأكثر شهرة والقائد آنذاك للحركة التي أيًا كانت وندعوها الآن «المسيحية»، وليس أكثر شخص اتخذ الطابع اليوناني ونعرفه من خلال لقبه اليوناني بطرس، «صخرة» الكنيسة الرومانية، في أية حال(3).

إننا مجبرون منطقيًا على طرح السؤال: «من كان سيعرف تعاليم المسيح بشكل أفضل ويُعدّ جديرًا بالثقة بما يكفي لنقلها من دون تعديل؟» الجواب بالتأكيد يجب أن يكون أخاه، يعقوب العادل، الذي تمتع بسمعة الصلاح التي يستحقها حقًا.

كان التقليد الطويل المدى أن المسيح قد عيّن بطرس لقيادة الحواريين بعد الصلب تلفيقًا صنعه زعماء الكنيسة، بعد أكثر من نصف قرن، لتبرير السيادة المزعومة لروما وتعزيز سلطتها على جميع المراكز المسيحية الأخرى. وهذا التلفيق المدروس لأسطورة مؤسسة بطرس أجبر الكنيسة على تهميش دور يعقوب لتقليل قدره في نظر رعيتهم وهكذا أصبح معروفًا، في أدب الكنيسة، باسم «يعقوب الأقل شأنًا».

«الكنيسة» الأولى في القدس؟

لن يكون مفاجئًا معرفة أنه رغم الانحراف اللاحق الواضح للكنيسة المبكرة عن التعاليم الأولية للمسيح، كان يشكل تركيبها إلى حد كبير التعليم والتقليد والممارسة الإيسينية(4). يُعرف المسيحيون الأوائل بأنهم استخدموا كتابًا معروفًا باسم «ديتاتش»، أو «تعاليم الرب»، والتشابهات بين «ديتاتش» و«حكم المجتمع» الذي وُجد بين مخطوطات البحر الميت مدهشة تمامًا. ومع ذلك قامت الكنيسة بمحاولة واضحة لتأريخ «حكم المجتمع» في عصر سابق. وكلاهما يصف «الطريقين»، طريق الضوء وطريق الظلام، وأي دراسة مقارنة لا تدع أي مجال للشك حول أي منهما هي الوثيقة

---

(1) إبيفانيوس، **ضد الهرطقات**، القسم 78، الفصل 7، ج 7.
(2) **أعمال الرسل**، الإصحاح 12، الآية 17.
(3) أيزنمان، روبرت، **يعقوب، أخو المسيح**، ص 20.
(4) ولبورن، أندرو، **بدايات المسيحية**، ص 55.



الأصلية. كانت الكنيسة المسيحية الأولى في القدس التي وصفها سفر أعمال الرسل تقودها حكومة ثلاثية من شيوخ معروفين باسم «الأعمدة»، وهم يعقوب، أخو المسيح، وسمعان - بطرس ويوحنا[1]. وكانت هذه القيادة الثلاثية تستند بشكل واضح إلى الممارسة الإيسينية. ولتعزيز هذا الارتباط الإيسيني، يساوي الباحث في مخطوطات البحر الميت، روبرت أيزنمان، بين يعقوب العادل و«معلم الحق» لدى الإيسينيين[2].

يعقوب الصالح

لم يكن يعقوب عضوًا في المعمادوت فحسب بل كان كذلك كاهنًا وراثيًا كبيرًا؛ وقد وصف المؤرخ المسيحي إبيفانيوس دوره كما يأتي:

> **أجد أنه مارس الكهانة أيضًا وفقًا للكهانة القديمة، [الركابية أو الناصرية - وربما حتى التي يدعوها العبرانيون باسم «الكهانة وفق نظام ملكي صادق»]. ولهذا السبب سُمح له بدخول قدس الأقداس مرة كل سنة، كما حدد الكتاب المقدس في القانون الذي يقود الكهنة الكبار. كذلك سُمح له بوضع الإكليل الكهنوتي العالي على رأسه كما ذكر الرجال المؤتمنون المذكورون سابقًا - يوسيبيوس وكليمنت وآخرون في رواياتهم[3].**

يصف هيغيسيبوس، وهو أب مبكر آخر في الكنيسة، كيف جرى إحضار يعقوب إلى الهيكل عن طريق الكتبة والفريسيين لتهدئة حشد عيد الفصح اليهودي التواق إلى المسيح المنتظر. لكن يعقوب، الذي كان داخل مركز الهياج في الهيكل خلال السنوات السابقة للحرب ضد روما[4]، كانت لديه نية مختلفة، بعيدًا عن تهدئة الحشد، فقد أشعل نيران الثورة[5]. ويحدد جوزيفوس في كتاب «العصور القديمة لليهود» اعتقادات «الفلسفة الرابعة» وأفعالها، وأولئك المتحمسين للحرية والاستقلال، ويدمج أوصافه السابقة للإيسينيين في كتاب «حرب اليهود» مع أوصافه لهذه المجموعة الفائقة القومية، مؤكدًا بذلك أن تمييز الإيسينيين والمتشددين أحدهم عن الآخر أصبح متعذرًا تقريبًا.

---

(1) **رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية**، الإصحاح 2، الآية 9.
(2) أيزنمان، روبرت، **يعقوب أخو المسيح**، ص 19.
(3) إيبفانيوس، **ضد الهرطقات**، القسم 29 A، الفصل 4، ج 1.
(4) أيزنمان، روبرت، **يعقوب أخو المسيح**، ص 79.
(5) أيزنمان، روبرت، **مخطوطات البحر الميت والمسيحيون الأوائل**، ص 340.



وثمة دلالة أيضًا على هذا الاتجاه هي أن جوزيفوس استخدم تعبير «المتشددين» فقط عند الإشارة إلى أولئك الناس الذين يعارضون الكاهن الأكبر أنانوس المُعيّن بشكل غير قانوني والذي قتل يعقوب في النهاية.

لذلك فقد أوكل المسيح قيادة حوارييه إلى أخيه يعقوب، قائد مجموعة من اليهود القوميين والمتدينين جدًّا. هل كان من الممكن وجود أي اختلاف جوهري أو مهم بين تعاليم المسيح وتعاليم يعقوب؟ كلا! إن الانحرافات الأساسية أو المهمة لا يمكن تصديقها. إذًا كيف ولماذا كانت صيغة تعاليم المسيح المذكورة في الأناجيل المعترف بها مختلفة جدًّا عن الممارسات الأرثوذكسية المتشددة المستندة إلى التوراة التي يوقرها يعقوب الصالح والإيسينيون؟ لفهم السبيل الذي جرى فيه تشويه تعاليم المسيح على نحو كبير، علينا تفحص شخصية رجل بدأ باضطهاد أتباع المسيح، ثم تحول عن معتقده «بشكل خارق»، وانضم إلى يعقوب والآخرين ليقوم بخيانتهم فحسب.

ساولوس أو القديس بولس

أطلق بول جونسن، المؤرخ الكاثوليكي المنافح عن المسيحية، على شاؤول الطرسوسي، أو القديس بولس كما هو معروف أكثر، لقب «الشخصية المسيحية الأولى والأعظم... الذي يتهمه بعضهم باختراع المسيحية»[1]. وبالنسبة إلى الآخرين من أتباع يعقوب، المعروفين الآن باسم المتعصبين، كان يُعدّ «مرتدًا عن القانون»، و«مطلقًا للشر والأكاذيب» و«مشوهًا لتعاليم المسيح الحقيقية»[2]. كانت شخصية القديس بولس المثيرة للجدل في الحقيقة تنم على رجل غريب ومعقد جدًّا. ومن كتاباته الخاصة، المقبولة على أنها المصادر المسيحية الأساسية المبكرة التي نمتلكها، ندرك أنه كان مواطنًا رومانيًّا وفريسيًّا في الوقت نفسه وأمضى بعض الوقت وهو يضطهد أتباع المسيح بعد الصلب[3].

ثمة أمور عدة أخرى أيضًا تمر من دون أن يلاحظها المسيحيون المؤمنون الذين يقدمون لنا فكرة ثاقبة عن خلفية بولس التي تكشف دافعه وهي ذات صلة وثيقة

(1) جونسن، بولس، تاريخ المسيحية، ص 35.
(2) وثائق طائفيي القرن الثاني المعروفة باسم **Kerygmata Petrou**.
(3) أعمال الرسل، الإصحاح 7، الآية 59.



بذلك الدافع. كان بولس فردًا من عائلة هيروديون المالكة وكشف هذا عندما كتب: «سلموا على الذين هم من أهل أرستوبولوس. سلموا على هيروديون نسيبي»[1]. كان أرستوبولوس ابن أخي أغريبا الأول، هيرودوس الكالسيسي، الذي عُرف ابنه باسم هيروديون أو «هيرودوس الأصغر». توضح هذه الروابط مع العائلة المالكة كيف استخدم بولس السلطة في القدس بوصفه عضوًا في حرس الهيكل المخول من الكاهن الأكبر لاضطهاد أتباع المسيح. كانت أية مجموعة من اليهود القوميين المتحمسين، مثل أتباع المسيح، هدفًا أساسيًا لسلطات الهيكل المصممة على قمع أي تمرد ضد سادتها الرومان. ويقترح المؤلف الإنكليزي أ. ن. ولسون: «لا يبدو من غير المعقول افتراض أنه [بولس] كان في الموقع نفسه من حرس الهيكل عند اعتقال المسيح»[2]. ويسجل جوزيفوس أن أنتيباتر، أبا هيرودوس الكبير، مُنح مواطنة رومانية وراثية مقابل خدمات للقيصر[3]، لذلك كان بولس بوصفه فردًا من عائلة هيروديون[4] قد وُلد في هذه المكانة المتميزة جدًّا والتي استغلها بالكامل. على أية حال، إن مواطنة بولس الرومانية، مذكورة في العهد الجديد فحسب ولم يتمّ تفسيرها أبدًا. والآن نعرف لماذا.

وفي رسالة بولس إلى أهل فيلبّي، يذكر أبفرودتس، وهو مستشار كبير للإمبراطور الروماني نيرون[5]، اتصالًا مؤكدًا بالكلمات: «يسلم عليكم، ولا سيما الذين من بيت القيصر»[6]. كان لبولس، أو ساولوس، كما دعاه الرومان والعائلة المالكة، اتصالات مهمة ومؤثرة مع مراكز عالية جدًّا فعلًا. وهي علاقات تخبرنا كيف أن صانع خيم يهوديًّا بسيطًا مفترضًا، جال العالم بسهولة كاملة، وقام بعدة حالات هروب «خارقة» من السجن ومع ذلك عُدَّ ضيفًا مرحبًا به عند أشخاص ذوي سلطة وتأثير سياسي كبيرين.

توضح هذه الروابط القوية الهيرودسية والموالية للمؤسسة الرومانية لماذا جرد بولس رسالة المسيح من كل تأجج قومي واستبدل بها العديد من النداءات لطاعة

(1) رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية، الإصحاح 16، الآية 10ـ11.
(2) ولسون، أ. ن.، بولس، ذهن الحواري، ص 54.
(3) جوزيفوس، العصور القديمة، الكتاب الرابع عشر، الفصل 8، 3.
(4) أيزنمان، روبرت، مخطوطات البحر الميت والمسيحيون الأوائل، ص 230.
(5) رسائل بولس الرسول إلى أهل فيلبّي، الإصحاح 4، الآية 18.
(6) المصدر السابق نفسه، الإصحاح 4، الآية 21.



السلطات القانونية[1]. وقد أنكرت رسالة بولس، من أجل الخضوع للسلطة «القانونية» أي الرومانية، وتبشيره بميثاق جديد، صلاحية التوراة كما ألغت كليًّا تعاليم يعقوب وحواريي المسيح الأصليين في القدس. فمثلًا، كان لموقف يعقوب المتحمس واليهودي بشكل أساسي بعد سياسي قوي عند ثورته في الهيكل إذ دعم بقوة سياسة قومية وموالية للتوراة ومناوئة للهيرودسية ومعادية للرومان أدت إلى صدام مباشر مع المؤسسة الدينية والسياسية اليهودية في القدس، والكهنة الصدّوقيين الكبار وحليفهم المهم، قريب بولس الملك أغريبا الثاني.

بعد تحول شاوُل الخارق في الطريق إلى دمشق، لم يغيّر دينه فحسب بل اسمه أيضًا. ثم، بعد ثلاث سنوات لا يمكن تعليلها أمضاها في الجزيرة العربية[2]، انضم بولس إلى مجتمع المتعصبين في القدس ليتعلم «الطريق الحقيقي» الذي علّمه المسيح[3]. بعد ذلك، بدأ بولس مهمة أخذته إلى عدة مدن شرقي البحر المتوسط، ومع ذلك، وخلال وقت قصير جدًّا، تعرض لنقد قاس من يعقوب والحواريين في القدس. ومن الواضح أنه كان ثمة اختلاف أساسي بين الطريق، كما فسره يعقوب والمتعصبون من جهة، وما وعظ به بولس من جهة أخرى. ثمة شكل مُحسّن ودبلوماسي إلى حدٍّ ما لهذا النزاع يمكن العثور عليه في رواية «مجلس القدس» الموجودة في أعمال الرسل والتي تتضمن أن صيغة بولس للرسالة تُعدّ مقبولة وصحيحة[4]. على أي حال، على ضوء إخلاص المتعصبين المطلق للتوراة، وحظرهم الصارم للاختلاط مع غير اليهود، وتمسكهم الشديد بقوانين الطعام اليهودية، تُعدّ الرواية الواردة في أعمال الرسل غير قابلة للتصديق مطلقًا، خصوصًا حين نقرأ اعتقادات بولس المُعبّر عنها بصورة واضحة في رسائله.

عثر روبرت أيزنمان على سجلات ضمن مخطوطات البحر الميت ووثائق متعلقة بها مكّنته من إعادة صياغة شكل أدق لهذه الاختلافات. يتوقف النزاع على وعظ بولس الدائم لغير اليهود ورفضه المتكرر لصلاحية التوراة. وفي الوثائق التي درسها أيزنمان، أدى هذا إلى مجابهة مثيرة بين رجل يُدعى الكذاب والذين يسيرون على دربه من جهة،

(1) إنجيل مرقس، الإصحاح 12، الآية 17.
(2) رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية، الإصحاح 1، الآية 17.
(3) أعمال الرسل، الإصحاح 24، الآية 14.
(4) المصدر السابق نفسه، الإصحاح 11.



وبين معلم الحق والحواريين من جهة أخرى. ويشير النص الأساس إلى خيانة ونزاع فئوي ظهر داخل المجتمع[1]، وتذكر قاعدة مجتمع قمران أن:

> **أي رجل يدخل المجلس القدسي سائرًا في طريق الكمال كما أمر الله، وينتهك، سواء بشكل علني أو سري، كلمة واحدة من توراة موسى في أية نقطة مهما كانت... سيُطرد من مجلس المجتمع ولا يعود أبدًا. وما من رجل ذي قدسية سيرتبط معه في أمور مالية أو في مقاربة حول أية مسألة مهما كانت[2].**

هذا هو المصير الذي حدث لبولس تمامًا. وبعد طرده من المجتمع، حتى برنابا هجره، كما يروي في الرسالة إلى أهل غلاطية[3]. إن رفض بولس للقانون، وفكرته المبتكرة أن الخلاص يأتي بالإيمان وحده وليس بالعمل وفق التوراة، ظهرا بوضوح في الرسالة نفسها[4]. ويسجل بول جونسن أنه بعد هذا النزاع، تراجعت مهمة القديس بولس باطّراد لصالح المبشرين الذين فوّضهم يعقوب العادل وفق القانون في القدس[5].

ويؤكد بولس نفسه هذه الممارسة -التفويض الرسمي- بمحاولة رفضها حين يكتب، «أم لعلنا نحتاج، مثل بعض الناس، إلى رسائل توصية إليكم[6]... ويزعم بول جونسن أنه لولا دمار القدس على يد الرومان عام 70 الميلادي، لكان ممكنًا نسيان جهود بولس الإنجيلية كليًّا[7]. منذ ذلك الوقت فصاعدًا، كان قلة من الحواريين اليهود، إذا وُجدوا، لهم أي علاقة ببولس. كان اليهود اليونانيون هم من يدعون بالمتعاونين الوحيدين معه بعد طرده، مثل تيموثاوس[8] وقريبته الهيرودسية الأميرة دروسيلا[9]. إن جميع رسائله التي كتبها بعد طرده مريرة ومتذمرة ومستاءة، مثل: «ألست أنا رسولًا؟ ألست أنا حرًّا؟ أما رأيت يسوع المسيح ربنا؟ ... إن كنت لست رسولًا إلى الآخرين،

---

(1) أيزنمان، روبرت، **مخطوطات البحر الميت والمسيحيون الأوائل**، ص 146.
(2) **قاعدة المجتمع**، 8، 20 وما بعدها..
(3) **رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية**، الإصحاح 2، الآيات 11ـ13.
(4) المصدر السابق نفسه، الإصحاح 2، الآيتان 15ـ16.
(5) جونسن، بولس، **تاريخ المسيحية**، ص 41.
(6) **رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل كورنثوس**، الإصحاح 3: 1.
(7) جونسن، بولس، **تاريخ المسيحية**، ص 41.
(8) **أعمال الرسل**، الإصحاح 16، الآية 1.
(9) المصدر السابق نفسه، الإصحاح 24، الآية 24.



فإنما أنا إليكم رسول!»[1] ويكتب لاحقًا: «... التي جُعلت أنا لها نذيرًا ورسولًا. الحق ما أقول في المسيح ولا أكذب..»[2]. اقرأ رسائل بولس واحدة بعد أخرى ومن المستحيل ألا تلاحظ رثاء الذات والموقف الدفاعي المستاء اللذين يظهران؛ وبعد ذلك، ربما، ستفهم القديس بولس في ضوء مختلف جدًّا[3].

بسبب تعاليمه ضد التوراة، كان يعقوب والمتعصبون يرون بولس نبيًّا مزيفًا. وقد استشهد إيرانيوس، أسقف ليون، ذات مرة بوثيقة للمتعصبين وصفت بولس أنه «مرتد على القانون»[4]. وفي الحقيقة، كانت عائلة المسيح وحواريوه الأصليون ينظرون إلى بولس بازدراء شديد ويمكننا أن ندرك في رسائل بولس أن هذا الارتياب وهذه الكراهية كانا متبادلين. وقد جرى تلخيص موقف بولس بعبارتين بسيطتين من إحدى رسائله: «لكن أشهد أيضًا لكل إنسان مُختتَن أنه ملتزم أن يعمل وفق الناموس كله. قد تبطّلتم عن المسيح أيها الذين تتبرّرون بالناموس»[5]. وبقدر ما يتعلق الأمر بيعقوب والإخوة الأصليين في القدس، كان بولس قد تبنى مفهومًا مخادعًا، لخصه بولس نفسه، بوصفه في آن واحد «حافظًا للناموس بالنسبة إلى أولئك الذين يحفظون الناموس وبلا ناموس بالنسبة إلى الذين بلا ناموس»[6]. لم يتوقف هذا الصراع المرير بطرد بولس من المجتمع، بل انتهى بتنفيذ قصد إجرامي فعلًا.

توقيف بولس من قبل الرومان

وفقًا لرواية أعمال الرسل[7]، اعتُقِلَ بولس، كما يُفترض لأنه أغضب عامة الناس في الهيكل بالدعوة إلى الإنجيل. والسبب الحقيقي لهذا التوقيف كان حماية عضو العائلة الهيرودسية وصديق روما هذا، لأن الرعاع أرادوا قتل بولس بعد محاولته الفاشلة لقتل يعقوب الصالح. ففي هذا الهجوم الإجرامي، أُلقي يعقوب بعنف أسفل درجات الهيكل.

---

(1) رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس، الإصحاح 9، الآيتان 1ـ2.
(2) رسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس، الإصحاح 2، الآية 7.
(3) والاس ميرفي وهوبكنز، روزلين: حارسة أسرار الكأس المقدسة، ص 67.
(4) استشهد به لورنس غاردنر في سلالة الكأس المقدسة، ص 154.
(5) رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية، الإصحاح 5، الآيات 1ـ4.
(6) رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس، الإصحاح 9، الآيتان 20ـ21.
(7) أعمال الرسل، الإصحاح 21، الآية 33.



وقد سجلت محاولة اغتيال بولس ليعقوب في «التقديرات» المنسوب إلى كليمنتين وهي كذلك جزء من مادة بحث حول Anabathmoi Jacobou ـ صعود يعقوب، وهو عمل مفقود حول يعقوب يقتبس إبيفانيوس منه عدة مقاطع. وتتوافر دراسة علمية مفصلة ودقيقة حول هذا الحدث في عمل روبرت أيزنمان الممتاز، «يعقوب أخو المسيح»[1].

عندما حذر بولس الضابط الذي اعتقله من مؤامرة أخرى أيضًا لقتله[2]، جرى نقله إلى قيصرية مع مرافقة عسكرية كبيرة من 200 جندي و70 فارسًا و200 من حملة الحراب[3]، ومع ذلك تساءل القلة عن سبب هذا الإنفاق للموارد العسكرية من أجل نقله في زمن تمرد محتَمل. وهذا ليس المصير العادي لكافر كان سيتم تسليمه عادة إلى اليهود كي يرجموه حتى الموت. ويمكن أن يوضح «نفوذ» بولس السياسي هذا أيضًا وكذلك وضعه المريح خلال «سجنه» سنتين في قيصرية بأمر الحاكم الروماني فيلكس[4]. كان فيلكس متزوجًا من يهودية اسمها دروسيلا، وهي الابنة الثالثة لأغريبا الأول، وأخت أغريبا الثاني وقريبة وتابعة لبولس. وكانت دروسيلا قد طُلقت من زوجها الأول للزواج من فيلكس[5]. وكان فيلكس، بدوره، جيد الصلات أيضًا، لأنه أخو بالاس، أحد المقربين من الإمبراطور نيرون.

قتل يعقوب الصالح

وصلت المجابهة بين يعقوب والمؤسسة الدينية والسياسية في القدس أخيرًا إلى درجة الغليان عندما عين الملك أغريبا كاهنًا صدّوقيًا أكبر جديدًا، هو أنانوس. وأمر بأن يجتمع المجلس اليهودي الأعلى لمحاكمة يعقوب بتهمة الكفر. ويُدرج مجلس ميشنا اليهودي الأعلى الإجراءات القائمة التي وُجدت لإعدام رجال يتمتعون بشعبية كبيرة لدى الناس كما يوصي بأن يجتمع الكهنة حول الرجل المدان، ويدفعوهُ، ويجعلوهُ يسقط

---

(1) يخصص روبرت أيزنمان فصلًا كاملًا لهجوم بولس على يعقوب مستشهدًا بمصادر متنوعة ـ الفصل 116، **يعقوب أخو المسيح**. انظر أيضًا، **التقديرات**، المنسوب إلى كليمنتين..

(2) **أعمال الرسل**، الإصحاح 23، الآيتان 20ـ21.

(3) المصدر السابق نفسه 23، الآيتان 23ـ24.

(4) المصدر السابق نفسه 24، الآيات 1ـ27.

(5) المصدر السابق نفسه 8، الآية 9 وما بعدها..



من جدار الهيكل، ثم يرجمونه ويضربون رأسه بالهراوات[1]. هكذا أُلقي يعقوب العادل من جدار الهيكل، ورُجم ثم تلقى الضربة القاضية بهراوة مبيّض للثياب.

حدث القتل القانوني ليعقوب على الرغم من شعبيته لدى جماهير الناس وحقيقة أن 80 فريسيًّا قدموا التماسًا إلى روما بالنيابة عنه وتطوعوا للموت معه[2]. وقد كتب جيروم (340ـ420 ميلادي)، الذي كان أول من ترجم الكتاب المقدس إلى اللغة اللاتينية، أن، «يعقوب كان ذا قدسية كبيرة وتمتع بسمعة عالية جدًّا بين الناس إلى درجة أن سقوط القدس عُدّ ناجمًا عن موته»[3]. وقد سجل كل من عالم الدين المسيحي في القرن الثالث، أوريجين، ويوسيبيوس، أسقف قيصرية، أنهما شاهدا نسخة لجوزيفوس مختلفة عن النسخة الموجودة لدينا، لعلها النسخة السلافية، التي تذكر بصراحة أن سقوط القدس أتى نتيجة لموت يعقوب، وليس لموت المسيح، وهذا إقرار مهم جدًّا من كاهنين محترمين مبكرين في الكنيسة[4].

جرى بعد قتل يعقوب أن قام المتعصبون وأفراد آخرون من المعمادوت، بقيادة سمعان «ابن عم» يعقوب آنذاك، بمغادرة القدس وعبور الأردن إلى بيلا[5]. وبعد فرارها إلى بيلا، ظلت قيادة المتعصبين متداولة بين أحفاد عائلة المسيح، المعروفين باسم Desposyni، طوال أكثر من 150 سنة[6].

في القدس ويهودا، كان رد الفعل بين السكان اليهود منقسمًا بحدة. وأيدت الفئة المتشددة تمردًا فوريًّا ضد الاحتلال الروماني والفئة الصدّوقية المتعاونة والذين تبنوا النهج اليوناني والهيرودسيين، وبحلول عام 66 الميلادي، برزت المجاهرة بالتحرك نحو الحرب. حينئذٍ قام شاؤول، القريب المشهور لأغريبا، بكشف توجهاته الحقيقية، لأن جوزيفوس يسجل أنه حين اندلعت الحرب عام 66 الميلادي واحتل المتطرفون القدس:

(1) ب. سان. 81b ـ 82b.
(2) أرمسترونغ، كارين، **تاريخ القدس**، ص 151.
(3) جيروم، **حياة الرجال المشهورين**، الفصل 2.
(4) أيزنمان، روبرت، **مخطوطات البحر الميت والمسيحيون الأوائل**، ص 262.
(5) أرمسترونغ، كارين، **تاريخ القدس**، ص 151.
(6) رانك ـ هينينمان، يوت، **إغفال الأشياء الطفولية**، ص 173.



> **سعى رجال السلطة [الصّدوقيون]، مع إدراكهم أن العصيان كان من الصعب جدًّا إخضاعه... من أجل إنقاذ أنفسهم، أرسلوا سفراء، بعضهم إلى فلوروس [الحاكم الإقليمي الروماني]... وآخرون إلى أغريبا، ومن بين أبرزهم كان شاوُل، وأنتيباس، وكوستوباروس، الذين كانوا من أقرباء الملك[1].**

من المؤكد أن شاؤول هذا، قريب أغريبا وصديق نيرون، هو الرجل المعروف أيضًا باسم شاؤول الطرسوسي، أو القديس بولس. كانت فكرة هذا الوفد هي ضمان عمل عسكري عاجل من الرومان وقمع التمرد قبل خروجه عن السيطرة، وهذا مفهوم يتفق مع أمر بولس من تحولوا معه كي «يطيعوا السلطات الشرعية». وقد أخفقت هذه الحيلة وأصبح التمرد غير قابل للإيقاف وهَزم اليهود الرومان مرات عدّة. وعند هذه المرحلة، تمّ إرسال وفد إلى الإمبراطور نيرون المقيم حينئذٍ قرب كورنثوس في آشيا. ويقدم جوزيفوس التفاصيل مرة أخرى:

> **أرسل سستيوس شاؤول وأصدقاءه، بحسب رغبتهما، إلى آشيا، لمقابلة نيرون، وإخباره عن الضيق الكبير الذي كانوا يعانون منه[2]...**

عيّن نيرون فسباسيان جنرالًا قائدًا للجيوش في فلسطين، وبعد أربع سنوات من القتال الطويل والمرير، حوصرت القدس وسقطت في يد الرومان وسط مشاهد مجازر ووحشية لم يسبق لها مثيل. وتعرض سكانها الباقون على قيد الحياة للذبح أو الصلب أو البيع عبيدًا وسوّيت المدينة والهيكل بالأرض. بهذه الطريقة، انتُزع القلب بقسوة من الثقافة والدين والتقاليد اليهودية. وعلى الرغم من النبوءات الدينية، انتصرت قوى الظلام على أبناء النور. لقد تغير كل شيء الآن، ليس بالنسبة إلى اليهود فحسب ولكن بالنسبة إلى العالم بكامله. وأصبحت تعاليم بولس من دون معارضة عمليًّا آنئذٍ وأصبح المشهد جاهزًا لظهور المسيحية.

---

(1) جوزيفوس، **الحرب**، الكتاب الثاني، الفصل 17، 4.
(2) المصدر السابق نفسه، الفصل 20، 1.



الفصل الخامس

تأسيس أوروبا المسيحية
والعصور المظلمة

تُركت مدينة القدس المقدسة مكانًا ممتلئًا بالجثث والدخان؛ فالهيكل مدمر، والشوارع تغص بالجثث المتفسخة وأسوار المدينة المخربة تحيط بها حلقة من المتمردين اليهود، الذين صُلبوا بعد محاولاتهم المخفقة للهرب. كان عدة مواطنين نجوا من الموت يمرون عبر شوارع روما مكبلين بالسلاسل، خلف موكب غزاتهم الذين يحملون كنوز الهيكل ويمجدون نصر روما. ثم تتوج النصر بإعدام قادة الثورة، وإرسال بقية الأسرى إلى أسواق العبيد، ليكملوا أيامهم في العبودية، أو ساحات النزال، أو في سفن الإمبراطورية ومناجمها.

إن حجم النتائج التي تدفقت من الثورة اليهودية المخفقة بين الأعوام 66ـ73 ميلادي معقد جدًّا على نحو يبدو فيه من المستحيل تقريبًا فهمها كليًّا. ومع مرور الوقت، أدت نتائجها البعيدة المدى إلى تطور الثقافة الأوروبية وأثرت بعمق في تاريخ شعوب الشرق الأوسط. على أية حال، يحدد المؤرخ نيل فوكنر بدقة تطورًا واحدًا ذا أهمية كبيرة:

> **إن هزيمة الأمل النبوئي والدمار المادي للطائفة اليهودية ـ المسيحية مهدت الطريق أمام المسيحيين من مؤيدي بولس لنزع الصفة القومية عن المسيح، وإضعاف رسالته الثورية وإعادة تقديمه على أنه «إله مخلّص» ينشر السكينة بين الجماهير[1].**

(1) فوكنر، نيل، النبوءة ـ الثورة اليهودية العظيمة ضد روما، ص 276.



كان على المسيحية الناشئة، كي تستمر في الحياة، أن تتفق مع واقع سلطة الإمبراطورية الرومانية. وقد أثبتت تعاليم بولس، «أطع السلطات القانونية»، أنها عنصر حاسم في هذه الاستراتيجية لأنها أنتجت حشدًا خانعًا ومطيعًا للقانون من المؤمنين. وبالشكل نفسه، كان على كل نشاط ديني أو ثقافي يهودي أن تُعاد صياغته صياغة محكمة على نحو يتفق والوقائع القائمة للسلطة الرومانية[1]. وكان على اليهودية السائدة أن تتعلم من تجربتها السابقة في بابل وكان عليها من جديد أن تتغير على نحو جوهري لتتفادى سحقها على يد السلطة الوحشية والدكتاتورية للإمبراطورية الرومانية.

تحول اليهودية

كان أغلب الفريسيين يدعون تقليديًا إلى درجة من التكيف مع الرومان وقد عارض أحدهم بشكل خاص، وهو الحاخام يوهانين بن زاكاي، تطرف المتشددين بصورة كاملة. وبعد سقوط القدس، كان هو ورفاقه القادة اليهود الوحيدين الذين حافظوا على درجة من المصداقية السياسية مع الرومان واليهود الباقين على قيد الحياة في يهودا. طلب الحاخام يوهانين إذنًا من الإمبراطور الجديد فسباسيانوس لتأسيس مدرسة في جامنيا حيث يستطيع اليهود تدريس الكتب المقدسة والصلاة وإعادة تنظيم دينهم. أصرّ الحاخام على أن تكون المدرسة مركزًا للروحانية لا مرتعًا للتأجج الثوري. ونتيجة ذلك، تجردت اليهودية من حماسها المتعلق بالمسيح المنتظر وتوقدها القومي الحاد[2].

أمر الحاخامات أتباعهم اليهود بمراعاة الله في جارهم ورأوا أن الوصية، «بل تحب جارك مثل نفسك»، كانت «أعظم مبدأ في التوراة»[3]. لقد عدّل الحاخامات في جامنيا التأكيد، ولكن ليس الجوهر، في دينهم وأوجدوا شكلًا من العبادة والطقوس كان مقبولًا عند الرومان. ومن جديد، ومع مقاربة تجربة شعبهم السابقة للنفي في بابل، ركزوا على العقائد الراسخة للدين والمخزون الكبير من الكتب المقدسة والتفسير الذي جمعه أسلافهم منذ ذلك الحين، وواصلوا الحديث عن القدس في الزمن الحالي على الرغم من أن الهيكل كان قد دمّر. وبالنسبة إليهم، كانت القدس والهيكل لا يزالان يمثلان

(1) أيزنمان، روبرت، **يعقوب أخو المسيح**، ص 21.
(2) أرمسترونغ، كارين، **تاريخ القدس**، ص 156.
(3) **سفر اللاويين**، الإصحاح 19، الآية 18.



حقيقة حضور الله الروحي على الأرض وأصبحت هذه الحقيقة الأبدية آنذاك جوهر اليهودية[1].

تشتت المعمادوت

عاد المتشددون وأفراد المعمادوت الباقون على قيد الحياة بقيادة سمعان من بيلا واتخذوا سكنًا مؤقتًا قرب جبل صهيون في مدينة القدس المدمرة[2]. على أية حال، كان هذا تحركًا قصير الأجل، لأن الأباطرة الرومان المتعاقبين، فسباسيانوس وتيتوس ودوميتيانوس وتراجانوس، أقروا الأوامر الحالية الموجهة إلى قوة الاحتلال الأساسية، وهي الفيلق العاشر، للعثور على أي يهودي يزعم أنه سليل الملك داود وإعدامه[3]. لم تكن هذه تجربة جديدة بالنسبة إليهم، لأن تقاليد المعمادوت تروي أنه قبل أكثر من 30 سنة، كان أولاد المسيح قد جرى فصلهم وإرسالهم إلى أماكن آمنة لضمان بقائهم على قيد الحياة[4]. وكان ابن المسيح، يعقوب، قد عُهد به إلى يهوذا توماس ديديموس، شقيق المسيح التوأم، وأُرسل ليتلقى رعاية آمنة لدى الملك أبغار عاهل إيديسا[5]. كذلك فرت زوجة المسيح الحامل، مريم المجدلية، إلى مصر حيث أنجبت بنتًا دُعيت سارة قبل أن تلجأ أخيرًا إلى جنوب فرنسا[6].

عندئذ أصبح الوقت مناسبًا لجميع المعمادوت، خصوصًا من كانوا منحدرين من سلالة داود، ليهربوا ويختبئوا تفاديًا للاضطهاد الروماني. وقد تفرقوا في جميع أنحاء الشرق الأوسط، بالإضافة إلى جيوب يهودية داخل فرنسا وإنكلترا وإسبانيا وإيطاليا وأوروبا الشمالية والشرقية. ومع تمسكهم على نحو صارم بطقوس زواجهم الكوهنية للمحافظة على سلالاتهم المقدسة، بدؤوا أيضًا بتحويل الوجه العام لممارساتهم الدينية كي يضمنوا بقاءهم على قيد الحياة. كما نبذوا موقفهم القومي المتقد المعادي للرومان وأنكروا أصلهم اليهودي كما يبدو، ومارسوا ظاهريًّا الدين السائد في مكانهم

---

(1) أرمسترونغ، كارين، **تاريخ القدس**، ص 168ـ169.
(2) يوسابيوس، **التاريخ الكهنوتي**، الكتاب الرابع، الفصل 5.
(3) المصدر السابق نفسه، الكتاب الثالث، الفصل 11؛ كذلك أرمسترونغ، كارين، **تاريخ القدس**، ص 153.
(4) حسنين، فداء، **بحث عن المسيح التاريخي**، ص 55ـ60.
(5) هوبكنز، سيمانز ووالاس ـ ميرفي، **الملك الإله**، ص 79.
(6) **دليل إلى مريمات البحر القديسات**، ص 3.



وزمانهم. ومع نقل تعاليمهم سرًّا داخل الأسر، أكدوا كثيرًا السلوك وظلوا محافظين على نية إيجاد «نخبة داخل النخبة». وكرسوا حياتهم آنذاك من أجل مبادئ الأخوّة المقدسة التي تأسست بثبات على المبادئ الروحية للعدالة والحقيقة. وهكذا جاهدوا للمحافظة على الجوهر الروحي لرسالتهم الأولية وتأكيده «العمل وفق التوراة» بلا خوف من اضطهاد الرومان أو أية قوة دنيوية أخرى. وقد سجل كاهن كنسي مبكر، وهو إبيفانيوس، معتقداتهم الحقيقية حول المسيح:

> **إلى جانب الحمام الطقسي اليومي، كانوا يمارسون معمودية القبول ويحتفلون كل سنة ببعض الأسرار الدينية... ويستخدمون في هذه الأسرار الدينية خبزًا خاليًا من الخميرة، وفي الجزء الآخر، ماء نقيًّا... ويقولون إن المسيح وُلد من نطفة بشرية... وإنه لم ينجبه الله الآب، لكنه خُلق... وهم يتلقون إنجيل متّى أيضًا وهذا ما يستخدمونه... مع استبعاد الأخرى كلها. لكنهم يدعونه باسم الإنجيل وفقًا للعبرانيين**[1].

وقد أكدت المؤرخة كارين أرمسترونغ رأيهم أن المسيح إنسان وليس إلهًا، عندما كتبت، «على أية حال، لقد عرفه بعضهم منذ أن كان طفلًا ولا يستطيعون رؤيته إلهًا»[2].

المسيحيون الأوائل

بعد سقوط القدس، انقسم الذين زعموا اتباع تعاليم المسيح إلى مجموعتين أساسيتين: الحواريين الأصليين، المعروفين آنذاك بالمتشددين، الذين اتبعوا تعاليم المسيح التي تلقوها مباشرة من الحواريين الأصليين أو من إخوة المسيح والناس الذي مشوا وتحدثوا معه حين كان حيًّا. وقد اتبع خصومهم اللاهوتيون، المدعوون بالمسيحيين، تعاليم بولس الذي لم يسبق أبدًا أن قابل المسيح الحي، وفقًا لكتاباته. وكانت مطالبة بولس بالسلطة مستندة فقط إلى أمر خيالي زعم أنه أتاه مباشرة من الرجل الذي دعاه باسم «الرب الصاعد». وكان المسيحيون المؤيدون لبولس قد استقروا نسبيًّا في أماكن مختلفة، لكن بعضهم تشاجروا فيما بينهم. وأخيرًا فازت بمعركة السيادة

---

(1) ولبورن، أندرو، **بدايات المسيحية**، ص 87.

(2) أرمسترونغ، كارين، **تاريخ القدس**، ص 155.



بينهم المجموعة المتمركزة في روما والتي بدأت آراؤها الدينية تسود في النهاية وتشكل اعتقادات هذا الدين «الجديد» وبنيته.

لا شك في أن رسائل بولس هي التوثيق الأساسي الأولي للدين المسيحي ويعود تاريخ رسائله التي قدمها للمجتمعات إلى عام 47 ميلادي تقريبًا، قبل أكثر من 30 سنة من كتابة أول الأناجيل المقبولة كنسيًّا[1]. وقبل كتابة الأناجيل، كانت هذه هي الوثائق الوحيدة التي يجري توزيعها بين أتباع بولس. ويكتب العالم التوراتي روبرت أيزنمان:

باستخدام رسائل بولس مادة لمصدرنا الأساس، تُعدّ على أقوى أساس يمكن تصوره، لأنها أقدم وثائق مؤكدة وموثوق بها للمسيحية ويمكن تأريخها بدرجة عالية من الحقيقة. ومن الواضح أنها أقدم من الأناجيل أو أعمال الرسل، التي تسبقها في الترتيب الحالي للعهد الجديد والتي بحد ذاتها تعتمد في غالبيتها من الناحية المذهبية على بولس. وتعتمد أعمال الرسل إلى حدّ ما على رسائل بولس في المعلومات التاريخية أيضًا[2].

إن الاعتماد العَقَديّ الكامل تقريبًا لأعمال الرسل، بالإضافة إلى معظم المحتوى الديني للأناجيل على عمل بولس، ليس واضحًا لأن الأناجيل في العهد الجديد تأتي أولًا، تليها أعمال الرسل وبعدها الرسائل. ويُعد هنا الترتيب في التقديم أمرًا يعكس عادة الترتيب الزمني للتأليف، وهو خطأ يحرف الأهمية الدينية النسبية للكتب المقدسة المعنية. وهكذا، من الصعب جدًّا فهم المحتوى الأصلي لتعاليم المسيح من أسفار العهد الجديد وكشفه لأن نشاطات بولس وتأثيره وتعاليمه تقلل من أهمية مساهمة الحواريين الحقيقيين ورأيهم في العقيدة الحقيقية للمسيح وتستبعدها عمليًّا. وفي العهد الجديد الذي يسيطر عليه تفكير المؤيدين لبولس، يمكننا فقط أن نلتقط لمحات عابرة وناقصة ومضللة لحركة النازوري الأساسية نفسها التي ينتمي إليها الحواريون الحقيقيون فعلًا[3].

كتابة الأناجيل

ثمة إجماع الآن حول التاريخ المحتمل لتأليف الأناجيل الأربعة المقبولة كنسيًّا.

---

(1) باول، مارك ألين، **نقاش المسيح**، ص 41.
(2) أيزنمان، روبرت، **يعقوب أخو المسيح**، ص 54.
(3) شونفيلد، هيو، **أولئك المسيحيون المدهشون**، ص 56.



ومن المتفق عليه الآن أن مرقس كان أول الأناجيل التي ظهرت وقد كُتب على ما يبدو بين الأعوام 70 و80 ميلادي بعد سقوط القدس حينما ساد تفكير بولس من دون أيّة معارضة فعالة. وظهر إنجيل متّى بعد عشر سنوات تقريبًا مع إنجيل لوقا وأعمال الرسل التي رأت النور في وقت ما من العقد الأول للقرن الثاني. وإنجيل يوحنا، الذي يُعدّ الآن منسوخًا عن انتقال شفهي سابق، يعود تاريخه بشكل متباين إلى ما بين الأعوام 100ـ120 ميلادي[1].

سيكون من الخطأ تمامًا التلميح إلى وجود أية درجة حقيقية من الإجماع الديني في البداية بين المجموعات «المسيحية» العديدة المبعثرة آنذاك بين المدن والبلدات الساحلية في البحر المتوسط، لأن هذه، عمومًا، ضمت تنوعًا من الطوائف المتباينة والمتناحرة المؤسسة على تقاليد مختلفة اعتمدت كثيرًا على من نصّرها. وبشكل تدريجي، بدأ علماء الدين المؤيدون لبولس بتشديد قبضتهم على الكنيسة المسيحية الناشئة مستعملين الوسائل التقليدية المؤيدة لبولس من الزيف والافتراء لتعزيز وضعهم. وقد سببت لهجة النقاش العَقديّ ظهور تعبير «الكراهية الدينية»وهي شكل من الإساءة الحاقدة التي تركزت على اغتيال الأشخاص بدلًا من التركيز على خاصيتهم الفكرية أو حقيقتهم الروحية.

ولتشريع مطالبتها بالسيادة الروحية ـ على سبيل المثال ـ استخدمت الكنيسة الرومانية تأكيدًا غير مسوغ مطلقًا بأن كلًّا من القديس بطرس والقديس بولس قد استُشهد في روما، على الرغم من الدليل المعاصر على أن بطرس صُلب في القدس والحقيقة المزعجة بأنه لا يوجد دليل يوحي حتى أن بولس قد أعدمه أصدقاؤه الرومان أو أي شخص آخر. وكانت أسطورة مؤسسة بطرس الملفقة، المصنفة على أنها «تقليد» لدى الكنيسة، قد استُعملت آنذاك لتسويغ الزعم المزيف حول «التعاقب الرسولي» الذي أكد أولوية أسقف روما على جميع المسيحيين. ومع خضوعها لموجات عرضية من الاضطهاد التي كانت وحشية جدًّا، لكنها قصيرة عادة، نمت المسيحية، رغم ذلك، بثبات في أعدادها وفي تأثيرها.

أصبح قسطنطين الكبير (حوالي 274ـ337 ميلادي) إمبراطور روما بعد انتصاره في

(1) ماك، بيرتن ل.، **الإنجيل المفقود**، ص 2.

مكتبة الفكر الجديد

الحرب الأهلية خلال معركة جسر ملفيان عام 312 ميلادي. بعد ذلك على الفور تقريبًا أقرّ مرسوم ميلانو الذي يمنح الكنيسة المسيحية الحرية من الاضطهاد والتسامح الديني وإعادة حقوق ملكيتها[1]، التي كانت آنذاك كبيرة جدًّا فعلًا. وكان من مصلحة جميع الذين أرادوا عطف الحاكم الجديد وحمايته استعمال أي وسائل ممكنة، بما فيها التملق والتقليد والفساد[2]، ولأن المسيحية أصبحت آنذاك دين الإمبراطور المفضل، فقد نمت في القوة والتأثير. على أية حال، لم يكن قسطنطين مسيحيًا، بل كان في الحقيقة مواليًا لطائفة ميترا التابعة لسول إنفيكتوس[3] وقد أراد ببساطة استخدام التقاليد المنضبطة المطيعة للقانون لدى المسيحيين واعتقاداتهم بحسبانها قوة متماسكة اجتماعيًا لمعالجة الانقسامات المريرة داخل الإمبراطورية التي سببتها الحرب الأهلية الأخيرة[4]. ومع أن المسيحية كانت آنذاك مشروعة وموضع تشجيع، فإنها لم تصبح الدين الرسمي المفضل رسميًا إلا بعد مرور 70 سنة أخرى.

على أية حال، لقد شعر قسطنطين بخيبة أمل، فقد كان من بين العوامل الأكثر مدعاة للخلاف ضمن الإمبراطورية النزاعات العَقَدية المستمرة داخل المسيحية. وفي الحقيقة كانت الدولة واقعة تحت خطر تمزق جدي نتيجة النزاعات الدينية العنيفة المتزايدة داخل الكنيسة[5]. ولم يكن مستغربًا أن تكون المسألة المتنازع عليها بمرارة بالغة ناجمة عن النقاش الدائم حول الطبيعة الحقيقية ليسوع، أو المسيح كما كان يُدعى آنذاك على نحو أكثر شيوعًا. وبالنسبة إلى المسيحيين المؤيدين لبولس، لم يكن المسيح قدسيًا فحسب، بل كان «ابن الرب المنجَب الوحيد». وبالنسبة إلى الآريوسيين، من جهة أخرى، كان الإله الآب «إلهًا حقيقيًا واحدًا» ومع أن المسيح كان موجهًا إلهيًا، فهو لم يكن إلهًا، سواء بشكل أساسي أو بالضرورة. وحسب آريوس (توفي عام 336 ميلادي)، كان من الممكن للمسيح أن يخطئ. وقد سببت «الهرطقة» الآريوسية صخبًا داخل الكنيسة وأظهرت تصاعد الأمور المنافية للعقل التي يمكن أن يبلغها علماء الدين في

(1) جونسن، بول، **تاريخ المسيحية**، ص 67، 76 و82.
(2) مور، ل. دافيد، **المؤامرة المسيحية**، ص 61.
(3) جونسن، بول، **تاريخ المسيحية**، ص 67.
(4) كريستي موراي، دافيد، **تاريخ الهرطقة**، ص 1؛ جونسن، بول، **تاريخ المسيحية**، ص 76.
(5) مور، ل. دافيد، **المؤامرة المسيحية**، ص 62.



محاولاتهم لتأييد المفهوم الكافر الذي أعده بولس وتوضيحه أن المسيح، ذلك الحاخام اليهودي الأرثوذكسي المتشدد، هو الله. كانت الطريقة الوحيدة لوضع حدٍّ لهذا النزاع المدمر المرير المتزايد هي اكتشاف تعريف عملي يوضح على وجه دقيق بأي معنى كان المسيح هو الله. وقد أرسى قسطنطين استقرارًا سياسيًّا أعلى بكثير من حقيقة العقيدة الدينية في ترتيبه للأولويات، ولفرض إرادته الإمبراطورية على رجال الدين المتناحرين الذين هددوا بتمزيق إمبراطوريته دعا إلى انعقاد المجلس العالمي الأول للكنيسة في نيقيا عام 325 ميلادي[1].

مجلس نيقيا

أنجز مجلس نيقيا هدفًا سياسيًّا ضروريًّا جدًّا بأسلوب كان مبتكرًا في ذلك الوقت. وكانت قرارات المندوبين المختارين بعناية قد نُشرت على أنها مذهب الكنيسة الرسمي الذي ستكون له تأثيرات مدمرة طويلة المدى. أولًا، أكدت الدولة والكنيسة رسميًّا آنذاك أنهما على توافق كل منهما مع الأخرى، وثانيًا، أدينت تعليمات آريوس بأنها هرطقة[2]. كذلك دمج قسطنطين أساطير ميترا رسميًّا مع المسيحية، بما في ذلك أسطورة الولادة المقدسة في كهف التي يحضرها رعاة، ويوم الحساب النبوئي، ومفهوم «الثالوث المقدس»، الذي اقترحه أولًا عابد آخر للشمس، وهو الفرعون أخناتون في مصر، وقيامة الجسد والمجيء الثاني للإله، لكنه في هذه المرة لم يكن ميترا الذي سيأتي ثانية، بل المسيح. كان الأحد، اليوم المكرس سابقًا لسول إنفيكتوس سيصبح آنذاك السبت الرسمي بدلًا من غسق الجمعة حتى غروب شمس السبت. ولم يكن مذهب نيقيا، الذي يجب عدم الخلط بينه وبين مذهب نيقيا اللاحق، قد أعلن أن المسيح قدسي ونظير الله الآب بصورة كلية.

وأخيرًا، مع إنشاء مؤسسات قوية طوال قرون عدة من القمع التي ستأتي وزرع بذور العداوة المستقبلية نحو اليهود والمسلمين، أمر المجلس أن أي شخص لا يقرّ بقدسية المسيح سوف يُحرم كنسيًّا. ويصور أحد أعمال الإمبراطور النهائية بدقة حرية الضمير المتفقة مع المندوبين عندما فرض أحكامًا جنائية بالنفي على جميع الأساقفة الذين

(1) جونسن، بول، **تاريخ المسيحية**، ص 88.
(2) مور، ل. دافيد، **المؤامرة المسيحية**، ص 63.



رفضوا توقيع مراسيم المجلس. وبعد سنة، نشر رسالة موجهة إلى الطوائف المتهمة بالزندقة المحددة حديثًا تخبرهم بأن أماكن عبادتهم سوف تصادر[1]. وفي عام 333 ميلادي، بدأ الإمبراطور عملًا تأديبيًّا آخر ضد الزنادقة بإصدار مرسوم ورد فيه:

... إذا اكتُشفت أية رسالة كتبها آريوس، فيجب إلقاؤها في النيران... كي لا يكون هناك أي ذكر له. وأي شيء يبقى... إذا قُبض على أي شخص يخفي كتابًا من تأليف آريوس، ولا يخرجه ويحرقه فورًا، ستكون عقوبته الموت؛ وسيتلقى المجرم العقاب فور إدانته[2].

هكذا تمّ إحداث مؤسسة الكنيسة/ الدولة الرسمية الأولى في أوروبا، التي أقيمت بشكل راسخ على الأساس الروحي للخوف والقمع؛ وهيّأت المشهد لمعظم ما كان سيأتي لاحقًا. وطوال القرون الخمسة التالية واصلت القضايا الشائكة حول الطبيعة الحقيقية للمسيح إرباك الكنيسة. وقد واجهت علماء الدين الذين اتبعوا هرطقة تأييد بولس مهمة شبه مستحيلة، لأنهم مع عجزهم عن تقبل أن المسيح كان معلمًا ملهمًا إلهيًّا لكنه رجل مع ذلك، كان عليهم أن يكافحوا باستمرار من أجل دعم مخيلة المؤيدين لبولس أن المسيح هو الله.

البابا يدعم سلطته

بعد مجلس نيقيا، أصبح جزءًا من عقيدة الكنيسة أن أسقف روما، والتسلسل الهرمي الذي يعمل تحت إمرته، كانوا ممثلي الله على الأرض وأن بياناتهم موضوعة من سلطة موافق عليها إلهيًّا. بهذا الأسلوب، كان الموقع الذي يحتله يعقوب العادل، وهو «أسقف» القدس الأول قد أُبطل تمامًا. وكان يعقوب، الكاهن الوراثي الأكبر في هيكل القدس، قد أذل نفسه في قدس الأقداس بوصفه ممثلًا لشعبه، وهو يطلب المغفرة من الله. لقد تغيّر الموقف آنذاك؛ فالبابا كان ممثل الله أمام الشعب وطالب بأن يحكمهم جميعًا باسم الله. لقد خدم يعقوب شعبه، وحكم البابا شعبه. ويسجل الكاتب الإنكليزي لورنس غاردينر أن البابا سيلفيستر أخبر مجموعة تمثل دسبوسيني، أحفاد المسيح المنتظر، أنهم وتعاليمهم لا مكان لهم في النظام المسيحي الجديد[3]. وأخبر

(1) فوكس، روبن لين، **الوثنيون والمسيحيون**، ص 656.

(2) جونسن، بول، **تاريخ المسيحية**، ص 88.

(3) غاردينر، لورنس، **سلالة الكأس المقدسة**، ص 159.



البابا الوفد أن تعاليم المسيح قد استُبدل بها عقيدة الكنيسة التي عُدّلت آنذاك بشكل يتفق مع الرغبات الإمبراطورية. وعلى الرغم من حقيقة أن المسيح كان قد رُفع في مجلس نيقيا إلى منزلة مساوية لله الآب، فقد أخبرهم البابا أن الخلاص لا تقع مسؤوليته على المسيح، بل على الإمبراطور الروماني قسطنطين الكبير[1].

مفهوم الهرطقة

سرعان ما وضح قسطنطين بنفسه جيدًا أن المزايا التي منحها للكنيسة المسيحية «يجب أن تفيد أتباع المذهب الكاثوليكي فحسب»[2]، أي الذين قبلوا من دون تحفظ المذهب الذي أعلنت عنه العقيدة الجديدة بالإضافة إلى السلطة الكنسية العليا لأسقف روما. وذكر: «أن الزنادقة والمنشقين لن يتمّ حرمانهم من هذه الامتيازات فحسب بل سيقيدون ويخضعون لخدمات عامة مختلفة». وقد تابع الأباطرة الآخرون الذين خلفوه سياسة مماثلة لضمان أن تتعرض عضوية أي طائفة تمارس الهرطقة إلى درجة من السمعة الشائنة وفقدان الحقوق المدنية.

عرّف القديس أوغسطين أوف هيبو (354_430 ميلادي) الهرطقة بأنها «تشويه للحقيقة الموحى بها من قبل مؤمن أو متشكك». وكانت «الحقيقة الموحى بها» قد عُرّفت بأنها «ما أعلنته الكنيسة نفسها بأنها الحقيقة الموحى بها». واستخدم التسلسل الهرمي هذه الحجة المعممة لترسيخ احتكار كلي على كل اقتراب من الأمور المقدسة[3]. وقد بدا أن الكنيسة ترى دائمًا أن الهرطقة توجد حيث أو حين يتمثّل أي رجل الهبة الإلهية الممنوحة له في الإرادة الحرة حول أمور الدين. قبل انتخابه للبابوية عام 2005 واتخاذ اسم بنيديكت السادس عشر، كان الكاردينال جوزيف راتزينغر مسؤولًا عن «تجمع عقيدة الدين»، المكافئ الحديث لمحاكم التفتيش. وفي عام 1990 زعم أن: «حرية ممارسة الدين لا يمكن أن تسوغ حق المعارضة»[4]. ولإظهار مدى قلة التغيير خلال ألفي سنة، يذكر «كتاب التعليم الكاثوليكي الجديد» المنشور عام 1990

---

(1) والاس ـ ميرفي، هوبكنز وسيمانز، **الملك الإله**، ص 97.

(2) مور، ر. ي.، **تشكيل مجتمع مضطهد**، ص 12.

(3) جونسن، بول، **تاريخ المسيحية**، ص 116_117.

(4) حديث الكاردينال راتزينغر عام 1990، مقتبس لدى بايجنت ولاي، **تضليل مخطوطات البحر المت**، ص 191.

مكتبة الفكر الجديد

أن: «مهمة تقديم تفسير حقيقي لكلمة الله... قد عُهد به إلى مكتب التعليم الحي في الكنيسة وحده».

أُعلن تشريع محدد آخر ضد الهرطقة في ثمانينات القرن الرابع[1]، وبحلول عصر الإمبراطور ثيودوسيوس في أواخر القرن الرابع تضاعف ذلك حتى أصبح هناك أكثر من 100 قانون منفصل ضد الهرطقة. كان ثيودوسيوس الأول (توفي عام 395 ميلادي)، الذي منع جميع الزنادقة من تولي وظائف عامة وأجرى حملات تطهير ضدهم[2]، مسؤولًا أيضًا عن نفي نستوريوس[*] بطريرك القسطنطينية وترحيله. وقد أكد البطريرك أن مناقشة ما إذا كان المسيح هو الله، أو ببساطة أكثر «ابن الله»، لا صلة لها بالأمر كليًا لأن الجميع عرفوا أنه وُلد لأب وأم بشريين مثل الآخرين. ومع نستوريوس نُفيت مجموعة كبيرة من العلماء الكلاسيكيين اليونانيين الذين غادروا أوروبا وأخذوا كتبهم ومخطوطاتهم معهم إلى المنفى. وهكذا جرى إلغاء جميع فوائد قرون من التأمل الفكري والتعلم والفلسفة والرياضيات والعلوم اليونانية من ذاكرة الرجل الأوروبي وكأنها لم تكن موجودة أبدًا[4]. لقد ضاع هذا الحجم الهائل من التعلم أمام الحضارة الغربية طوال قرون عدة ، لكنه حُفظ في الإمبراطورية الإسلامية الآتية، وبفضل جهود العلماء اليهود والمسلمين، عاد إلى الانبعاث أخيرًا في أوروبا خلال عصر النهضة.

الكنيسة تشدد قبضتها

كان أحفاد المعمادوت، المعروفون آنذاك بالملك الإله، آخر مجموعة موثوق بها فعلًا يمكن أن تكذّب زعم الكنيسة المبدئي والكافر بأن المسيح هو الله، مشتتين وصامتين الآن. كان صمتًا ضروريًّا للبقاء على قيد الحياة، لأن الكنيسة لم تتسامح مع أي منافسين لها، وقامت بحملة قوية في جميع أنحاء الإمبراطورية لتدمير جميع هياكل المعتقدات المنافسة ومراكز عبادتها أو إغلاقها، والاستيلاء على هذه المواقع المقدسة

(1) مور، ر. ي.، **تشكيل مجتمع مضطهد**، ص 12.

(2) جونسن، بول، **تاريخ المسيحية**، ص 87.

(*) مؤسس المذهب النسطوري الذي عُدّ هرطقة عام 431م والذي يذهب إلى أن الطبيعتين الإلهية والبشرية ظلتا منفصلتين في يسوع المسيح. بناءً عليه أُسست كنيسة انفصلت عن المسيحية البيزنطية بعد عام 431، وانتشرت في فارس وأصقاع أخرى ولا تزال قائمة وينتسب إليها الآشوريون. [المترجم].

(4) رافنسكروفت ووالاس ـ ميرفي، **سِمة الوحش**، ص 124.



لاستخدامها هي نفسها حيثما أمكن. وكانت معابد السر الديني اليونانية الكلاسيكية قد أزيلت وأُسكت وحيها الجليل إلى الأبد(1).

أغلقت الكنيسة جميع الأبواب التي تتيح الوصول إلى التراث الروحي والثقافي لقبائل الإمبراطورية وشعوبها المتعددة. وفي سعيها المستمر نحو القوة والسلطة المطلقة خشيت من أي وصول إلى عالمي كل من المعرفة الدينية أو العلمانية التي لم تسيطر عليهما(2). ومن يعرف ما قد يحدث إذا تشجع الشعب على التعلم والمغامرة الفكرية والبحث بالأسلوب الروماني أو اليوناني التقليدي القديم؟ وسرعان ما اقتصر التعليم على رجال الدين فحسب، ونتيجة ذلك أصبح الحصول على الدرجات الكهنوتية في النهاية الشرط السابق لمعرفة القراءة والكتابة الأساسية.

على أية حال، سيطرت الكنيسة بإحكام حتى على ما تعلمه رجال الدين. وكانت الأعمال العظيمة لفلاسفة اليونان القديمة قد أدينت على أنها «وثنية» وكان القليل من الأفلاطونية الحديثة لدعم العلوم الدينية هو كل ما تطلبته الكنيسة من ذلك المركز التعليمي القديم والمحترم. وهكذا كشفت الكنيسة أهدافها وغاياتها الحقيقية، وهي السلطة المطلقة والسيطرة على الملوك والأباطرة والأمراء؛ وعلى الأقاليم والشعوب والأفراد؛ وعلى هذه الحياة ومدخل الحياة القادمة. ومع قبضة الكنيسة الخانقة على جميع أشكال التعليم، ظل عامة الناس المؤمنون بالخرافات ساكنين في حالة من الجهل والخوف ومع النهاية المؤثرة للمذهب الآريوسي في القرن الخامس، ظهرت فترة من الهدوء ووحدة المعتقد الديني لتعمّ الصحراء الفكرية والروحية التي عاشت عليها أوروبا في العصور المظلمة.

مع انهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية (476-479 ميلادي)، كانت الكنيسة هي المؤسسة الوحيدة الباقية على قيد الحياة مع إحساس واضح بالغاية والمهارات اللازمة للبقاء. ومع توسيع نفوذها في القبائل البربرية، أصبحت الكنيسة هي المُشّرع الرئيس في الإمبراطورية المنهارة، وقام رجال الدين، الذين كانوا المحكمين النهائيين الذين لا يوجد أي استئناف لقراراتهم، بتنظيم القوانين التقليدية لقبائل أوروبا. وسجل كُتّاب

(1) رافنسكروفت ووالاس ـ ميرفي، سِمة الوحش، ص 79.
(2) والاس ـ ميرفي، تيم، تراث فارس الهيكل والإرث الماسوني داخل هيكل روسلين، ص 12.



الكنيسة الأساطير الشفهية، وخرافات القبائل وقصصها، مُضيفين لمستهم المذهبية الخاصة، ولكن مع حذف كل ما كان يشكل هجومًا على العقيدة القائمة، محتفظين بهذا، ومضيفين ذلك، ومُغيّرين التواريخ ببراعة ومُشكّلين قالب ثقافة جديدة، مسيحية بشكل أساسي. وتحولت الخرافات والأساطير العشائرية إلى قصص؛ وتجرد الخيال الأدبي المحض من كل قوة وصلاحية.

وهكذا حرفت الكنيسة تواريخ الثقافات كلها، وزادت من قبضتها ليس على الواقع الحالي للقبائل فحسب، بل وعلى ماضيهم وتراثهم الثقافي القديم أيضًا[1]، معززين هذه العملية بدمج المهرجانات الوثنية في التقويم المسيحي. وحل عيد الفصح محل مهرجان عشتروت، إلهة الحب والخصوبة الفينيقية؛ وحل عيد القديس يوحنا المعمدان محل الانقلاب الصيفي؛ وأصبح الخامس والعشرون من ديسمبر/ كانون الأول، عيد ميلاد ميترا، إله الضوء الفارسي، متحدًا مع الانقلاب الشتوي وكان يُحتفل به على أنه عيد ميلاد المسيح أو «عيد الميلاد». على أية حال، حتى في العصور المظلمة التي أُحسنت تسميتها، كان ثمة وميض من الأمل، ونقاط صغيرة من الضوء تكافح ضد الظلام المنتشر على ما يبدو والذي فرضه احتكار الكنيسة للتعليم والخلاص.

المسيحية السَّلْتِيّة

لا يزال ممكنًا العثور على أحد مصادر نور العلم في إيرلندا، مقر الكنيسة السَّلْتِيّة. وقد حصل أول تبشير إنجيلي في الجزر البريطانية بعد الصلب بأربع سنوات فقط عندما أسس المبشرون الإنجيليون الذين يُنسبون إلى يعقوب العادل الكنيسة في بريطانيا. ووفقًا للقديس جيلداس، الذي كتب عام 542 ميلادي[2] والمؤرخ المسيحي المبكر فريكولبوس[3]، أنتج هذا الجهد الإنجيلي دينًا متميزًا عُرف باسم المسيحية السَّلْتِيّة وتطور إلى شكل من الرهبانية تميز بالطهارة والبساطة الروحيتين. وكان الكهنة يُشجعون على الزواج وبناء الأسر، لأن الكهانة كانت، على غرار مثيلتها في كنيسة القدس

(1) جونسن، بول، **تاريخ المسيحية**، ص 135ـ138.
(2) بيد، **تاريخ الكنيسة والشعب الإنكليزيين**، ص 66.
(3) **Trias Thermaturga**، ص 156b.



المبكرة، منصبًا وراثيًا[1]. ومن خلال رفض جميع زخارف السلطة الدنيوية ومنافعها، وقفت بساطة الرهبان السَّلْتِيين وتواضعهم على نقيض حاد مع الفخامة والتباهي لدى الكهنة في بقية أوروبا. لذلك كان التعليم في إيرلندا ذا قيمة عالية وقد امتلك الرهبان مكتبات كبيرة وحسنة الاستعمال.

بشّر السّلتيون بالإنجيل في معظم أوروبا الغربية[2]، وعند عبوره من اسكندنافيا في الشمال إلى سويسرا في الشرق وصف مؤرخ القرن السابع عشر، توماس فولير، هؤلاء المبشرين الإيرلنديين الطليقين بأنهم «علماء جوالون». وكانت نوعية تعليمهم ومجاله على درجة زعم معها البروفسور هـ. زيمر: «أنه من البديهي تقريبًا ذكر أن من عرف اليونانية على قارة أوروبا في أيام شارل الأصلع (823-877 ميلادي)، الإمبراطور الروماني المقدس وملك الفرنجة، كان إيرلنديًا أو تعلّم على يد إيرلندي»[3]. وقد أصبحوا معروفين باسم «رجال الحلزون» لأنهم كانوا يتركون أثرًا فضيًا من المعرفة خلفهم حيث حلّوا.

وسرعان ما تلاشت جهودهم في المواقف القمعية والواسعة الانتشار للكنيسة الفاسدة في روما، لكن ذلك كله لم يكن قد ضاع في العصور المظلمة بعد. وكانت هناك بلاد في الشرق الأوسط أبعد بكثير عن متناول روما ستنجب رجلًا روحيًا بعمق، حافلًا بالتقليد النبوي، أسس دين النقاء الروحي العظيم المُشبّع منذ البداية باحترام العلم، وكان تسامحه مع الأديان الأخرى نموذجيًا، وهو النبي محمد.

(1) صاحب السمو الملكي الأمير مايكل أمير ألباني، **الحكم الملكي المنسي في اسكتلندا**، ص 30.
(2) إلدر، إيزابل هيل، **الكلتي والدرويد والكولدي**، ص 131-132 و134.
(3) دونفورد، باري، **أرض اسكتلندا المقدسة**.



الجزء الثالث




مكتبة
الفكر الجديد

تأسيس عالم الإسلام

في بداية القرن السابع ولد ثالث أديان العالم التوحيدية الكبيرة في جزء غير معروف كثيرًا من الجزيرة العربية؛ وهو دين أنتج حضارة متطورة جدًّا كان لها تأثير عميق في التطور النهائي للثقافة الأوروبية، وفي النهاية، عبر تحول ملايين الناس، ستكون تأثيراته محسوسة في جميع أنحاء العالم. وفي مقارنة مثيرة مع الرأي العالمي غير المتسامح للكنيسة المسيحية، وهو رأي لم يتحمل أي منافسة وقام بقمع المعارضة داخل مناصبه الرسمية بضراوة متزايدة، كان الإسلام، منذ بدايته، معقلًا للتسامح والعدالة الاجتماعية والتقوى الرائعة. وعلى عكس المسيحية، التي كانت قد رسخت جيدًا آنذاك في أوروبا، لم يطور هذا الدين، الذي نشأ بين الشعوب العربية، أي تسلسل هرمي لرجال الدين أفسدته السلطة والثروة. وكانت بساطة عقيدته تصل إلى درجة أن كل ما أراد عمله جميع أتباعه هو إخضاع أنفسهم لإرادة الله كما أظهرها القرآن الكريم. كانت المعرفة والتعليم ضمن إمبراطورية الإسلام المتنامية موضع احترام وتشجيع، وكان أتباع جميع المعتقدات التوحيدية الرئيسة - اليهود والمسيحيون وكذلك الزرادشتيون - يعاملون باحترام وتسامح بوصفهم «أهل الكتاب»[1].

(1) دي لانج، نيكولاس، أطلس العالم اليهودي، ص 38.




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل السادس

«خاتم الأنبياء»

نجم عن الشروط المناخية لصحاري الجزيرة العربية أسلوب حياتي لدى أغلب الشعوب العربية كان بدائيًا وقاسيًا في الوقت نفسه، أسلوب حكم عليهم بالعزلة الدائمة كما يبدو في محيط العالم المعروف، والتجاهل الكبير من الحضارات الكبرى في القرن السابع. وكان على بعض قبائل البدو الرحل التي سكنت الصحراء أن يخوض بعضها منافسة شديدة مع بعضها الآخر لكسب الضرورات البسيطة للحياة. وسبّب هذا ظهور أيديولوجية اسمها «المروءة»، التي أكدت الأهمية الحيوية للشجاعة في المعركة والصبر وتحمل المعاناة، وقبل كل شيء، الإخلاص المطلق والصريح لمصلحة القبيلة وحاجاتها[1]. عبد البدو النجوم والكواكب الثابتة والملائكة وأنواعًا مختلفة من آلهة أدنى شأنًا حسبوها قادرة على التوسط لمصلحتهم أمام «الله العلي»[2]. كان لتعبير «الله العلي» مضامين مميزة لله الذي عبده كل من إبراهيم وملكي صادق كما هو مدوّن في الكتاب المقدس.

ففي مدينة مكة الحجازية انتصبت الكعبة[3]، وهي كتلة ضخمة من الحجارة قيل آنذاك إنها مقر(*) الإله النبطي هُبل. وكانت المركز الموقر للحج السنوي عند رجال القبائل العربية، وخلال مدة هذا الحج، كانت تُحظر جميع العداوات بين القبائل المختلفة. ولذلك كانت مكة مكانًا للتواصل السلمي بين القبائل وتطورت إلى مركز

(1) أرمسترونغ، كارين، تاريخ الله، ص 156ـ157.

(2) الحديث التمهيدي لجورج سيل استُعمل مقدمة في ترجمته للقرآن الكريم.

(3) أرمسترونغ، كارين، تاريخ الله، ص 159.

(*) كان هبل ينصب إلى جوانبها، ولم تكن هي مقرًا له. [المترجم].



مزدهر للتجارة، وأصبحت محورًا لسلسلة من طرق القوافل المتجهة إلى يثرب القريبة وإلى وجهات أبعد مثل مصر واليمن وسوريا[1]. وعلى أيّة حال، وباستثناء الصلات التجارية مع مكة ويثرب واليمن، كانت حضارات بيزنطة وبلاد فارس والعراق وسوريا وفلسطين ترى أن الجزيرة العربية مكانًا غير متمدن ولكن بعد تحسنها بنمو هذه الأراضي وقوتها، بدأت درجة من الحياة الفكرية والروحية التي نشأت عن كل من اليهود والمسيحيين على حدّ سواء بالتأثير في الشعوب العربية[2].

قبل قرون هربت أسر يهودية عديدة إلى الجزيرة العربية واستقرت هناك بعد سقوط القدس عام 70 ميلادي؛ ولاحقًا انضم إلى هؤلاء المستوطنين الأوائل هاربون آخرون من يهودا بعد إخفاق ثورة بار كوخبا عام 135 ميلادي. ومع استيعابهم ضمن أسلوب الحياة العربي، في الأمور الخارجية على الأقل، وعيشهم في بيئة تعبد بشكل رئيس أكثر من إله، حافظوا مع هذا على معظم ثقافتهم، وظلوا صامدين تمامًا في دينهم وثابتين ليس في توحيدهم فحسب بل وفي المعرفة الراسخة والمؤكدة أيضًا بأنهم الشعب المختار.

في زمن ولادة محمد عام 570 ميلادي أو حوالي ذلك، كان ثمة قبائل يهودية تعيش في فَدَكْ، شمالي مكة[3]؛ وكان ثمة يهود أكثر يعيشون في وادي القُرى وتيماء[4]، ومجتمع خيبر اليهودي الذي استقر على بعد نحو 100 كيلومتر شمالي يثرب. كان حوالي نصف سكان يثرب، المدينة المنورة الآن، من اليهود، ومنهم قبائل بني النضير وقريظة وقينقاع وأحفاد المعمادوت، العائلات الكهنوتية الوراثية العالية في القدس، المعروفة الآن باسم كاهينان[5]. بالإضافة إلى هذه الصلات العائلية المباشرة مع التعاليم الحقيقية للمسيح، كانت ثمَّة أنواع مختلفة من الكتابات المنحولة المتعلقة بيعقوب العادل والمتشددين والمنتشرة بين اليهود والمسيحيين معًا في الجزيرة العربية[6]. وبالمقارنة مع هذه المجتمعات اليهودية الراسخة جيدًا، كانت عدة قبائل شمالية على المنطقة

---

(1) **موسوعة لاروس للتاريخ القديم وتاريخ العصور الوسطى**، ص 260.

(2) هاتشتاين، ماركوس ودليوس، بيتر (تحرير) **الفن والعمارة الإسلاميان**، ص 12.

(3) أرمسترونغ، كارين، **تاريخ الله**، ص 159.

(4) بينهارت، تشيم، **أطلس التاريخ اليهودي في العصور الوسطى**، ص 19.

(5) المصدر السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(6) والاس ـ ميرفي وهوبكنز، **حراس الحقيقة**.



الحدودية بين الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية قد تحولت إلى المسيحية النسطورية[1] والتي، كما أشرتُ سابقًا، تؤمن بثبات أن المسيح كان رجلًا ونبيًّا ولم يكن إلهًا. وحول مكة ويثرب، كان تأثير المسيحية أقوى، ليست المسيحية المتنوعة المؤيدة لبولس على أية حال، بل تلك الهرطقة المؤمنة بأحادية الطبيعة التي علّمت بأنه يوجد في شخص المسيح طبيعة بشرية واحدة فقط[2].

في حوالي عام 610 مرّ تاجر عربي من مدينة مكة المزدهرة في الحجاز بتجربة روحية عميقة. في كل سنة، كان التاجر محمد بن عبد الله من قبيلة قريش، يأخذ عائلته ويذهب إلى جبل حراء خارج مكة خلال شهر رمضان، وهو تقليد معروف بين عرب شبه الجزيرة. كان محمد يمضي هذا الوقت من الانعزال الروحي وهو يصلي لرب العرب الأعلى، الله، ويوزع الطعام والصدقات على الفقراء الذين يأتون لزيارته خلال هذه الفترة المقدسة[3]. وعلى غرار أغلب مواطنيه، آمن محمد أن الرب، الإله الأعلى في العبادة العربية، الذي يعني اسمه ببساطة «الله»، هو الإله المماثل للذي يعبده اليهود والمسيحيون. وكان العرب مدركين بشكل غير مريح أن الله لم يسبق أن أرسل إليهم نبيًّا أو كتابًا مقدسًا خاصًّا بهم، على الرغم من حقيقة أنه كان له مقامه المقدس في وسطهم منذ زمن سحيق. وعلى الرغم من أن الكعبة، المقام المكعب الضخم في قلب مكة التي تعود بشكل واضح إلى العصر القديم العظيم، كانت مخصصة لعبادة الإله النبطي هُبل، فقد بدأ أغلب العرب مع حلول القرن السابع الاعتقاد أنها كانت مكرسة أصلًا لعبادة الله[4].

يروي محمد أنه أوقظ قسرًا من نومه في ليلة السابع عشر من رمضان عام 610 ميلادي، وشعر فورًا بأنه محوط بحضور قدسي. وبعد وقت طويل حين وصف هذه التجربة التي تفوق الخيال، روى أن ملاكًا ظهر له وأعطاه أمرًا مقتضبًا: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾! ومثل الأنبياء العبريين في العصر القديم الذين كانوا يمتنعون غالبًا عن لفظ كلمة الله رفض محمد واحتج، «ما أنا بقارئ!» وبالنسبة إليه، كما هو الأمر بالنسبة إلى غالبية عرب ذلك

---

(1) أرمسترونغ، كارين، **تاريخ الله**، ص 159.

(2) هاتشتاين، ماركوس ودليوس، بيتر (تحرير)، **الفن والعمارة الإسلاميان**، ص 12.

(3) أرمسترونغ، كارين، **تاريخ الله**، ص 155.

(4) أرمسترونغ، كارين، المصدر السابق نفسه، ص 158ـ159.



العصر، كان القارئ كاهنًا، منجّمًا منتشيًا يزعم قراءة وحي مُلهَم. ولكن عندئذ، كما ذكر محمد، ضمّه الملاك بعناق شديد مرة أخرى، وبقوة شعر معها وكأن أنفاسه كلها اعتُصرت من جسده. وحالما أدرك أنه لا يستطيع تحمل هذا العناق القوي بعد، أطلق الملاك سراحه وأمره ثانية ﴿ٱقۡرَأۡ﴾! ومرة أخرى رفض محمد وعانقه الملاك مرة ثالثة، واعتصره حتى شعر أنه وصل إلى أقصى حدود تحمله. عندئذ، وفي نهاية هذا العناق الثالث المرعب، سمع محمد الكلمات الأولى من كتاب مقدس جديد تتدفق من فمه[1]:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ * ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ * ٱلَّذِي عَلَّمَ [الإنسان][*] بِٱلۡقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾[2].

استعاد محمد وعيه فورًا، وبدا مرعوبًا وأسرع من الكهف بهدف رمي نفسه من الجبل ليموت. وقبل أن يستطيع عمل ذلك، على أية حال، سمع صوتًا من السماء يصيح: «يا محمد! أنت رسول الله وأنا جبريل»[3]. ثم شعر محمد، وفقًا للمؤلفة الإنكليزية كارين أرمسترونغ، «بتلك الخشية الطاغية للحقيقة الروحية التي دعاها الأنبياء العبريون كادوش، أي القدسية، الشكل المختلف المرعب لله»[4].

على أية حال، خلافًا لأنبياء إسرائيل التوراتية، لم يكن لمحمد تقليد ديني يحفظه في هذه المرة من الأزمة والارتباك الروحيين، ولا تاريخ ماض من الكتاب المقدس الديني لوضع هذه الأحداث الغريبة في أي شكل من السياق المفهوم. انطلق مرعوبًا ليرتمي بين ذراعي زوجته التي اقترحت أن يستشير ابن عمها، ورقة بن نوفل. كان ورقة، وهو مثقف مسيحي يتقن الكتب المقدسة، غير مرتاب بالنسبة إلى حقيقة ما حدث آنذاك؛ لقد تلقى محمد فعلًا وحيًا حقيقيًّا من الله. وكان رب إبراهيم وموسى والأنبياء قد اختار الآن محمدًا رسولًا لله ومبعوثًا إلهيًّا إلى الشعب العربي.

---

(1) أرمسترونغ، كارين، **تاريخ الله**، ص 160ـ161.

(*) يضيف المؤلف كلمة [الإنسان] بغية توضيح معنى الآية الكريمة على طريقة الباحثين بوضع الكلمات المضافة بين أقواس مستطيلة، دلالة أنها منهم وليست من أساس النص. [المترجم]

(2) **القرآن الكريم**، السورة 96، الآيات: 1 ـ 5 (ترجمة محمد أسد الذي أضاف الكلمة داخل الأقواس المربعة للتوضيح في الإنكليزية).

(3) **سيرة ابن إسحاق** 153، **في حياة محمد**، (ترجمة غيلوم).

(4) أرمسترونغ، كارين، **تاريخ الله**، ص 162.



سرعان ما أصبح النبي، الذي عانى من فترات شك بالذات بعد تجارب رؤاه الأولى، مقتنعًا بالحقيقة الفطرية للإيحاءات التي مُنحت له و«عرف» أنه أصبح فعلًا «رسول الله» وفق التقليد المقدس لإبراهيم وموسى وإيليّا ويوحنا المعمدان والمسيح(1). بالإضافة إلى ذلك، وعلى الرغم من حقيقة أن هذا كان أول وحي إلى الشعب العربي، لم يعتبر محمد نفسه مؤسسًا لدين جديد أكثر مما فعل المسيح قبله. كان مقتنعًا أنه يستعيد التوحيد الحقيقي الوحيد الذي وُجد منذ العصور القديمة، وأنه كان ببساطة الأخير في سلسلة طويلة من الأنبياء الذين آمنوا بدين «الله الحقيقي الواحد» نفسه. وفي الحقيقة، لقد عَدَّ نفسه «خاتم الأنبياء(*)» ووفقًا للنبي، كانت الحقيقة الوحيدة قد تجلت لكل من اليهود والمسيحيين لكنهم إما حرّفوا الرسالة أو تجاهلوها(2).

القرآن الكريم

في وقت لاحق، أملى محمد هذه الـرؤى(**) على كُتّاب سجلوها باسم القرآن الكريم الذي يوصي، في سوره، بتوحيد نقي وغير مشوب عبر أوامر جميلة لكنها مبسَّطة للإذعان لإرادة الله. وعندما يرى المرء أن محمدًا نفسه اعتقد أنه يعيد ترسيخ دين ذي قدم عريق، لن يكون من المفاجئ ملاحظة تشابهات وتناظرات قوية بين يهودية المتشددين وتعاليم القرآن. وفي الحقيقة، خلال نزول الوحي، كان لدى محمد تجربة خفية(***) عميقة انتقل فيها بطريقة سحرية إلى القدس ثم صعد عبر السماوات السبع. ومهما كانت الحقيقة التي تكمن في أي من هذه المفاهيم، فإن الحقيقة المسلّم بها تبقى، مع ذلك، إنه أيًا يكن عدد المرات التي اختارها الله لكشف إرادته للبشرية، حين يكون هذا الوحي

---

(1) هاتشتاين، ماركوس ودليوس، بيتر (تحرير)، الفن والعمارة الإسلاميان، ص 14.

(*) والحق أن النّبي محمّدًا ﷺ لا يعدُّ نفسه خاتم الأنبياء من تلقاء نفسه، ولكن حقيقة كونه خاتم النّبيين وردت في أصل رسالة دين الإسلام، أي إن هذه الحقيقة لا تؤكدها مواقف شخصية بل العقيدة الإسلامية نفسها ومسيرة التاريخ، ودلالة النص القرآني في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب : 40]. [المترجم].

(2) والاس ـ ميرفي وهوبكنز، حراس الحقيقة.

(**) ليس ما سجّله كُتّاب الوحي رؤى وأحلامًا، وإنما كان قرآنًا ينزل به جبريل على النبي ﷺ، فيكتبه من حوله منهم. [المترجم].

(***) لم تكن خفية، بل اتفق رواة الحديث والمؤرخون على سردها مسندة مفصّلة. [المترجم].



حقيقيًا، فإنه سيكون نفسه دائمًا بعد إجراء إضافة مناسبة من أجل الفوارق في كل من اللغة والثقافة.

في مقارنة متميزة مع التوراة، التي قيل في التقليد اليهودي إنه أوحي بها كليًا إلى موسى دفعة واحدة على جبل سيناء، فإن الوحي الجديد أُنزل على محمد، سطرًا بعد سطر وآية بعد آية خلال مدة زمنية طويلة، بلغت نحو 23 سنة بمجملها[1]. كان كل وحي في ذاته تجربة روحية مؤلمة جدًّا. وفي السنوات اللاحقة اعترف النبي أنه: «ما من مرة تلقيت فيها وحيًا دون أن أشعر بأن روحي تُنتزع مني»[2]. وكان معنى الوحي واضحًا جدًّا أحيانًا ومبهمًا إبهامًا شديدًا في أحيان أخرى. وقال: «أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال»[3]. خلال هذه الجلسات كان محمد يمر في حالة غيبوبة، ويعرق عرقًا غزيرًا حتى في أبرد الأيام، واضعًا رأسه بين ركبتيه. استمر الوحي، وشيئًا فشيئًا تطور القرآن بأسلوب كان فريدًا في كتب التأريخ الديني. وحالما يوحى بكل جزء، كان محمد، الذي لا يعرف القراءة أو الكتابة، يقرؤه بصوت مرتفع كي يتمكن من حفظه عن ظهر قلب ثم يجري تدوينه لاحقًا.

بعد بضع سنوات من نزول الوحي، بدأ محمد يدعو أبناء قبيلته قريش في مكة، لأنه اعتقد في البداية أن هؤلاء هم الوحيدون الذين يحمل رسالة إليهم[4] وظن أن من واجبه تحذير قريش من أخطار حالتهم المادية. وتشجع آيات القرآن الأولى أبناء قبيلة محمد كلهم كي يدركوا رحمة الله ويعرفوا أن ثروتهم وازدهارهم الجديدين يعتمدان كليًا على فضل الله. وذكّر الوحي رجال القبيلة هؤلاء بأن نجاحهم المادي الحالي اعتمد كليًا على الاحترام الذي تكنّه القبائل البدوية للكعبة وأن الكعبة ـبدورهاـ كانت هبة من الله. وإذا أخفقوا في عكس صورة إحسان الله إليهم بتصرفاتهم نحو الآخرين، فلن يكونوا على اتفاق مع الأمر الإلهي حول الحياة. وبالنسبة إلى محمد، لم يكن الملحد شخصًا رفض الإيمان بالله، بل كان شخصًا عرف ما يدين به لله ورفض أن يكون ممتنًا له بشكل حقيقي.

---

(1) أرمسترونغ، كارين، **تاريخ الله**، ص 163.
(2) جلال الدين السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن** من كتاب رودنسن، **محمد**، (ترجمة آن كارتر) ص 74.
(3) حديث البخاري مقتبس في لينغ، مارتن، **محمد**، حياته بالاستناد إلى مصادر أقدم، ص 44ـ45.
(4) **القرآن الكريم**، السورة 42، الآية 7.



الإسلام

أمر النبي أنه على المسلمين الجدد الركوع في صلاة طقسية خمس مرات كل يوم، وهذا تعبير خارجي يُظهر الخضوع الداخلي لله. ومع مرور الوقت، أصبح هذا الدين معروفًا باسم الإسلام، وهو شكل من الاستسلام الوجودي لله. وكان المسلم أيًا كان، ذكرًا أو أنثى، سلّم كيانه كله وجسده ونفسه وروحه لخالق الجميع. وقد أشار هذا، بتعبيرات عملية، إلى تأسيس مجتمع تقي وعادل ومنصف يُعامَل فيه الفقراء والمرضى والضعفاء باحترام وتقدير. ووفق معايير الإسلام، من الخطأ تجميع الثروة بقصد الإثراء ولكن يحسن أن يتشارك المرء بنسبة معقولة من ثروته مع الفقراء. وقد أصبحت قاعدتا الصدقة، أو «الزكاة»، و«الصلاة» ركنين من الأركان الأساسية الخمسة في الإسلام. وكان الصوم الطقسي خلال شهر رمضان، في البداية، مسألة نكران ذات طوعي موصى به ولكن بعد مدة أصبح هذا أيضًا أحد «أركان الإسلام» الإلزامية[1].

كان التخمين الديني من أي نوع مرفوضًا لأنه «ظنّ»، أو تقدير ظني متساهل ذاتيًا حول أمور ستكون إلى الأبد فوق مستوى فهم أي إنسان عادي. كان هذا المفهوم مختلفًا بشكل ملحوظ عن الممارسة داخل المسيحية التي أعلنت بقوة آراء الكنيسة حول أمور دينية غامضة مثل «الثالوث المقدس» أو «التجسيد» ثم تابعت اضطهاد أي شخص بلغت به الجرأة حدّ مخالفة تصريحاتها الرسمية. وكان للإسلام أمور مشتركة أكثر بكثير مع اليهودية، حيث يفسَّر ميثاق الله مع شعبه بإلزام أخلاقي، ودعوة إلهية إلى أعمال الخير والسلوك المتسامح.

تعلم سور القرآن المسلمين رؤية الله في «دلائل» الطبيعة؛ ويحثّ القرآن جميع المؤمنين الحقيقيين على النظر إلى العالم على أنه مظهر مستمر؛ مظهر يجب عليهم فيه أن يكونوا واعين على نحو دائم كي يدركوا الحقيقة الإلهية الغامضة والقدسية التي توحد كل شيء في العالم المعقد والمتنوع الذي خلقه الله. وقد أمر الكتاب المقدس الجديد المسلمين باستخدام قوتهم العقلية التي منحها الله لهم لتفسير هذه «الدلائل» أو الرسائل الإلهية، وهو أمر ألهم جميع المسلمين بموقف سليم تجاه كل من السعي والفضول الفكريين؛ أمر أدى إلى تطوير رائع في دراسة علم الطبيعة الذي كان متفقًا كليًا مع إرادة الله. كان هذا على نقيض حاد مع ارتياب الكنيسة المسيحية الفطري تجاه

(1) هاتشتاين، ماركوس ودليوس، بيتر (تحرير) **الفن والعمارة الإسلاميان**، ص 23.



المغامرة والتأمل الفكريين مما أدى في النهاية إلى إدراك أن العلم كان خطرًا على الدين المسيحي.

تصف غالبية سير حياة النبي المبكرة برهبة الصدمة والإحساس بالاستغراب الفائق الذي شعر بهما أتباعه الأوائل عند سماع تلاوة القرآن للمرة الأولى. وكثيرًا ما يشبه الذين أسلموا هذه الأحداث بغزو إلهي لأرواحهم، غزو استخرج الحنين المدفون عميقًا، وأطلق بالنتيجة مشاعر روحية عميقة مكبوتة. وكان الكثيرون قد أسلموا فورًا وقالوا إن الله نفسه فقط يمكن أن يكون خالق هذا الجمال الاستثنائي للغة. وذُكر أن أحد شبان قريش، وهو عمر بن الخطاب، قال، «حينما سمعت القرآن، رق قلبي وبكيت ودخل الإسلام قلبي»[1]. وتقول المؤرخة الإنكليزية في أمور الدين، كارين أرمسترونغ إنه «من دون تجربة القرآن هذه لم يكن من المحتمل على الإطلاق أن يرسخ الإسلام»[2].

رسالة محمد

دعا محمد إلى الدين في مكة، محذرًا المواطنين من اللامبالاة الاجتماعية وأخطار ماديتهم الجديدة. كذلك عارض بعنف الإشراك السائد بالله الذي ظن الناس أن ثروتهم الجديدة اعتمدت عليه[3]. ومنذ ذلك الحين فصاعدًا، كان «ركن الإسلام» الأول سيصبح الشهادة، أي المجاهرة بالإيمان: «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله»[4]. وقد هدد هذا أساس ثروة مكة وتجارتها، ونتيجة ذلك أُجبر النبي مع مجموعة أتباعه الصغيرة على الانتقال إلى يثرب خوفًا على حياتهم. ويؤشر تاريخ هذا التحرك، أو الهجرة، عام 622 ميلادي بداية التقويم الإسلامي. وسرعان ما أعيدت تسمية يثرب نفسها باسم مدينة النبي، وتُعرف الآن باسم المدينة المنورة[5].

اعتقد محمد أن السكان اليهود الكثيرين في المدينة سيتقبلون رسالته جيدًا. لكن الأمر لم يكن كذلك؛ فبينما كانوا متقبلين في بادئ الأمر، مالوا لاحقًا إلى السخرية منه.

(1) سيرة ابن إسحاق 228، استشهد بها غيلوم (ترجمة) حياة محمد، ص 246.
(2) أرمسترونغ، كارين، تاريخ الله، ص 171.
(3) هاتشتاين، ماركوس ودليوس، بيتر (تحرير) الفن والعمارة الإسلاميان، ص 14.
(4) استشهدت به كارين أرمسترونغ في كتاب، تاريخ الله، ص 176.
(5) موسوعة لاروس للتاريخ القديم وتاريخ العصور الوسطى، ص 261.



وبالنسبة إليهم، كان عصر النبوة قد انتهى منذ زمن طويل ومع استمرار اعتزازهم بتوقعات مجيء المسيح المنتظر، ما من يهودي، أو مسيحي في ذلك الأمر، كان سيحسب أن بإمكان أي شخص، في يومهم وعصرهم، أن يصبح نبيًّا آنذاك وفق تقليد العهد القديم. على أية حال، لم يرفض جميع اليهود محمدًا، فقد كان بعضهم وديًّا وقدم له فكرة عميقة حول الكتب المقدسة اليهودية مما أتاح له التمييز بين اليهودية والمسيحية والبدء بإدراك كيف أضيف الوحي في الكتب المقدسة إلى كل من الدينين بوساطة دراسات الحاخامات والعقيدة المسيحية. وعلى الرغم من رفض العديد من اليهود له، ظل القرآن الكريم مصرًّا على أن جميع أهل الكتاب[1] لم يكونوا على خطأ بالضرورة وأن جميع الأديان، بشكل جوهري، التي استندت إلى وحي من الله كانت واحدة في الواقع. وهكذا لم يتوقع النبي أن يتحول المسيحيون أو اليهود إلى الإسلام، لأنهم كانوا قد تلقوا أيضًا وحيًّا حقيقيًّا من الله. إذ لم يكن وحي القرآن متمسكًا بإلغاء المصادر الدينية السابقة أو التقليل من قيمتها، بل بتأكيدها وإكمالها. لذلك لا يدين الكتاب المقدس الإسلامي المعتقدات الدينية الأخرى بأنها مخطئة أو حتى ناقصة، لكنه، من ناحية أخرى، يشدّد على أن كل نبي قد أكد وحي أسلافه وطور تلك الرؤى وفقًا لإرادة الله[2].

لا يبدأ عالم الإسلام تقويمه منذ بداية الوحي المنزل على النبي، بل منذ تاريخ الهجرة إلى المدينة، لأنه منذ ذلك الوقت فقط بدأ المسلمون بتطبيق خطط الله وجعل الإسلام حقيقة سياسية ودنيوية بالإضافة إلى الروحية عن طريق تحويل القبائل العربية من معتقداتهم الوثنية القديمة إلى الإسلام. يأمر القرآن جميع المسلمين بإيجاد مجتمع عادل وقد أدى أتباع الإسلام الجدد هذا الواجب بجدية كبيرة فعلًا. ولأن محمدًا واجه أعداء في مكة وفي أمكنة أخرى، فقد أمضى السنوات العشر الأخيرة من حياته في صراع ضد قوى مناوئة، ونتيجة ذلك، جعل الناس يسلمون بسرعة خارقة ووسع على نطاق كبير المناطق التي سيطر عليها. وفي نهاية حياته، انضمت غالبية القبائل العربية إليه. وفتح مدينة مكة قبل وفاته بسنتين وفرض الحج، أو زيارة تلك المدينة على أنها الركن الخامس للإسلام. وهو واجب مقدس على كل مسلم القيام به مرة واحدة في حياته على الأقل، إذا سمحت الظروف.

---

(1) أرمسترونغ، كارين، **تاريخ الله**، ص 180.

(2) أرمسترونغ، كارين، المصدر السابق نفسه، ص 177ـ178.



وفاة النبي العظيم

توفي محمد بشكل مفاجئ بعد مرض قصير في شهر يونيو/ حزيران عام 632 ميلادي، من دون تعيين خليفة له. وعلى الرغم من الصدمة، ظل الإسلام ثابتًا؛ لأن محمدًا لم يكن الوسيلة الإلهية المختارة إلهيًا لوحي جديد فحسب، بل وضع نجاحه العسكري أساسًا سياسيًا ودنيويًا متينًا تمكن خلفاؤه من البناء عليه. وخلف النبي أبو بكر الذي حكم بين عامي 632ـ634 ميلادي، وكان مقربًا جدًّا من محمد وعَدّه الكثيرون ذات النبي الثانية. كان هذا هو القائد المسؤول عن ترتيب النسخة المكتوبة الأولى من القرآن الكريم. وهكذا كانت سلطته قوية واستطاع تشكيل ما كان مجموعة ضعيفة الارتباط من القبائل ضمن مجتمع متماسك ومؤمن. وقد اتخذ لقب الخليفة من تلك الكلمة العربية، التي تعني الممثل، كما فعل الآخرون الذين تلوه[1]. وبدوره خلفه أحد أوائل الذين أسلموا على يد النبي، وهو عمر بن الخطاب (634ـ644 ميلادي)، الذي كان رجلًا مشهورًا بتقواه وتواضعه وشجاعته وقوة إرادته. ومع قادته خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وسعد بن أبي وقاص، يمكن النظر إلى الخليفة الجديد بوصفه المؤسس الحقيقي للإمبراطورية الإسلامية. وقد منحه نجاحه في الحرب سلطة واسعة على زعماء القبائل العربية المتكبرين وكانت فطنته السياسية بلا حدود كما يظهر. وعزز عمر قبضة الإسلام على المناطق المفتوحة بوساطة مجموعة متنوعة من الإصلاحات التي تضمنت توزيع الأرض، وخطة للمعاش التقاعدي، وضرائب على الذمّيين (ضريبة ثابتة على غير المسلمين)، وأضاف لقبًا جديدًا إلى لقب الخليفة وهو أمير المؤمنين. وتولى الخلافة بعد عمر رجل مستقيم وتقي للغاية، وهو عثمان بن عفان. ومن المحزن أنه لم يكن إداريًّا بارعًا ولا قائدًا عسكريًّا وقد قُتل في النهاية.

بحلول عام 665 ميلادي، بعد ما يزيد بقليل على 20 سنة من وفاة النبي، امتدت إمبراطورية الإسلام من كابول في الشرق إلى طرابلس في الغرب؛ ومن الشواطئ الجنوبية للجزيرة العربية إلى الجزء الأعظم من تركيا المعاصرة في الشمال. وقد واصلت التوسع حتى امتدت من الساحل الأطلسي في شمال أفريقيا عبر الشرق الأوسط إلى حدود الإمبراطورية الصينية.

(1) هاتشتاين، ماركوس ودليوس، بيتر (تحرير) **الفن والعمارة الإسلاميان**، ص 27.



الفصل السابع

تعزيز الإمبراطورية وتطوير الثقافة الإسلامية

حدث التوسع الأكثر هولًا للإمبراطورية الإسلامية بعد تولي الخليفة الأموي الأول عثمان (644ـ656 ميلادي). تلا عهده بعد ذلك بقليل حكم الخليفة الإمام علي، لكن الأمويين استعادوا السيطرة الحاسمة على الخلافة بعد عام 661. كانت قاعدة سلطتهم سوريا، وأصبحت دمشق عاصمتهم. ثم انتشرت الإمبراطورية بسرعة هائلة نتيجة العبقرية العسكرية للقادة الأمويين والمهارة القتالية العالية لرجال القبائل العرب. على أية حال، بينما تمت هذه المكاسب الإقليمية الواسعة بالسيف من دون شك، فإن انتشار دين الإسلام لم يحدث هكذا. فالشعوب التي خضعت حديثًا وأصبحت تتبع الإسلام بهذه الأعداد الكبيرة جذبها إلى ذلك الدين نقاؤه الروحي وعلاقة رسالته بحياتهم اليومية. كان التحول القسري إلى الإسلام ضد جميع المبادئ الأساسية للاختيار التي أيدها الإسلام. وفي الحقيقة، كان أهل الكتاب، اليهود والمسيحيون والزرادشتيون(*) يُعاملون باحترام وتسامح داخل العالم الإسلامي بحيث أصبحوا بسهولة رعايا طوعيين للخلافة. والسبب لا يصعب فهمه كثيرًا، لأن وضعهم القانوني تحت حكم الإسلام كان أفضل بشكل غير محدود من الوضع الذي قدمه لهم حكامهم السابقون: البيزنطيون في سوريا وفلسطين ومصر، أو الساسانيون في بلاد فارس أو القوط الغربيون في إسبانيا.

(*) لم يفرّق المؤلف بين اليهود والمسيحيين الذين هم أصحاب كتاب سماوي سابق على القرآن، وبين الزرادشتيين الذين ليس لهم كتاب سماوي منزل، وإنما كان كتاب تعاليم دينية وضعها شخص يدعى زرادشت. [المترجم].

مكتبة الفكر الجديد

حدث تقسيم المسلمين بين سنّة وشيعة في وقت مبكر؛ ويرى السنّة أن الخلفاء الأربعة الأوائل هم «الخلفاء الأربعة الراشدون» بينما يرى الشيعة أن الثلاثة الأوائل مغتصبون ويتهمون الخليفة عثمان، الخليفة الثالث، بمحاباة الأقارب وسوء الائتمان على أموال الدولة. ويَعد الشيعة الخليفة الرابع الإمام عليًّا (ابن عم النبي وصهره) وأحفاده أئمة معصومين (قادة مجتمع المؤمنين) وينظرون إليهم باحترام على غرار النبي نفسه تقريبًا. على أية حال، خلافًا للشقاق اللاحق داخل المسيحية، كانت النزاعات التي حدثت بين السنّة والشيعة تدور كلها تقريبًا حول السلطة والأرض وليس حول اختلافاتهم الدينية.

تحت الحكم الخيّر للإسلام، كان اليهود، الذين لم يلقوا غالبًا أي تسامح تقريبًا في السابق، قد وجدوا أنفسهم آنذاك محميين، واكتسبوا حرية دينية وأمنًا جسديًّا وتحررًا اقتصاديًّا وتمتعوا بدرجة متميزة من الحكم الذاتي لمجتمعاتهم. لذلك تقبلوا طوعًا، هم والمجتمعات المسيحية العديدة والكبيرة، سادتهم المستوطنين الجدد. وفي الحقيقة، تزعم بعض التقاليد أن بلدتي قيصرية والخليل سلمهما سكانهما اليهود إلى الجيوش الإسلامية. وبالنسبة إلى الشعب اليهودي، ربما كانت أعظم هدية تلقاها من فاتحيه الجدد هي حقيقة أن الحظر الذي طال قرونًا على استقرار اليهود في القدس، الذي فرضه الرومان أولًا واستمر فيه البيزنطيون المسيحيون، قد رُفِعَ أخيرًا وكانت عدة عائلات قادرة على العودة للعيش في المدينة المقدسة[1].

الملاجئ اليهودية داخل الإمبراطورية الإسلامية

كان أكبر تركيز لليهود في الإمبراطورية الجديدة سيوجد في العراق وإيران. وقبل الغزو الإسلامي كان اليهود هناك خصوصًا يعامَلون بشكل سيئ لذا أصبحوا مسرورين جدًّا أيضًا بوضعهم القانوني الجديد، ومبتهجين بالروابط التي استطاعوا آنذاك إقامتها والمحافظة عليها مع المجتمعات اليهودية الأخرى في جميع أنحاء الإمبراطورية. وتؤكد التقاليد اليهودية البعيدة المدى من مصادر متنوعة العلاقات الممتازة التي تشكلت بين الخلفاء والقادة الأمويين الأوائل وهذه المجتمعات[2].

---

(1) برناوي، علي (تحرير)، **أطلس تاريخي للشعب اليهودي**، ص 80.

(2) برناوي، علي (تحرير)، المصدر السابق نفسه، والصفحة نفسها.



على أية حال، كانت توجد بعض القيود، لأن القوانين أصرت على أن الكنائس ومعابد اليهود لا يمكن بناؤها أعلى من المسجد المحلي. بالإضافة إلى ذلك، لم تكن منازل المسلمين ستُبنى أخفض من منازل جيرانهم غير المسلمين. وكانت القيود مفروضة أيضًا لمنع الزيجات المختلطة والعلاقات الجنسية بين المسلمين. وقد طُبق عقاب جدي على الاتصال الجنسي بين أفراد المعتقدات الدينية المختلفة، كما جرى تحريم الزيجات المختلطة بصرامة إلا حين يتحول الشريك غير المسلم إلى الإسلام[1].

كان لإنشاء الإمبراطورية الإسلامية الجديدة بعض التأثيرات المهمة في الهيكل الاقتصادي للشعوب التي فُتحت بلدانها. ففي فلسطين خلال القرن السابع، مثلًا، كما في جميع أنحاء غالبية الشرق، كان الاقتصاد اليهودي زراعيًا بشكل أساسي. وأدت الضريبة على الذمّيين، ضريبة الرأس والأرض الجديدة، التي فرضها الفاتحون العرب، بالعديد من اليهود إلى مغادرة الأرض والبحث عن ثروتهم في عالم التجارة البعيد الأكثر ربحًا[2]. ومع نهاية القرن الثامن نجمت عن هذا أهمية متزايدة لليهود في جميع القوافل التي تصل الشرق بالغرب. وكان للتجار اليهود بعض التفوق الحقيقي على شعوب الأديان الأخرى: فقد عملوا تحت قاعدة موحدة قانونيًا، مستفيدين من وجود مجتمعات يهودية داعمة أقامت بشكل استراتيجي على امتداد طرق التجارة، وقبل كل شيء، كانت لديهم إجادة عالية للغتين العالميتين الأساسيتين، العربية والعبرية. وغدا هؤلاء التجار اليهود عوامل ثقافية مهمة، في نقل تعاليم مدرستهم الدينية، أو اليشيفا، في بغداد إلى جميع مجتمعات الشتات والمساهمة في سلطتها المتنامية[3]. وفي الحقيقة كانت الإمبراطورية الإسلامية وسيلة مهمة جلبت درجة عالية من التوحيد للمجتمعات اليهودية في جميع أنحاء الشتات[4]؛ وسيلة أكدت أن الغالبية العظمى من المستوطنات اليهودية المبعثرة في جميع أنحاء العالم، التي يزعم بعضهم أنها بحدود 90 بالمئة، كانت موحدة آنذاك تحت حكم دولة سياسية واحدة. وفي الحقيقة، إن تأسيس عاصمة الدولة

(1) بينهارت، تشيم، **أطلس اليهودية في العصور الوسطى**، ص 21.
(2) برناوي، علي (تحرير)، **أطلس تاريخي للشعب اليهودي**، ص 81.
(3) المصدر السابق نفسه، ص 82.
(4) المصدر السابق نفسه، ص 86.



العباسية في بغداد، وهو ما سأفصله لاحقًا، أكد أن أكبر المجتمعات اليهودية وأغناها كان دائمًا قريبًا من مقر السلطة السياسية الحقيقية[1].

التسامح والانشقاق

في دول العراق وسوريا ومصر ذات الأغلبية المسيحية، أدى مجيء الإسلام إلى منح الحرية الدينية مما وضع حدًّا للتزمت البيزنطي لدى العديد مما يُدعى بطوائف الهرطقة. وسرعان ما نجم عن هذا ولادة كنائس الأقليات، وإعادة بناء العديد من الأديرة، وأدى في النهاية إلى توظيف الكثير من المسيحيين المؤمنين بأحادية طبيعة المسيح داخل إدارات الدولة الجديدة[2]. وكانت بغداد لمدة طويلة مدينة مسيحية مهمة وكانت مقرًّا للبطريرك النسطوري واحتوت على أديرة تعود إلى السلطات الدينية النسطورية واليعقوبية والمليكية. وكانت أيضًا، كما ورد ذكره سابقًا، العاصمة الثقافية لليهودية بمدارسها التلمودية ومقر وجود محكمة المنفيين[3].

تطورت حكومة الإمبراطورية في الخلافة الأموية ضمن جو من النزاع المستمر، السياسي والأيديولوجي والعائلي، مما أوجد فئات متصارعة بين الشعوب العربية. كذلك كانت تطوقها صعوبة إيجاد حلول لمشكلات السلطة المستمرة داخل المجتمع الإسلامي الأوسع: العلاقات بين الفاتحين وسكان المناطق المفتوحة، وإيجاد مجموعة من القوانين والأنظمة التي ستتيح لها سيطرة فعالة على كامل العالم الإسلامي الذي تضخم آنذاك نتيجة الفتح إلى أبعاد واسعة تشبه أبعاد أية إمبراطورية في العصر القديم[4].

كانت وحدة الشعوب المتباينة في هذه الإمبراطورية الواسعة والمتنامية قد تحسنت نتيجة عوامل متنوعة، نشأ أهمها عن إيمانها بالإسلام الذي ساعدته عوامل أخرى نجمت عن المهارة السياسية الفطرية للخلفاء ومستشاريهم. وكان من الممكن إيجاد القاعدة الأساسية للاتحاد في المبادئ التي هي أساس الإسلام نفسه: «لا إله إلا الله؛ وحده لا شريك له، ومحمد رسول الله»؛ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ

(1) دي لانج، نيكولاس، **أطلس العالم اليهودي**، ص 39.
(2) فوسيير، روبرت (تحرير)، **تاريخ كمبردج المصوّر للعصور الوسطى**، ص 204.
(3) المصدر السابق نفسه، ص 246.
(4) المصدر السابق نفسه، ص 195.



يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[1]. وقد استخدم الخليفة عبد الملك (685-705 ميلادي) هذه النقوش على أول عملة موحدة أصدرتها الإمبراطورية عام 695 ميلادي[2]. وكانت هذه العملة، المؤلفة من الدينار الذهبي والدرهم الفضي، عاملًا آخر في الوحدة المتنامية التي تطورت بين شعوب المناطق المفتوحة في الإمبراطورية. وقد يسّرت التجارة البعيدة المدى، وسهّلت جباية الضرائب وجلبت في سياقها ازدهارًا تجاريًّا متزايدًا.

اتّحدت هذه المجموعة الواسعة من الشعوب أكثر نتيجة اللغة المشتركة، فالقرآن الكريم تتوجب قراءته أو تلاوته بشكله الأصلي، لذلك كان على المسلمين الجدد أن يتعلموا اللغة العربية. أدى هذا إلى تزايد سريع في معرفة القراءة والكتابة، كذلك أمر القرآن المسلمين بالبحث عن دلائل خلق الله في العالم، وبتشجيع علوم الطبيعة. لذلك اكتسبت إمبراطورية الإسلام بسرعة درجة من التطور والتعلم لم يكن من الممكن مجاراتها، ناهيك عن التفوق عليها، من الغرب المسيحي طوال تسعة قرون تقريبًا. وتحت حكم الأمويين، واصلت الجيوش العربية توسيع الحدود الإقليمية للخلافة، وفي عام 711، تحت إمرة القائد طارق، عبر مسلمو شمال أفريقيا مضيق جبل طارق بينما عبر آخرون نهر السند في الوقت نفسه تقريبًا، ناقلين الإسلام بذلك إلى كل من إسبانيا والهند[3].

التزاحم على المواقع

مالت الحرية الفكرية التي كانت أساسية جدًّا في المثل العليا الإسلامية إلى توليد اتجاه من العقائد الفلسفية والسياسية التي كانت بعيدة عن استحسان الأمويين. كان العديد من المسلمين المؤمنين الذين شددوا على منعة الله ووحدانيته، معارضين بعنف لعدم أخلاقية حكامهم الأمويين، وبتأكيدهم المسؤولية المفروضة إلهيًّا لإيجاد «حكومة صالحة» تتفق مع تعاليم القرآن الكريم، بدؤوا بالدعوة إلى تمرد ضد الحكام من الذين تمّ النظر إليهم بوصفهم ظالمين وغير أخلاقيين[4]. وهكذا كانت الإمبراطورية العربية الممتدة كثيرًا تتحول آنذاك إلى ضحية لأشكال متنوعة من الوطنية الملتهبة والاستياء

(1) **القرآن الكريم**، سورة الإخلاص.

(2) فوسيير، روبرت (تحرير)، **تاريخ كمبردج المصوّر للعصور الوسطى**، ص 203.

(3) هاتشتاين، ماركوس ودليوس، بيتر (تحرير)، **الفن والعمارة الإسلاميان**، ص 60.

(4) فوسيير، روبرت (تحرير)، **تاريخ كمبردج المصوّر للعصور الوسطى**، ص 194.



المحلي الناجمين عن إيمان عميق وثابت؛ وكانت مزيجًا مندفعًا حيث سعى عدد متزايد من العرب للتخلص من المستويات العالية للضرائب التي دعمت الخلافة واستعادةِ نوعٍ من الاستقلال السياسي.

أتاحت هذه الظروف لشخص اسمه أبو العباس (749ـ754 ميلادي) استغلال قرابته من النبي وجمع فئة من الساخطين حوله في الشرق. ضمت هذه المجموعة المتنوعة جنودًا فارسيين ومالكي أراض إيرانيين مرهقين من الضريبة العالية ومؤمنين مخلصين فانتقدوا الأمويين على سفك دماء المسلمين(1). ويمكن تتبع أصول العائلة العباسية إلى العباس بن عبد المطلب بن هاشم، عم النبي. كان تأكيد النسب هذا إلى عم النبي صلة أقرب وأكثر شرعية مما يستطيع الأمويون تأسيسه، وكان مبدأ الوراثة، الروحي والعائلي معًا، ذا أهمية حيوية في ترسيخ السلطة بين الشعوب القبلية. وهكذا حرض العباسيون على ثورة دموية بتوجيه الاستياء العام من الحكم الأموي، وجمع الدعم من مجموعات متباينة. قُتل الخليفة الأموي المُسنّ، مروان الثاني، قرب الموصل عام 751 ميلادي وبدأ أبو العباس عهده بذبح أفراد العائلة الأموية الباقين(2).

على أية حال، لم يكن كل شيء قد ضاع بالنسبة إلى الأمويين، فقد وجد الجنود السوريون المرسلون بين البربر أمويًا، هو عبد الرحمن، الذي نجا من مذبحة عام 750 بأعجوبة، ورحبوا به منقذًا لهم، وعبروا مضيق جبل طارق معه. وبرفقة عبده المحرر، بدر، دخل سليل العائلة الأموية هذا قرطبة عام 756 وأعلن إعادة سلالته العائلية واتخذ لقب الأمير عبد الرحمن الأول وحكم بين الأعوام 756ـ788(3).

تأسيس بغداد

نقل العباسيون عاصمتهم من سوريا إلى العراق، لوضع أنفسهم بين مؤيديهم الرئيسين وإبعاد أنفسهم عن النظام القديم. وفي عام 756 ميلادي، بدأ الخليفة المنصور (754ـ775 ميلادي) بناء عاصمته الجديدة، بغداد، التي لم تصبح المركز السياسي للإمبراطورية فحسب بل محور شبكة طرق مهمة للقوافل تربط الشرق والغرب أيضًا. وبوجودها في موقع مشرف على الممرين المائيين الأساسيين في العراق، الفرات

(1) موسوعة لاروس لتاريخ العصور الوسطى، ص 269.
(2) هاتشتاين، ماركوس ودليوس، بيتر (تحرير)، الفن والعمارة الإسلاميان، ص 91.
(3) موسوعة لاروس لتاريخ العصور الوسطى، ص 269.



ودجلة، في منطقة حيث يصلح النهران كلاهما للملاحة إلى البحر، احتفظت بغداد بأهميتها التجارية حتى اكتشف البحارة الأوروبيون، بعد عدة قرون، الطرق البحرية إلى الشرق الأقصى. ولأسباب جرى توضيحها سابقًا، اتخذت العاصمة الجديدة بسرعة مكانة متميزة في العلوم والأدب والفنون كانت ستستمر لزمن طويل بعدما فقدت المدينة سلطتها السياسية(1).

خلال السنوات الأولى من القرن التاسع، أصبحت بغداد المركز السياسي للإمبراطورية العربية الواسعة، ومقر تجار أغنياء وعلماء مثقفين أتوا جميعًا للعيش والازدهار في ظل خلافة متنورة. وتطلع أشخاص من جميع أنحاء العالم الإسلامي إلى بغداد وثقافة العراق من أجل الإلهام الفني. وتحت حكم الخليفة المنصور، وابنه المهدي (775ـ785 ميلادي) ثم حفيده هارون الرشيد (786ـ808 ميلادي) ـخليفة كتاب « ألف ليلة وليلة»(*) ـ ازدهرت موضوعات الدين والقانون والتاريخ والجغرافية والشعر والهندسة المعمارية كما لم يحصل من قبل. وحين أصبح ابن هارون، المأمون (813ـ833 ميلادي) خليفة بعد هزيمة أخيه الأمين، بلغت الإمبراطورية العباسية ذروتها الثقافية. أسس المأمون، وهو رجل متعلم جدًّا بجهوده الشخصية، «بيت العلم»، المعروف خلاف ذلك باسم «بيت الحكمة» كي يحفظ وينشر العلم المتراكم من العصر اليوناني القديم(2). وهكذا أصبحت بغداد مركزًا إمبراطوريًا وثقافيًا حيويًّا كان بلا شك الأكثر تطورًا في العالم المعروف خارج الصين.

الحياة الفكرية

وهكذا كان المسلمون، لا المسيحيون، هم الذين أعادوا إحياء العلوم اليونانية

---

(1) هاتشتاين، ماركوس ودليوس، بيتر (تحرير)، **الفن والعمارة الإسلاميان**، ص 92.

(*) تضفي المخيلة الغربية الكثير من الرومانسية الأسطورية على شخصية الخليفة هارون الرشيد فتجعل منها إحدى الشخصيات الرئيسة التي ترتبط بحكايات «ألف ليلة وليلة». وغالبًا ما تغفل هذه النظرة، عن قصد أو من دون قصد، حقيقة أن هذا الخليفة كان يحج عامًا ويغزو عامًا آخر، وأنه لم يكن قائدًا عسكريًّا قويًّا وذا سحر شخصي فحسب، بل أيضًا حكيمًا ومتلهفًا للمعرفة، يرعى العلوم والآداب والفنون والترجمة، ويقيم علاقات دبلوماسية مع بلدان بعيدة مثل الصين وبلاط شارلمان، وقد بدأ حوارًا مطولًا مع شارلمان وأرسل إليه هدايا لم يُرَ لها مثيل في أوروبا، وأن اهتماماته أدت إلى وضع أساس العصر الذهبي في بغداد. [المترجم]

(2) هاتشتاين، ماركوس ودليوس، بيتر (تحرير)، **الفن والعمارة الإسلاميان**، ص 90.



الكلاسيكية. وكان الرجال المتعلمون في بغداد يعرفون أن العالم كروي، واستطاعوا قياس درجة خط الطول قبل نظرائهم المسيحيين الأوروبيين بعدة قرون. كما أعادوا إحياء علم الفلك الكلداني، وشجعوا الكيميائيين ورجال الطب اليهود وترجموا أعمال جالينوس، طبيب القرن الثاني اليوناني، إلى اللغة العربية. ودرس الطبري، المؤرخ العربي والعالم الديني، عند كتابة مؤلفه «**تاريخ الرسل والملوك**»، طوال أكثر من 15 سنة في المكتبات اليونانية والفارسية التابعة للإمبراطورية الإسلامية. وكانت سمة الفن والهندسة المعمارية الإسلاميين مشهورة إلى درجة أن المهندسين المعماريين وعلماء الرياضيات أتوا من مكان بعيد يبلغ القسطنطينية وسامراء إلى مراكز العلم في الإمبراطورية[1].

في ذلك الوقت، كان الفكر الفارسي متجددًا أيضًا ورغم أن استعاراته وتشبيهاته عربية وإلهامه الغيبي يوناني، فقد صَحَت العبقرية الفارسية المحلية ثانية. وقد كتب الفردوسي (وُلد عام 941 ميلادي)، الشاعر الفارسي، الملحمة الشعرية «**كتاب الملوك**» من 60000 بيت، وهي تاريخ كامل لبلاد فارس. وكانت أسطورة سندباد البحّار التي اكتسبت شعبية في ذلك الوقت فارسية، مثلما كان شعر كُتّاب مثل الأخطل في القرن الثامن وأبي نواس في القرن التاسع، والذي كان لاذعًا أحيانًا، ومتهكمًا غالبًا، وحسيًّا وجنسيًّا كثيرًا، لكنه هزلي دائمًا[2].

في الوقت نفسه، كان من الممكن العثور على ثقافة مزدهرة تتعلق بالتنجيم والفلك والطب في القصور والمراصد والمستشفيات العامة و«بيت الحكمة»، كما تطورت هناك ثقافة شعبية إسلامية كانت نشيطة ومهتمة في آن واحد بالنقاش الفلسفي[3]. وتضمن هذا التطور الإسلامي، بشكل عام، زيادة في العمق وانعكاسًا منطقيًّا على المقومات الأساسية للدين من نوعية لا تزال تمارس تأثيرًا عميقًا في الإسلام حتى يومنا هذا.

خلال النصف الثاني من القرن الثامن، عندما كانت الحضارة الإسلامية في أعلى درجات تطورها، رسخ العباسيون حكمهم الدائم. مع انفصال إسبانيا وأجزاء من

---

(1) **موسوعة لاروس لتاريخ العصور الوسطى**، ص 271.

(2) المصدر السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(3) فوسيير، روبرت (تحرير)، **تاريخ كمبردج المصوّر للعصور الوسطى**، ص 247.



شمال أفريقيا على شكل مناطق نصف مستقلة أو مستقلة، اكتسبت الإمبراطورية صلابة وتماسكًا كانت قد فقدتهما على ما يبدو في التوسع الإقليمي. واستمرت التجارة مع إسبانيا وشمال أفريقيا ولكن، من جهة أخرى، أصبحت الحروب التي شنتها ضد المناطق المسيحية في بيزنطة وأوروبا حروب استعادة هيبة[1].

قلل التوقف المفاجئ لمد الغزو من غنائم الحرب وهكذا كان على العباسيين الاهتمام بالأمور الاقتصادية اليومية للمحافظة على الخدمات الأكثر تعقيدًا للدولة، ومنها الاهتمام الذي صبوه على مصانع الدولة. ولتعزيز هذه الأهداف، أعيد تشكيل صلات تجارية مربحة بين آسيا، وخصوصًا الصين، والبحر المتوسط الذي كان الهدف الأساسي للسلالة الساسانية في بلاد فارس. استغل التجار العرب واليهود طرق القوافل والبحار؛ وتم ربط سمرقند مع كانتون، وكابول مع الغانج، وبليسيوم وبغداد مع الهند وجزر القُمُر. وكانت الحرائر التي اشتُريت من الصينيين يمكن أن توجد في كل مكان من البامير إلى القيروان وحتى بين الأمم المسيحية في أوروبا[2]. على أية حال، كانت التجارة والحرب ضد الدول المسيحية مجرد أمور ثانوية بالمقارنة مع انتشار التنوير إلى أوروبا العصور المظلمة عن طريق ثقافة الإسلام من خلال تلك المنارة الفكرية وذلك النور الروحي، إسبانيا الإسلامية.

---

(1) موسوعة لاروس لتاريخ العصور الوسطى، ص 270.
(2) المصدر السابق نفسه، ص 271.




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الثامن

منارة ضوء للعصور الأوروبية المظلمة
إسبانيا الإسلامية

أثبت العرب المحاربون الذين كانوا القوة الدافعة وراء التوسع السريع للإمبراطورية الإسلامية مهارتهم في بناء السفن والحروب البحرية مثلما كانوا في بناء المدن والقتال على الأرض. وقد شنوا حملات منقولة بحرًا ضد قبرص عام 648؛ وفي عام 655 حازوا نصرًا بحريًّا حاسمًا في «معركة السواري» وبعد أقل من 20 سنة ظهر أسطول إسلامي كبير تحت جدران القسطنطينية في أول عمليات حصار بحري عديدة لتلك المدينة الكبيرة. وقد خاب أملهم في هذه المحاولات المبكرة للاستيلاء على القسطنطينية بسبب السلاح البيزنطي السري، النار الإغريقية، ذلك المزيج الغريب من النفتالين ضد أي سفن خشبية ضعيفة بصفة خاصة[1].على أية حال، وعلى الرغم من إخفاقاتها عند الطرف الشرقي للبحر المتوسط، كانت القوة البحرية والعسكرية لإمبراطورية الإسلام المتنامية ستحرز نصرًا متميزًا بعيدًا باتجاه الغرب حيث البحر في أضيق مناطقه، عند مضيق جبل طارق.

إسبانيا القوط الغربيين

كانت إسبانيا القوطية الغربية في حالة اضطراب سياسي عندما أراد الملك ويتسيا (توفي عام 710 ميلادي) تعزيز سلطته على حساب كل من الكنيسة وطبقة النبلاء، لكنه أُسقط بعنف عام 710 ميلادي. على أية حال، كان عدد من النبلاء معارضين لوريثه، مغتصب الحكم رودريك (توفي عام 711 ميلادي)، كما كانوا بالنسبة إلى ويتسيا

(1) فوسيير، روبرت (تحرير)، تاريخ كمبردج المصوّر للعصور الوسطى، ص 199.

نفسه[1].وعلى الرغم من ذلك من الممكن اقتراح أن التجار البيزنطيين واليهود معًا في إسبانيا ربما طلبوا المساعدة لمقاومة الاضطهاد القوطيّ الغربيّ[2]، فإن موسى بن نصير، حاكم إقليم أفريقيا الإسلامي، الذي ضم شمال أفريقيا والمغرب، اغتنم الفرصة الناجمة عن الفوضى السياسية في إسبانيا للقيام بغزوها. وقد أرسل أكفأ قادته وهو طارق بن زياد، في أبريل/ نيسان عام 711 مع جيش مؤلف من 7000 بربري(*)[3]. نزل طارق عند جبل طارق الذي عُرف باسمه، أو صخرة طارق، واندفع داخل البلاد. وفي حملة خاطفة واجهت مقاومة قليلة استولى على مالقة وغرناطة وقرطبة وبعد ذلك، في 19 يوليو/ تموز عام 711 في معركة ريو باربيت، دمّر طارق الجيش المسيحي بقيادة رودريك(**) الذي قُتل في المعركة. ثم هرب المسيحيون المهزومون المحبطون في حالة من الفوضى إلى الشمال، واحتل طارق مدينة طليطلة الملكية الغنية وغنمها. ودخل موسى نفسه إسبانيا في يونيو/ حزيران برفقته 18000 جندي عربيٍّ وتابع فتح إشبيلية وميريدا قبل الانضمام إلى قوات طارق خارج طليطلة[4]. كانت مقاومة الفتح الإسلامي ضئيلة وغير مؤثرة. وبدت الجيوش المسيحية في فرارها مصابة بالذعر، وكان هذا الفتح السريع جدًّا للجزء الأكبر من إسبانيا بوساطة القوات الإسلامية الذي استغرق سنتين أو ثلاث سنوات على الأكثر فحسب نموذجيًّا في طريقة جمع الجيوش الإسلامية بين التعقل والجرأة[5].

بالنسبة إلى يهود إسبانيا، كان الفتح العربي نعمة من الله. فقد منع القوط الغربيون كل مظاهر اليهودية كما فصلوا الأطفال بقسوة عن آبائهم لتنشئتهم وفق الدين المسيحي. وهكذا لم يرحب اليهود بالمسلمين فحسب بوصفهم منقذين بل تعاونوا بشكل فعال أيضًا مع هؤلاء الغزاة الذين منحوهم مكافأة بترك الدفاع عن بعض البلدات والمدن المفتوحة للحاميات اليهودية. وبعد الغزو الإسلامي، قام عدد من اليهود الذين غادروا

---

(1) هاتشتاين، ماركوس ودليوس، بيتر (تحرير)، **الفن والعمارة الإسلاميان**، ص 208.

(2) هولمز، جورج (تحرير)، **تاريخ أكسفورد المصوّر للعصور الوسطى**، ص 4.

(*) كان منهم ثلاثة آلاف من العرب، ولم يكن جنوده من البربر فحسب، وإلا ما معنى أن يخطب طارق خطبة عصماء بالعربية في قوم بربر؟. [المترجم].

(3) هولمز، جورج (تحرير)، **تاريخ أكسفورد المصوّر للعصور الوسطى**، ص 4.

(**) يُطلق عليه بالعربية اسم (لُذَريق). [المترجم].

(4) هاتشتاين، ماركوس ودليوس، بيتر (تحرير)، **الفن والعمارة الإسلاميان**، ص 208.

(5) فوسيير، روبرت (تحرير)، **تاريخ كمبردج المصوّر للعصور الوسطى**، ص 200.



إسبانيا سابقًا لتفادي اضطهاد القوط الغربيين بالعودة آنذاك من شمال أفريقيا حيث طلبوا اللجوء في السابق[1].

خلال السنوات القليلة اللاحقة، أدت الحدود المتغيرة والمتقلبة باستمرار بين المسيحيين في شمال إسبانيا والمسلمين في جنوبها إلى نشوء مجموعة منوعة من الكيانات الثقافية المستقلة. كان هناك المسلمون الجدد، أو «**المولّدون**»؛ والمسيحيون الذين عاشوا تحت الحكم العربي وباتوا معروفين باسم Mozarabs، من كلمة «مستعرب» العربية، وكذلك، في القرون اللاحقة، المسلمون المقيمون تحت الحكم المسيحي، وأُطلق عليهم اسم The Mudejar(*) أصبحت مناطق إسبانيا الإسلامية بكاملها معروفة باسم «الأندلس»، الاسم المشتق، وفقًا لهاينتس هالم، المؤرخ الألماني في القرن العشرين، من الكلمة القوطية التي تعني «من دون أرض»، landahlutz[2].

الغزوات في أراضي الفرنجة

وسع الفاتحون الجدد مجال نشاطاتهم العسكرية عندما عبروا جبال البيرينه عام 719 ميلادي، وغزوا أجزاء من إمبراطورية الفرنجة وسلبوها. بعد نحو سنة فتحت الجيوش الإسلامية مدينة كركسون ودمرت منطقة على الضفة البعيدة لنهر الرون حتى أوتون في بورغندي. ثم اندفع أحد حكام الأندلس، وهو عبد الرحمن الغافقي، حتى نهر اللوار ونهب مدينة تور. ومع ذلك، في أكتوبر/ تشرين الأول 732، في معركة بواتييه المشهورة، هزمه وقتله جيش للفرنجة بقيادة شارل مارتل (688ـ741 ميلادي)، جد شارلمان، والمعروف فيما بعد باسم شارل المطرقة[3]. كانت معركة بواتييه الحاسمة، التي دعاها المسيحيون لاحقًا «خلاص الغرب»، مجرد معركة واحدة بين معارك كثيرة، لأن النزاعات الحدودية استمرت طوال عدة سنوات وبعد عام 791 استولى المقاتلون المسلمون مرة أخرى على مدينتي كركسون ناربون[4].

في أوائل سنوات الفتح الإسلامي، سببت ندرة الفئة الحاكمة المسلمة فيما يتعلق

(1) برناوي، علي، **أطلس تاريخي للشعب اليهودي**، ص 81.

(*) المسلم الذي يعيش تحت حكم ملك مسيحي. [المترجم].

(2) هاتشتاين، ماركوس ودليوس، بيتر (تحرير)، **الفن والعمارة الإسلاميان**، ص 208.

(3) رافنسكروفت ووالاس ـ ميرفي، **سِمة الوحش**، ص 24.

(4) هاتشتاين، ماركوس ودليوس، بيتر (تحرير)، **الفن والعمارة الإسلاميان**، ص 209.



بالشعوب التي احتلوها مشكلات خطيرة فعليًا للحكام الجدد. فقد تمّ إحضار عدة موجات من المستوطنين والجنود إلى إسبانيا من البلدان الإسلامية للتعويض، ومُنحوا أراضي أُخليت من المسيحيين الذين هربوا إلى الشمال. وقد استقروا بشكل عام وفقًا لجماعاتهم القبلية، مما تبين أنه خطأ فادح أدى إلى غيرة مريرة وصراع بين العشائر، وفي النهاية، إلى حرب أهلية. كان هذا مجرد عامل واحد مهم في حالة سياسية غير مستقرة أصلًا عكست حقيقة أن 19 حاكمًا مختلفًا حكموا قرطبة في السنوات الثلاثين بين الأعوام 716 و747[1]. بدأت الحالة بالوصول إلى حل مع الحاكم يوسف الفهري (747ـ756 ميلادي) الذي عيّن أفرادًا من عائلته في مناصب أساسية في العديد من المدن الكبرى، مرسخًا بذلك الوضع في جميع أنحاء الأندلس. لم يكن لهذا الاستقرار أن يدوم، ومع هذا، فبعد عام 750، طالب العرب الجنوبيون الساخطون الذين كانوا معادين لحكم يوسف بأن يُمنح الأمير عبد الرحمن بن معاوية (756ـ788 ميلادي)، الذي نجا من مذبحة العائلة الأموية بأعجوبة، سلطة مطلقة في جميع أنحاء إسبانيا[2].

نشوء «التخوم» الإسبانية

كان احتمال توسع إسبانيا الإسلامية محدودًا جدًّا في الشرق بسبب سياسي داهية ومحارب رائع من سلالة الملك الإله، وهو شارل الكبير، المعروف خلاف ذلك باسم شارلمان (742ـ814 ميلادي). وقد تولى شارلمان حفيد شارل مارتل العرش أولًا مع أخيه كارلمان. وبعد موت كارلمان، أعاد شارلمان توحيد مملكته المقسمة وبدأ سلسلة من الحروب الناجحة لتوسيعها حتى أصبح، في النهاية، إمبراطورًا رومانيًّا مقدسًا؛ وحكم منطقة امتدت من نهر الدانوب إلى البحر المتوسط. وقام بعدة غزوات إلى إسبانيا الإسلامية ومع إخفاقه في الشمال، استولى في الجنوب على مناطق عدة مهمة تُعرف كلها باسم التخوم الإسبانية التي قامت بدور حصن ضد المزيد من الهجمات الإسلامية شرقًا داخل المنطقة المسيحية. وخلف هذا الخط الدفاعي، عزز قبضة الإمبراطورية على سبتيمانيا، وهي منطقة كانت ذات مرة مقر الفيلق السابع للجيش الروماني، وأصبحت الآن منطقة لانغدوك / روسيليون جنوب غربي فرنسا.

---

(1) هاتشتاين، ماركوس ودليوس، بيتر (تحرير)، **الفن والعمارة الإسلاميان**، ص 208.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 209.



سبتيمانيا اليهودية

قبل مدة قصيرة من الغزو الإسلامي لإسبانيا، كان اليهود الذين هربوا من الاضطهاد الذي فرضه القوط الغربيون قد استقروا في سبتيمانيا. وتوصل هذا المجتمع اليهودي الكبير والناجح في النهاية إلى العيش تحت توجيه الناسي، أو الأمير، الخاص بهم الذي أقرّ تعيينه لأول مرة بيبين القصير، ملك الفرنجة (747ـ768 ميلادي) ووالد شارلمان، بعد الاستيلاء على ناربون عام 759[1]. ربما كان هذا التعيين المقترح لأمير يهودي في أوروبا نوعًا من الامتنان واعترافًا بحقيقة أن يهود ناربون سلموا المدينة إلى الفرنجة مقابل وعد بالحكم الذاتي تحت حكم ملكهم، وهي مسألة سجلتها عدة وثائق عبرية وبابوية[2].

بعد الاستيلاء على ناربون، نُظر إلى يهود سبتيمانيا بوضوح على أنهم مجموعة مميزة جدًّا، وتمّ توزيع الأملاك عليهم بوفرة والتي منحها لهم الملوك الكارولنجيون[3] وقد تأكدت حمايتهم من شارلمان نفسه الذي عرف أين تكمن المصالح التجارية الحقيقية لإمبراطوريته، لأن اليهود، كما ثبت في إمبراطورية الإسلام، كانوا مفاتيح النجاح في التجارة العالمية. ولا يزال يوجد العديد من الصكوك التي تشهد على منح التجار اليهود الحماية والامتيازات[4].

استفاد شارلمان من خدمات يهودي، اسمه إسحاق، بصفة مترجم للسفير الذي أرسله إلى هارون الرشيد، خليفة بغداد، عام 797. ونتيجة لهذه الزيارة الدبلوماسية، جاء الناسي الأول، أو أمير ناربون اليهودي، وهو حاخام اسمه ماخي، من بغداد إلى سبتيمانيا، حيث وهبه شارلمان أملاكًا كبيرة[5]. وكان ثمة سبب آخر، مهم بشكل مماثل، لحماية شارلمان الراسخة لليهود، لأن مؤرخ العصر الكارولنجي، ب. مونز، الذي كتب قبل مدة طويلة من الكشف العام لتقاليد الملك الإله، صرح أن شارلمان زعم أنه من سلالة ملوك إسرائيل التوراتيين. واستنتج مونز أن شارلمان قد دبّر الوضع عن عمد في

---

(1) روث، سيسيل، **تاريخ مختصر للشعب اليهودي**، ص 165ـ166.
(2) زوكرمان، أ. ج.، **إمارة يهودية في فرنسا الإقطاعية 768ـ900**، ص 37.
(3) المصدر السابق نفسه، ص 49.
(4) روث، سيسيل، **تاريخ مختصر للشعب اليهودي**، ص 165.
(5) زوكرمان، أ. ج.، **إمارة يهودية في فرنسا الإقطاعية 768ـ900**، ص 60.



سبتيمانيا لترتيب زواج بين عائلته وعائلة الناسي، الذي انحدر أيضًا من سلالة داود. كان هذا التحالف، الذي تمناه الإمبراطور، يُظهر أن السلالة الكارولنجية تمتلك موافقة قدسية على الحكم[1].

على أية حال، كانت أهم مسؤولية للناسي الجديد ماخير هي قيادة يهود سبتيمانيا وأهل تولوز للدفاع عن الحدود الإسبانية وساحل البحر المتوسط ضد غارات المسلمين الأمويين في إسبانيا وشمال أفريقيا[2]. وهكذا، كان لحافز شارلمان عدة جوانب: كان تجاريًّا وموجهًا نحو التجارة؛ وقد شجع الدراسة اليهودية بالإضافة إلى التجارة؛ لكن الأهم أنه كان يحمل قبل كل شيء عنصرًا دفاعيًّا قويًّا وقدم كذلك فرصة فريدة لاتحاد عائلتين ملكيتين بالزواج، وكلتاهما تزعم الانحدار من عائلة داود. وقد نجحت هذه السلسلة المعقدة من الغايات والأهداف رغم كل التوقعات.

كان أحفاد الناسي، مع استثناء واحد، مؤيدين موالين للسلالة الكارولنجية خلال عهدها الطويل. وقد نما المجتمع اليهودي في ناربون بشكل مطّرد وازدهر حتى جرى طرد اليهود من فرنسا تحت حكم الملك فيليب الجميل عام 1306، وتكشف السجلات أن اليهود احتفظوا بأملاك كثيرة في ناربونيه منذ عهد بيبين القصير حتى منتصف القرن الحادي عشر على الأقل. وفي الحقيقة، لقد كتب المؤرخ اليهودي البارز بنجامين أوف توديلا في وقت متأخر يصل إلى القرن الثاني عشر:

> **ناربون مدينة قديمة في التوراة. ومنها تخرج التوراة إلى جميع البلاد. في ذلك المكان يوجد حكماء وأقطاب وأمراء (ناسيم) على رأسهم ر. كالونيمو... سليل عائلة داود كما تذكر شجرة نسبه. وهو يحمل إرثًا وأملاكًا عقارية [أخرى] من حكام البلاد ولا يمكن لأحد أن يطرده بالقوة[3].**

تشير الأملاك الواسعة التي يملكها اليهود وأميرهم في أثناء مرحلة طردهم إلى أنهم احتلوا جزءًا كبيرًا من الريف والمدينة حتى السنوات الأولى من القرن الرابع عشر[4].

---

(1) زوكرمان، أ. ج.، **إمارة يهودية في فرنسا الإقطاعية 768-900**، ص 34.

(2) زوكرمان، أ. ج.، المصدر السابق نفسه، ص 112.

(3) أدلر، م. ن.، **مخطط رحلة بنجامين أوف توديلا**، ص 459-467.

(4) سيج، ج.، **اليهود التائهون من لانغدوك**، ص 272-293؛ رين، **اليهود التائهون من ناربون**، ص 127-132.

مكتبة الفكر الجديد

وقد أدت حماية شارلمان لليهود، إلى جانب براعته السياسية ومهارته العسكرية العالية وفطنته التجارية، إلى سمعة طيبة متزايدة ومملكة دائمة التوسع. وللمحافظة على النظام داخل عالمه المنتشر، استخدم امتياز العطف الملكي لإحداث أرستقراطية مقاتلة[1]، مكافئًا مؤيديه وأعوانه الموالين بمنحهم الألقاب والأراضي. أوجد شارلمان، داخل الإمبراطورية، أكثر من 600 مقاطعة[2] مما أتاح تنفيذ أوامره بفعالية عالية بوساطة نبلائه المخلصين. من كان الأشخاص الأجدر بالثقة الذين يمكنه تعيينهم في مناصب السلطة هذه؟ **كان الأفراد الآخرون من مجموعة عائلة الملك الإله هم الاختيار الواضح**، خصوصًا في مناطق الخطر المحتمل الأكبر، وهي التخوم أو المناطق الحدودية، التي يحكمها مركيز، وتحت إمرته عدد من النبلاء. وهكذا، في زمن موت شارلمان عام 814، كان معظم أوروبا ـ خصوصًا فرنسا وسبتيمانيا وبروفانس وشمال إيطاليا وسكسونيا ـ تديره طبقة النبلاء من **سلالة الملك الإله**[3].

السلالة الأموية في الأندلس

نزل آخر سليل باق على قيد الحياة من العائلة الأموية المعزولة، وهو الأمير عبد الرحمن الأول، في جنوب إسبانيا عام 755. وفي مايو/ أيار 756، هزم الحاكم يوسف خارج أسوار قرطبة واستولى على العاصمة، لكنه منع جنوده من أي سلب. أقنع هذا العمل الرحيم المدن الأخرى بالخضوع لسلطته وأعلن عبد الرحمن الأول نفسه أميرًا للأندلس (756ـ788 ميلادي). وهكذا وصل إلى السلطة الرجل الوحيد من بين الآخرين كلهم الذي يمكن وصفه فعلًا بالمؤسس الكبير لإسبانيا الإسلامية.

رسخ عبد الرحمن روابط وثيقة بين الأندلس ووطنه السابق في مجالي الثقافة والتجارة، وأولى اهتمامًا خاصًا لتحسين الإنتاج الزراعي بالمسح الدقيق ومد قنوات الري ذات الكفاءة العالية. واستورد السكر والقطن والأرز وأنواع مختلفة من الفاكهة والخضار والتوابل من المشرق ومن جميع أنحاء البلاد، كما جرى بناء مخازن الحبوب

---

(1) فوسيير، روبرت (تحرير)، **العصور الوسطى**، ص 484.
(2) فوسيير، روبرت، المصدر السابق نفسه، ص 426ـ427.
(3) والاس ـ ميرفي وهوبكنز، **حراس الحقيقة**، ص 107.



لتلافي المجاعة التي تحدث في أوقات النقص[1]. وتمّ تشجيع الصناعة بشكل فعال أيضًا، وكان بين أهم المهن في الأندلس تصنيع الحرير والصوف؛ والصباغة وصناعة الجلود في المنطقة المحيطة بقرطبة؛ والأسلحة والفولاذ من طليطلة، بينما أصبحت ألميريا مركزًا للسيراميك[2]. وساهم التقدم التجاري كثيرًا بازدياد استقرار الوضع السياسي.

منذ معركة بواتييه عام 732، كان ثمة انضباط سياسي عام ضعيف في إسبانيا، خصوصًا في الشمال حيث قدمت جبال البيرينه ملاجئ منيعة للساخطين على الحكومة المركزية، وبالنسبة إلى الحكام المحليين، أو الولاة، بدا من الأفضل غالبًا طلب المساعدة من الفرنجة بدل الخضوع لسلطة الأمير الجائرة. لذلك ليس من المدهش معرفة أن الأمر استغرق عقودًا عدة قبل أن يحدث تقبل كامل للأمير الأموي العائد وخلفائه من قادة المُغيرين العرب والسوريين. ومع هذا، وتحت حكم السلالة الأموية، مثّل القرن التاسع ذروة الإنجاز الثقافي ليس في إسبانيا فحسب بل في القارة الأوروبية بكاملها. وقد تأكد نهوض قرطبة على يد عبد الرحمن الثاني (822ـ852 ميلادي)، الذي خصص الكثير من الوقت للأمور الثقافية وبدأ ينشئ في قرطبة الأبنية العامة التي لا تزال مصدر فخر في إسبانيا اليوم. وخلال عهده تمّ تخمين عدد السكان اليهود في غرناطة بأكثر من 5000، لذلك ليس مستغربًا أن المسلمين أطلقوا على المدينة اسم **غرناطة اليهود**، أو مدينة اليهود[3].

كان عبد الرحمن الثالث (912ـ961 ميلادي) قد تولى الحكم بعمر الثانية والعشرين وأخيرًا وحّد المناطق الإسلامية في إسبانيا عندما أعاد غزو إشبيلية وميريدا وطرد قبيلة حصفون المنافسة من الأندلس. ومع استغلال الضعف السياسي في الأراضي المسيحية، عقد معاهدة حماية مع مملكتي ليون ونافار اللتين اعترفتا، نتيجة ذلك، بعبد الرحمن الثالث حاكمًا ومرشدًا فعليًا في إسبانيا كلها. كما أن مملكتي قشتالة وبرشلونة المسيحيتين القويتين في التخوم الإسبانية دفعتا له الجزية. وعندما سمى نفسه

(1) هاتشتاين، ماركوس ودليوس، بيتر (تحرير)، **الفن والعمارة الإسلاميان**، ص 210.
(2) هاتشتاين، ماركوس ودليوس، بيتر، المصدر السابق نفسه، ص 211.
(3) بينهارت، تشيم، **أطلس اليهودية في العصور الوسطى**، ص 36.



خليفة في يناير/ كانـون الثاني عام 929 أصبحـت قرطبة الخلافة الثالثة في الإسـلام إلى جانب خلافتي بغداد والقاهرة[1].

خلافة قرطبة

أوجد الخليفة الجديد إدارة داخلية جديدة ومركزية صارمة، وبذلك ضَمِنَ نمو البلاد السريع نحو الازدهار المستند إلى إصرار جَدّه على الري الشامل والزراعة الفعالة. كذلك ازدهرت الفنون إلى جانب الزراعة ومهد التطور الإسلامي الطريق للحكام الجدد كي يؤسسوا نقابات تجارية للحرفيين الماهرين الذين جرى تقويمهم ومكافأتهم على نحو جيد[2]. ونجم عن صياغة نظام ضرائب عادل وفعال امتلاء خزائن الدولة والسماح بامتيازات تجارية لليهود. أتاحت هذه العوامل كلها، بالتضافر مع إدارة بلدية سليمة، للأندلس أن تتحول إلى أكثر البلاد سكانًا في أوروبا آنذاك. وازدهرت قرطبة، عاصمتها، لتصبح مركزًا اقتصاديًا وثقافيًا إلى درجة مقارنتها بشكل إيجابي مع القسطنطينية، عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، ويمكن، في الحقيقة، أن تكون قد تجاوزت تلك المدينة أيضًا بوصفها مركزًا للتعلم[3].

شارك ابن الخليفة، الأمير الحَكَم (961ـ976 ميلادي)، ولي العهد في الحُكم منذ الأربعين من عمره، وعند توليه الخلافة، واصل البناء على إنجازات سلفه. ولأنه رجل مثقف ومحب للسلام فقد أحاط نفسه خلال مدة ولايته للعهد بالعلماء والمثقفين وجمع العديد من الكتب، وحذا حذو الأمير السابق الذي امتلك مكتبات كبيرة أيضًا واجتذب الشعراء والفلاسفة وعلماء الرياضيات إلى بلاطه[4]. وفي قرطبة، أنشأ الخليفة الحكم مكتبة من 400000 كتاب ضمت محتوياتها 44 قائمة، وأضاف تعليقاته إلى العديد من هذه المجلدات[5]. وهكذا أصبحت قرطبة مقرًّا لإحدى أكبر المكتبات في أوروبا، والثانية بعد أكبرها في العالم الموجودة في بغداد قلب الإمبراطورية الإسلامية. حَفَزَ هذا الولع الذي لا يشبع تقريبًا بالتعلم إنتاج ما بين 70000 و80000 كتاب مجلد كل

(1) هاتشتاين، ماركوس ودليوس، بيتر (تحرير)، **الفن والعمارة الإسلاميان**، ص 214.

(2) غودوين، جفري، **إسبانيا الإسلامية**، ص 10.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 5.

(4) المصدر السابق نفسه، ص 12.

(5) المصدر السابق نفسه، ص 42ـ43.



سنة، والتي لم تعكس الطلب المحلي فحسب بل أظهرت أيضًا قدرة البلاد على إنتاج حجم هائل جدًّا من نوعية فائقة، قبل قرون عدة من اختراع الطباعة. كانت العلوم، مثل الجغرافية والزراعة والري وعلم الفلك والطب والرياضيات موضع تشجيع فعال، كما كانت الدراسة الجدية للفلسفة تستند أساسًا إلى الفكر اليوناني الكلاسيكي. ومع طرد العلماء النسطوريين المضطهدين من أوروبا نتيجة للتزمت المسيحي، أصبح العالم العربي مقرًّا لهذا التجمع الواسع للتعلم اليوناني في مجال الرياضيات والفلسفة والعلوم، الذي تأصل وازدهر آنذاك في إسبانيا إلى جانب معرفة الطب الكلاسيكي[1].

لم تكن ثمار الحضارة اليونانية فحسب هي التي دخلت الوعي الأوروبي بوساطة هذا الطريق الملتوي، فإلى جانبها جرت تطورات أحدث في الطب والفن والهندسة المعمارية. إن معظم المعرفة الكلاسيكية من اليونان القديمة التي ندخرها ونَعدها بديهية الآن كانت ستذبل لو لم يحفظها ويحسنها العلماء المسلمون[2]. بعدما تولى الحَكَمُ الخلافة أمر بتأليف العديد من الأعمال الثقافية حول الأخلاق وأصول الحكم والتاريخ، وأبدى اهتمامًا شخصيًّا بمعرفة القراءة والكتابة والتعليم الشعبي، وأسس المدارس ومراكز التعلم المفتوحة للناس من كل طبقة اجتماعية. وهكذا يشتهر عهده عن جدارة بتمجيد العلم والثقافة والشعر في تاريخ إسبانيا الإسلامية[3].

في النهاية أصبحت قرطبة المركز المهيمن للثقافة الإسلامية خلال القرن التاسع. وتعكس مراحل بناء مسجدها الرائع، الذي أصبح ثاني أكبر مسجد في عالم الإسلام، التغييرات الثقافية التي حدثت بين عامي 785 و980. قدمت الأساليب الرومانية، التي لا تزال نشيطة، أشكالًا جديدة لافتة للنظر للأفكار الشرقية: صفوفًا متراكبة لأقواس متعددة الألوان وقبابًا مضلعة. يعكس هذا الاستمرار لتقاليد ما قبل الإسلام ازدهار هذا الجزء من الأندلس، المشهور بأسلحته وسلعه الجلدية وحرائره؛ وهو منطقة لم يسبق أن عانى نموها واستقرارها من هجوم أو إقلاق جدي من الأعداء المسيحيين ـ ولا من الفرنجة عبر التخوم الإسبانية ولا الإسبان اللاجئين إلى الشمال الغربي من إسبانيا[4].

---

(1) هولمز، جورج، (تحرير)، **تاريخ أكسفورد المصوّر للعصور الوسطى**، ص 61.

(2) رافنسكروفت ووالاس ـ ميرفي، **سِمة الوحش**، ص 125.

(3) هاتشتاين، ماركوس ودليوس، بيتر (تحرير)، **الفن والعمارة الإسلاميان**، ص 216.

(4) توينبي، آرنولد (تحرير)، **موسوعة لاروس للتاريخ القديم وتاريخ العصور الوسطى**، ص 272.



تمتع اليهود، الذين نُظر إليهم بوصفهم مواطنين من الدرجة الثانية في بقية أوروبا شمال إسبانيا وسبتيمانيا، بنهضة ثقافية ثرية خاصة بهم[1] وكان مسموحًا أيضًا للسكان المسيحيين الكثيرين بحرية دينية كاملة في إسبانيا، كما في الإمبراطورية الإسلامية كلها. وكان أكثر المسيحيين الإسبان فخورين جدًّا بانتمائهم إلى ثقافة متقدمة ومتطورة جدًّا تسبق بقية أوروبا بسنوات ضوئية[2]. ويُعد تراث إسبانيا الإسلامية بالنسبة للتطور اللاحق للثقافة الأوروبية كبيرًا جدًّا. ولاحقًا قدم العلماء الإسبان المسيحيون تحت الحكم العربي ونصوصهم معظم المادة الخام للأدب الناشئ في الغرب[3]. وهكذا كان تنوع الإبداع الأدبي في إسبانيا أوسع وأغنى في آن واحد مما ظهر في خلافة بغداد أو شمال أفريقيا[4].

اكتسبت إسبانيا الإسلامية، تحت حكم الخليفة الأموي، شهرة عالمية في الشعر والأدب والتعلم في كل من قرطبة وغرناطة. وكانت الكليات جيدة الحضور وحسنة التمويل في الأندلس ستقدم لاحقًا مثالًا ونموذجًا للتي تأسست في أكسفورد وكمبردج في إنكلترا[5]. وفي ذلك العصر حين كانت الغالبية الكبيرة للنبلاء والملوك والأباطرة المسيحيين الأوروبيين قليلة الثقافة، كان البلاط الأموي الإسلامي في قرطبة الأكثر تألقًا في أوروبا؛ وشكل ملاذًا وواحة سلام تمكن فيه الفلاسفة والشعراء والفنانون وعلماء الرياضيات والفلكيون من متابعة دراساتهم[6]. واستمر هذا التقليد طويلًا بعد سقوط الأمويين، لأن إسبانيا واصلت لاحقًا، خلال ذروة السلطة العباسية، التمتع بعصر ازدهار استثنائي مستقل[7].

كان الجو المتسامح لإسبانيا الإسلامية هو الذي وجد فيه العلم اليهودي غالبية تربته الخصبة عن طريق المساهمات الكبيرة والمهمة التي جرت في العديد من المجالات:

(1) أرمسترونغ، كارين، **محمد**، ص 23ـ24.
(2) أرمسترونغ، كارين، المصدر السابق نفسه، ص 22.
(3) هولمز، جورج (تحرير)، **تاريخ أكسفورد المصوّر للعصور الوسطى**، ص 15.
(4) برناوي، علي، **أطلس تاريخي للشعب اليهودي**، ص 100.
(5) أكبر، إس دبليو أحمد، **اكتشاف الإسلام**، ص 4.
(6) غودوين، جفري، **إسبانيا الإسلامية**، ص 43.
(7) جيلوم، ألفريد، **الإسلام**، ص 84.



الطب والجغرافية، ودراسة الكون، وتطوير آلات القياس وفن رسم الخرائط والملاحة، وبالأهمية نفسها، عن طريق ترجمة الأعمال من اليونانية إلى العربية ومن العربية إلى اللاتينية واللغات الأوروبية الأخرى. وفي الأندلس، كما في العالم الإسلامي بشكل عام، كتب اليهود أبحاثهم الفلسفية والطبية والعلمية بالعربية، اللغة التي رأوا أنها أنسب لهذا الفرع من العلوم الإنسانية. نتيجة تضافر الاحترام الإسلامي الفطري للتعلم مع الثقافة اليهودية اتصل الغرب أولًا بالعلوم اليونانية الكلاسيكية والمعلقين العرب عليها. وفي طليطلة في الأندلس، وفي مراكز أخرى في سبتيمانيا، ترجم العلماء اليهود أعمالًا في الفلسفة والرياضيات والهندسة والفيزياء وعلم الفلك والتنجيم والطب والسحر، وهكذا قدموا أساس العلوم اللاتينية التي تطورت خلال منتصف العصور الوسطى وأواخرها[1].

منذ أوائل القرن العاشر، كانت الإمبراطورية الإسلامية الموحدة سابقًا قد بدأت بالتمزق إلى دول أصغر، ومع ذلك ورغم هذا الانشقاق الظاهري، ظلت غالبيتها مراكز متطورة جدًّا للثروة والتعلم وقدمت بيئة خصبة لكل من الحياة الاقتصادية والثقافية[2]. ونتيجة تكاملها فيما أصبحت، في الواقع، منطقة تجارة حرة إسلامية، طورت كل من إسبانيا الإسلامية والدول الإسلامية في شمال أفريقيا تجارة رابحة تتعامل مع المشرق[3]. نجم عن هذا مستوى ثابت من الازدهار الذي دام سبعة قرون تقريبًا، ترك لنا تراثًا معماريًّا وفنيًّا لا يزال مصدر إعجاب لدى العالم الحديث. ومع ذلك فإن هذا الازدهار الرائع والذي ظل واضحًا جدًّا للفن والهندسة المعمارية، رغم أهميته، يبدو باهتًا تقريبًا عند مقارنته بإنجازات الأدب والشعر والطب والرياضيات والفلسفة التي رافقته.

المدارس الروحية في إسبانيا الإسلامية

لم يكن التعلم الدنيوي فحسب هو الذي ازدهر تحت حكم الخلفاء المسلمين الصالح في إسبانيا. فقد كثرت المدارس الدينية والروحية في المجتمعات الدينية

(1) برناوي، علي، **أطلس تاريخي للشعب اليهودي**، ص 96.
(2) هولمز، جورج (تحرير)، **تاريخ أكسفورد المصوّر للعصور الوسطى**، ص 57 و59.
(3) المصدر السابق نفسه، ص 32.



الأساسية الثلاثة كلها؛ وعملت المدارس الإسلامية واليشيفا اليهودية والكليات المسيحية جنبًا إلى جنب في هذه البلاد المتسامحة، كل منها وفقًا لمتطلبات مجتمعه الديني. وقدمت الكليات الكهنة اللازمين لمساعدة السكان المسيحيين المزدهرين والكثيرين. وقدمت اليشيفا اليهودية فرصة لدراسة الكتاب المقدس الدقيقة التي كانت عنصرًا مكملًا لليهودية في العصور الوسطى. كذلك قامت بدور مراكز ثقافية هذبت وحسنت التقاليد الروحية الشفهية المحترمة المتنوعة ضمن التقليد العبري، مثل *maaseh bereshith*، المستند إلى عمل الخلق الذي أتى وصفه في الإصحاح الأول من سفر التكوين، وmaaseh merkabah، المؤسس على رواية رؤيا حزقيال عن العربة المقدسة؛ و«مزامير الصعود» أي الصعود الغامض إلى السموات الأعلى، أو الصعود عبر الدرجات المختلفة للتنوير الأفلاطوني المُحْدَث[*] أو المعرفة الروحية في شكل مختلف آخر من تقليد مركاباه المعروف باسم «هيكالوث»[1]. تطور هذا الآن إلى شكل مكتوب معروف باسم كابالاه بنسخته الأقدم التي تُنسب إلى هارون بن صموئيل في إيطاليا عند بداية القرن العاشر.

إن تقاليد كابالاه الكلاسيكي، كما يُزعم، هو أقدم تقليد باطني أولي جرى تلقينه من هارون ثم انتقل من المعلم إلى التلميذ بشكل تعليمي شفهي ولم يصل إلى كماله المدون حتى القرن الثالث عشر الميلادي. ويُعبر سِفْر هازوهار أو كتاب البهاء عن سماته الأساسية، وبشكل رئيس مذهب العرفان اليهودي المشوب بالروحانية الصوفية، والذي ألّف مؤخرًا الأفلاطونية المُحْدَثة والسحر[2]. دُوِّن حوالي عام 1280 وانتشر في أوروبا المسيحية من المدارس الحاخامية في إسبانيا الإسلامية وسبتيمانيا. وكان الاتصال المنتظم بين سبتيمانيا وإسبانيا قد تأسس بشكل جيد ومن المعترف به الآن أن اليشيفا في ناربون ومونبلييه اضطلعت بدور مهم في وضع أول نسخ مكتوبة كاملة[3]. كان سِفْر هازوهار يُنسب إلى الحكيم والحاخام سمعان بار يوهاي، من القرن الثاني،

(*) وهو عبارة عن الفلسفة الأفلاطونية مُعَدّلَةً بحيث تنسجم مع المفاهيم الأرسطوية والشرقية. وقد تصور أصحابه العالَم فَيضًا منبثقًا من الذات الإلهية التي تستطيع الروح الاتحاد بها في حالة الانجذاب الصوفي. [المترجم].

(1) أيزنمان، روبرت، **يعقوب أخو المسيح**، ص 200.

(2) والاس ـ ميرفي، تيم، **تراث فارس الهيكل والميراث الماسوني في معبد روزلين**، ص 16.

(3) والاس ـ ميرفي وهوبكنز، **حراس الحقيقة**، ص 156.



لكنه اتخذ شكلًا مكتوبًا على يد موسى دي ليون. ولاحقًا، خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، انتشر كابالاه إلى أوروبا المسيحية وأصبح شكلٌ مسيحيُ الطابع منه شعبيًا بين علماء الاتجاه الباطني.

كانت مدارس السر الديني الصوفي في إسبانيا هي المصادر الأساسية المفتوحة والسهلة الوصول للتعليم الروحي الإسلامي في قارة حيث حاولت الكنيسة المسيحية بفعالية منع الاستقصاء الروحي[1]. والصوفية تقليد باطني يستمد إلهامه من القرآن وتعاليم النبي، وكانت الأنظمة الصوفية كلها قد تأسست على يد رجال زعموا الانتماء الروحي و/ أو العائلي لمحمد. من جهة ثانية، خلافًا لنظرائهم في العالم المسيحي الذين كان عليهم العمل في السر خشية الاضطهاد، كان الصوفيون قادرين على العمل علنًا داخل الإسلام وساهموا على نحو ملحوظ في تطويره. ويزعم الشاعر وعالم الأساطير روبرت غريفز أن الصوفية في الحقيقة تعود إلى عام 2500 قبل الميلاد ويدعي أنه وجد «توقيعًا صوفيًا» في روايات بناء هيكل سليمان في القدس[2]. كذلك يذكر حفيد أكبر مفكر يهودي، موسى بن ميمون (1135ـ1204)، أن التقليد الصوفي عبري في الأصل عندما كتب أن الصوفية «فخر إسرائيل الذي منحته للعالم»[3].

لا شك أن أعظم كاتب باطني في العصور الوسطى هو المعلم الصوفي الإشبيلي محيي الدين بن عربي (1165ـ1240) الذي وصف النبي العظيم محمدًا بأنه تجسيد «للرجل المثالي». وابن عربي المشهور بأنه صوفي وفيلسوف وشاعر، معروف بين الصوفيين بالشيخ الأكبر، أو «المعلم الأكبر». وأصبح معروفًا في الغرب بالدكتور مكسيموس، الترجمة الدقيقة للقبه العربي. وقد كتب بغزارة عن رحلة النبي الغامضة، ومعراجه وإسرائه عبر السماوات إلى القدس، مؤكدًا بذلك التأثير واسع الانتشار للأشكال السابقة من الروحانية اليهودية. وقد أثر شعره الرائع، الأكثر شعبية اليوم مما كان عليه في العصور الوسطى، تأثيرًا عميقًا في علماء بارزين مثل الراهب روجر بيكون ودانتي أليجييري وسرفانتس وابن رشد والقديس فرنسيس الأسيزي وتشوسر. يتضح

(1) والاس ـ ميرفي وهوبكنز، روزلين: **حارسة أسرار الكأس المقدسة**، ص 83.
(2) روبرت غريفز في مقدمته للطبعة الإنكليزية الأولى من كتاب **الصوفيون** تأليف إدرايز شاه.
(3) موسى بن ميمون، عوبيديا، **رسالة البركة**، ص 9.



من هذه الأمثلة المختصرة أن إسبانيا الإسلامية كان لها تأثير في تطوير الفكر والمعرفة والثقافة الأوروبية أعمق من أي دولة منفردة أخرى في التاريخ الأوروبي.

التعلم الكلاسيكي يعبر من إسبانيا إلى أوروبا المسيحية

قدم العلماء اليهود الذين استطاعوا التنقل بسهولة بين العربية والعبرية واللاتينية حلقة وصل حيوية في النشر العالمي للمعرفة[1]. وقد تسللت معرفة الكلاسيكيات اليونانية إلى الوعي الأوروبي عن طريق الكلية الدينية التي أسسها الأسقف فولبرت أوف شارتر (960ـ1028). وربما كان تلاميذ فولبرتوس أول من قرأ في أوروبا الغربية المسيحية أعمال أفلاطون وأرسطو وفيثاغورس وشيشرون بالإضافة إلى اطلاعهم على الرياضيات والعلوم والاختراعات العربية الحديثة مثل الإسطرلاب[2]. وهكذا فإن المعرفة التي تمّ تعليمها في شارتر وأتت من تلك المنارة المضيئة في العصور المظلمة، إسبانيا الإسلامية، لم تكن مترجمة عن اليونانية، بل عن العربية بوساطة علماء يهود. كيف وصلت هذه المعرفة من إسبانيا إلى شارتر؟ يكمن الجواب في علاقة الملك الإله الذي بواسطته نقل نبلاء المجموعة العائلية المختبئة ترجمات الكلاسيكيات التي أرسلها أفراد في إسبانيا إلى شخص آخر من مجموعتهم، وهو الأسقف فولبرت[3].

كان فولبرت يُدعى «ذلك السقراط الموقر» من أتباعه المنتمين آنذاك إلى مجتمع العلماء الدولي[4]. كان القرن الثاني عشر العلامة المميِّزة لذروة مدرسة شارتر: كان برناردوس أوف شارتر، جلبرت دي لا بوري، تييري أوف شارتر، وجون أوف سالزبري، أساتذتها الذين كُرموا في جميع أنحاء فرنسا واجتذبوا التلاميذ من كل إقليم ومن الخارج أيضًا[5]. فقد ميزت مدرسة شارتر المرحلة المحورية التي فصلت العصور المظلمة عن الجذور الأولى لعصر النهضة، فمنذ عصر برناردوس أوف شارتر (توفي حوالي عام 1130) وأبيلارد الباريسي (1079ـ1142) يستطيع المرء أن يؤرخ أول خرق

(1) هولمز، جورج، (تحرير) **تاريخ أكسفورد المصوّر للعصور الوسطى**، ص 208.
(2) وورد، كولن، شارتر، **صناعة معجزة**، ص 8.
(3) والاس ـ ميرفي وهوبكنز، **حراس الحقيقة**، ص 113ـ114.
(4) وورد، كولن، شارتر، **صناعة معجزة**، ص 8.
(5) كليرفال، **مدرسة شارتر في العصور الوسطى**، 1895.



مهم لجدار الجهل المفروض كنسيًا. وهنا أعيد فلاسفة اليونان الكلاسيكية إلى الاتجاه السائد للفلسفة المسيحية الأوروبية[1].

بزعامة جيرارد أوف كريمونا (1114ـ1187)، تطورت مدرسة للترجمة بالغة التأثير في طليطلة اجتذبت العلماء من جميع أنحاء أوروبا. وكان مجال اهتمامها الأساسي المؤلفات العلمية والرياضية التي تضمنت أعمال ابن رشد المسلم من قرطبة (1126ـ1198). ومن هذه المدرسة أمر رئيس دير كلوني بيتر الجليل بترجمة القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية عام 1141. وكان دافعه إيجاد أساس علمي لتفنيد الإسلام[2].

(1) رافنسكروفت ووالاس ـ ميرفي، سِمة الوحش، ص 73ـ74.
(2) هولمز، جورج (تحرير)، تاريخ أكسفورد المصوّر للعصور الوسطى، ص 207ـ208.



الفصل التاسع

دَيْن الغرب تجاه الإسلام

رافق التجار اليهود عددًا من القوافل التي تربط بين أقصى حدود الإمبراطورية الإسلامية ووسعوا صلاتها التجارية إلى أوروبا حيث أخذوا، كما في أراضي الإسلام، تعاليم تلمودهم التي في بغداد إلى العديد من مجتمعاتهم في الشتات[1]. وهكذا شجع التسامح الإسلامي توحيد الحياة الاجتماعية اليهودية في جميع أنحاء العالم[2]. في السنوات الأولى للتجارة مع أوروبا، نُقلتْ سلع غريبة حصريًا بوساطة هؤلاء التجار اليهود وزملائهم العرب، وبحلول منتصف القرن الحادي عشر، أوجدت جهودهم درجة من الوحدة التجارية ضمن منطقة البحر المتوسط مما سمح للسلع والناس بالحركة من طرف إلى آخر. على أية حال، في أواخر القرن الحادي عشر، كان الاحتكار الفعلي الذي مارسه رجال الأعمال المسلمون واليهود يوشك أن يتعرض إلى التحدي[3].

استغل التجار الإيطاليون، الذين كانت قوتهم تتزايد، الفرصة التي أتاحها تأسيس مملكة القدس بعد الحملة الصليبية الأولى. وقدمت مدن جنوة وبيزا وأمالفي امتيازات تجارية للدول الصليبية في حين ركز سكان البندقية جهودهم على دخول المنطقة التجارية التي أوجدتها الإمبراطورية البيزنطية في بحر إيجه والبحر الأسود[4]. لكنها لم تكن وحدها؛ فالتجارة مع الدول الإسلامية تابعها التجار أيضًا في عدة موانئ فرنسية

(1) برناوي، علي (تحرير)، **أطلس تاريخي للشعب اليهودي**، ص 82.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 86.

(3) فليتشر، ريتشارد، **الصليب والهلال**، ص 100.

(4) المصدر السابق نفسه، ص 101.



جنوبية، أولها مرسيليا، وبلدات في التخوم الإسبانية مثل برشلونة[1]. وبين عامي 1050 و1250، كسر التجار الأوروبيون الغربيون والمسيحيون بشكل تدريجي الاحتكار الذي تمتع به سابقًا العرب واليهود والبيزنطيون.

كان ما حفز هذا الاندفاع للنشاط التجاري الأوروبي هو الفوز بمدخل إلى طرق التجارة التي تقع أطرافها في دول غريبة على الحدود الشرقية للإمبراطورية الإسلامية التي لم يزرها أي أوروبي قط. وقد أعد رجل من فلورنسا، هو فرانتشيسكو بيغولوتي، كتابًا للتجار حوالي عام 1330، وأدرج فيه نحو 300 نوع من «التوابل»، استورِد أغلبها من هذه الدول الشرقية. وقد غطت كلمة «توابل» البسيطة عددًا كبيرًا من السلع: المواد الصيدلانية والأصباغ ومواد التجميل والثمار الغريبة بالإضافة إلى توابل المطبخ مثل القرفة والكمون والبلح والحلبة، وخمسة أنواع من الزنجبيل والنيلة والفُوّة[*] والمسك والأفيون وخشب الصندل وبيض دودة القز والتربنتين[2]. تلك السلع المرغوبة جدًّا في أوروبا والتي كان الزبائن مستعدين لدفع ثمن باهظ من أجلها. إن الارتباط النهائي لتجارة البحر المتوسط هذه بالتجارة البحرية في شمال أوروبا، متضافرًا مع النمو والتطور في التقنيات المالية والبنى التحتية مثل الشراكات التجارية والأعمال المصرفية ووسائل الائتمان والمحاسبة، أدى في النهاية إلى نمو الرأسمالية التجارية الأوروبية مما حقق هيمنة عالمية لاحقًا[3].

التجارة الفكرية

لم يكن تبادل السلع التجارية على أية حال هو المسيطر على الاتصال بين العالمين المسيحي والإسلامي، لأن التفاعل الأكثر إنتاجًا وجدوى بينهما كان سيوجد في الحياة الفكرية. وكما ذكرتُ سابقًا، بدأت ترجمة الكنز الفكري الدفين الذي تجمع طوال قرون على يد العلماء المسلمين إلى اللغة اللاتينية، لغة التعلم في العالم المسيحي الغربي، وأصبح متوفرًا للمثقفين الأوروبيين منذ القرن الحادي عشر فصاعدًا. وفي رأي المؤرخ

(1) فليتشر، ريتشارد، **الصليب والهلال**، ص 105.

(*) الفُوَّة: نبات صبغي، استخدم في الصباغة، ويستخرج منه صبغ لونه أحمر متراوح بين المعتدل والقاني. [المترجم].

(2) فليتشر، ريتشارد، **الصليب والهلال**، ص 106-107.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 107-108.



الإنكليزي ريتشارد فليتشر: «كانت هذه عملية ستصعب المغالاة في أهميتها تجاه التاريخ الفكري للعالم»[1]. ولقد أصبحت الثقافة الإسلامية في الحقيقة، القاعدة القوية التي تأسست عليها الثقافة الأوروبية.

لقد وصفتُ كيف صارت الأندلس أعظم مركز ثقافي ليس في أوروبا فحسب بل في كامل حوض البحر المتوسط[2]. وهناك، كما في العالم الإسلامي كله، كتب العلماء اليهود أطروحاتهم بالعربية، اللغة التي اعتقدوا أنها أفضل ما يناسب هذا الفرع من التعلم. وفي أوائل منتصف القرن العاشر، ساعد أحد قادة المجتمع اليهودي في إسبانيا، وهو هسداي بن شبروط، الذي كان أيضًا موظفًا كبيرًا في بلاط الخليفة في قرطبة وطبيبًا بارزًا، في تحويل اللغة العربية إلى وسيلة علمية بإعداد نسخة عربية رائعة من كتاب «**المادة الطبية**»، الخلاصة الصيدلانية العظيمة التي جمعها أصلًا في القرن الأول الميلادي عالم النبات اليوناني ديوسقريدس[3]. وشارك اليهود في إسبانيا في ترجمة أعمال كلاسيكية عن الفلسفة من العربية إلى اللاتينية، وأدوا بذلك وظيفة جسر بين ثقافة العالم القديم وثقافة أوروبا في العصور الوسطى[4]. وفي الحقيقة، ورغم المحاكمات المريرة والمرهقة التي تحملوها خلال الشتات، ظل الإبداع الروحي والفكري للشعب اليهودي نابضًا بالحياة[5].

وصفت المؤرخة لويس كوشران العالم أديلارد أوف باث (حوالي 1080ـ حوالي 1150)، بأنه «أول عالم إنكليزي»[6]. سافر أديلارد على نطاق واسع إلى سوريا ومملكة النورمانديين في صقلية طوال سبع سنوات في القسم الأول من القرن الثاني عشر. في هذه الرحلات تعلم اللغة العربية وحصل على عدد كبير من الكتب العلمية. تتضمن مجموعة أعماله المكتوبة ترجمتين عن العربية، وعدة مؤلفات له، وكلها تبين ما يدين به للثقافة العربية. وترجم كتاب إقليدس «العناصر» وهكذا عرّف العالم الأوروبي بأكثر

---

(1) فليتشر، ريتشارد، **الصليب والهلال**، ص 117.
(2) برناوي، علي (تحرير)، **أطلس تاريخي للشعب اليهودي**، ص 96.
(3) المصدر السابق نفسه، ص 96.
(4) بينارت، تشيام، **أطلس التاريخ اليهودي في العصور الوسطى**، ص 52.
(5) المصدر السابق نفسه، والصفحة نفسها.
(6) العنوان الفرعي لكتاب لويس كوشران أديلارد أوف باث (لندن 1994).



الكتب تأثيرًا مما سبق تأليفه في الهندسة ـ وأصبح النص التعليمي النموذجي في الغرب طوال 800 سنة تالية. وبترجمة «الزيج»، الجداول الفلكية للخوارزمي (توفي عام 840) وراجعه مسلمة المجريطي من مدريد (توفي عام 1007)، أتى بأحدث معرفة فلكية إلى العالم الغربي. وبتأليف كتاب دراسي عن المعداد وآخر حول استعمال الإسطرلاب، قام أديلارد بمساهمة ثقافية مهمة مع بداية عصر الترجمة المكثفة ما أدى إلى تدفق مخزون خصب حقيقي من المعرفة التي قدمت فائدة كبيرة للثقافة الأوروبية.

جرى أغلب هذه الترجمات في إسبانيا وإيطاليا والقليل جدًّا في آوتريمر، كما كانت تدعى الأرض المقدسة آنذاك. وفي إيطاليا ترجم العلماء على نحو رئيس من اللغة اليونانية مباشرة إلى اللغة اللاتينية، وبهذا الأسلوب، دفع جيمز البندقي، الذي كان معاصرًا لأديلارد، بعدد من أعمال أرسطو العلمية إلى مجال اهتمام العلماء الغربيين. وكانت الترجمات في إسبانيا على نحو أساسي من الأعمال العربية التي تضمنت النسخ العربية للنصوص اليونانية الكلاسيكية. وجرى تعويض الخسارة الواضحة من العمل بنقلة واحدة من النص الأصلي على نحو أفضل بترجمة عدد كبير أيضًا من أعمال التعليق والتوسع على هذه النصوص التي جمعها العلماء المسلمون[1].

مع تأسيس مملكة صقلية في القرن الحادي عشر، وجدت العائلة النورماندية نفسها تسود مزيجًا من السكان المسلمين والمسيحيين اليونانيين على نحو أساسي. ومع أنهم كانوا قساة وغير متعلمين، قدم الحكام الجدد رعاية رائعة لتشجيع تمازج الثقافات مما حقق إنجازات عظيمة في الثقافة. كذلك ثمة مآثر جميلة في الفنون والهندسة المعمارية، مثل كاتدرائية مونتريال قرب باليرمو، التي جرى بناؤها بين عامي 1174 و1189، والتي تُعدّ مزيجًا رفيعًا من التراث الثقافي المختلط للجزيرة. وقد كلف الكونت روجر الصقلي (1130ـ1154) الإدريسي، وهو عالم تونسي، بتأليف عمل جغرافي ضخم دعاه «كتاب روجر». ومع هذا، في عام 1223، أبعد الإمبراطور الروماني المقدس، فريدريك الثاني، أغلب المسلمين الباقين إلى الأراضي الداخلية الإيطالية الجنوبية حيث انصهروا، شيئًا فشيئًا، ضمن الثقافة المسيحية[2]. وقد اشتهرت مقاطعة شمبانيا بأنها مقر المُعلِّق الكبير على الكتاب المقدس، راتشي، بينما أصبحت بروفانس والتخوم الإسبانية مهد التعاليم

---

(1) فليتشر، ريتشارد، **الصليب والهلال**، ص 116ـ119.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 111.



الحاخامية، ومقر الأدب الفلسفي والأخلاقي. وأصبحت هذه الإنجازات كلها أصولًا ثمينة للتراث الأدبي والروحي للشعب اليهودي[1].

الجامعات الأوروبية الأولى

تسللت كما ذكرتُ معرفة الكلاسيكيين اليونانيين عائدة إلى الوعي الأوروبي من إسبانيا عن طريق الكلية الدينية التي أسسها الأسقف فولبرت أوف شارتر عام 990 الميلادي[2]. وقال العالم العظيم، برناردوس أوف شارتر، عن علماء اللغة اليونانية القديمة: «إذا تمكنا من الرؤية أبعد منهم، فهذا ليس بسبب قوة رؤيتنا، بل لأننا ارتفعنا عن طريقهم وانتقلنا إلى علو هائل. إننا أقزام صعدوا على أكتاف العمالقة»[3].

لم تكن شارتر المدرسة الوحيدة لعلوم الدين، كان ثمة أخرى في نوتردام باريس وعدد أكثر من المراكز الكهنوتية القريبة الأخرى. وعندما حاول مستشار نوتردام فرض سلطته على المعلمين والتلاميذ في أبرشيته ثاروا، لأنهم أرادوا الحق بتعيين المعلمين وتدريب الطلاب ذوي المقدرة الفكرية الأعلى، وليس مجرد قبول الناس بأية قدرة ممن وجدوا تعاطفًا مع الكنيسة فحسب. شكل الثوار مؤتمرًا، وهو مجموعة ضمت كلًّا من المعلمين والمتعلمين، دُعي لاحقًا باسم الجامعة. ثم أرادوا موافقة بابوية على مؤسستهم الجديدة، وفي عام 1200 أو نحوه، منحهم الملك فيليب الثاني بعض الامتيازات وفي عام 1208 اكتسبوا حق وضع أنظمتهم الخاصة من البابا إنوسنت الثالث. ووُلدت جامعة باريس.

أُسست مبادرة جامعة أكسفورد عندما وصل عالم ديني من باريس، هو روجر بولين، إلى هناك عام 1133. وبحلول عام 1263 كانت هذه المؤسسة جامعة كاملة زُعم أنها مدرسة ثانوية كنسية، وكانت الثانية فحسب بعد باريس. وتأسست جامعة كمبردج بعد ذلك بمدة قصيرة وتبعتها جامعات عدة في المدن الأوروبية الأخرى في السنوات اللاحقة. وأخذت الكنيسة، في النهاية، تفقد قبضتها الخانقة القوية على التعليم. كانت

---

(1) بينارت، تشيام، **أطلس التاريخ اليهودي في العصور الوسطى**، ص 52.

(2) وورد، كولن، شارتر، **صناعة معجزة**، ص 8.

(3) استشهد به جون أوف سالزبري في كتابه **ما بعد المنطق** 3، 4. باترول. اللاتيني. ج CXCIX، [illegible] 900.

مكتبة الفكر الجديد

الكليات المشهورة والمحترمة في الأندلس هي التي أصبحت النماذج المستندة إليها أكسفورد وكمبردج[1]. قدمت هذه المراكز التعليمية المستقلة في الدول المسيحية، التي دَرَسَتْ آنذاك التدفق المستمر المتزايد للأعمال العلمية المنبثقة من العالم الإسلامي، إلى الثقافة الأوروبية حافزًا كان تطوره السريع، بعد قرون قليلة، يعادل وبعد ذلك يتجاوز مصدره الإسلامي.

لم يكتفِ العلماء التوراتيون اليهود والمسيحيون بمواجهة بعضهم بعضًا في المناقشات الدينية بل اجتمعوا كذلك وتعلم بعضهم من بعضهم الآخر. كان العون اليهودي مطلوبًا من المسيحيين لمساعدتهم في توضيح المقاطع التوراتية الصعبة وتتكرر عبارة *hebraeus meus dicita* ـ أخبرني أحد اليهود ـ كثيرًا في كتابات أندرياس، تلميذ أديلارد في القرن الثاني عشر[2]. وتستند الأديان العالمية الثلاثة ذات الصلة وهي اليهودية والمسيحية والإسلام إلى الوحي الإلهي الممنوح للبشر والمدون في الكتب المقدسة. أفرز هذا منطقة واحدة قدمت فيها إعادة اكتشاف الفكر اليوناني الكلاسيكي، وخصوصًا أعمال أرسطو، تحديًا جديًا. وقد زعم نظامه الفلسفي أن العالم كان واضحًا من دون الوحي، وكل ما كان مطلوبًا هو مجموعة من الأمور المنطقية: الملاحظة، القياس، الاستدلال المنطقي، الأسباب والتأثيرات القابلة للإثبات.

حاول معاصران، أحدهما مسلم والآخر يهودي، حل هذه المسائل المقلقة. جعل ابن رشد (1126ـ1198) رده على هيئة تعليقات على أرسطو وكذلك عن طريق عدد من أطروحاته، حملت إحداها العنوان المهم «حول التوفيق بين الدين والفلسفة». أما الحاخام موسى بن ميمون (1138ـ1204) الذي ولد في إسبانيا لكنه عاش في مصر، فقد ألّف الأجوبة اليهودية في كتابه «دليل الحيارى». وجاء الرد المسيحي بالضرورة في وقت لاحق، بعد فترة طويلة من ترجمة عملي موسى بن ميمون وابن رشد إلى اللغة اللاتينية. جاء الرد المسيحي الأهم والأدق من القديس توما الأكويني (جوالي 1225ـ1274) الذي أصبح حلاه لمزاعم المنطق المتعارضة معيارًا في العوالم الكاثوليكية. وفي عمله، يستشهد الأكويني على نحو متكرر بابن رشد أكثر من أي مفكر غير مسيحي

---

(1) أكبر، س. و. أحمد، **اكتشاف الإسلام**، ص 4.

(2) بينارت، تشيام، **أطلس التاريخ اليهودي في العصور الوسطى**، ص 52.



آخر؛ وفي الحقيقة كانت تعليقات ابن رشد على أرسطو موضع تقدير كبير بين علماء الدين في ذلك الوقت وأصبح معروفًا باسم «المُعلِّق» فحسب[1].

كان المخزون الإسلامي الواسع من الامتياز الفكري بعيدًا عن النفاد، واستمرت الترجمات في جميع مجالات السعي العلمي. وربما كان جيرارد أوف كريمونا الأغزر إنتاجًا بين المترجمين المسيحيين فقد أمضى نحو 50 سنة في طليطلة، من عام 1140 حتى وفاته عام 1187. خلال حياته هناك ترجم نحو 90 عملًا من العربية إلى اللاتينية. بحث أكثر من نصفها في الرياضيات وعلم الفلك والعلوم المتعلقة بهما؛ وثلثها في الطب؛ والبقية في الفلسفة والمنطق. وأصبحت فروع المعرفة هذه كلها عنصرًا مكملًا لتأسيس ما يُدعى بعصر النهضة الثقافي للقرنين الثاني عشر والثالث عشر[2]. وفي إسبانيا جمع ألفونسو ملك قشتالة (1252ـ1284) فريقًا من العلماء أنتج أعمالًا باللغة المحلية، مترجمة من اللغة العربية: موسوعات في علم الفلك والتنجيم، ووصفًا مصورًا للشطرنج وألعاب أخرى ودليلًا للأحجار الكريمة وخصائصها الطبية.

التعليم يحرز تقدمًا

إذا قدّرنا مستوى التطور التعليمي بعد أديلارد بقرن أو نحوه، يمكن أن نبدأ بتقويم المدى الكامل للحصاد الثقافي الذي تمّ جمعه. لقد أصبحت سلسلة واسعة من المؤلفين اليونانيين أو العرب متوفرة الآن للعلماء مثل روبرت غروسيتيست، أسقف لينكولن (توفي عام 1253) وتلميذه روجر بيكون (توفي عام 1292). كان مصدرًا ثقافيًا سيدهش العلماء في عصر أديلارد. وكان التعلم قد ابتعد آنذاك عن الأديرة، بمنهجها الدراسي المحافظ المتشدد والعميق المهتم على نحو حصري تقريبًا بالكتاب المقدس وكتابات آباء الكنيسة الأوائل. درس علماء القرن الثالث عشر آنذاك وناقشوا في جامعات باريس وبولونيا وأكسفورد الجديدة. وجُهِّزت المؤسسات المتحررة من هيمنة الكنيسة بالمكتبات وقاعات المحاضرات وعدد كبير من الكتب الدراسية الجديدة، وكان الجو الكامل للثقافة قد تغير كثيرًا بحيث أصبح القرن الثالث عشر، على نحو يمكن إدراكه، جزءًا من العالم الحديث الصاعد[3].

(1) فليتشر، ريتشارد، **الصليب والهلال**، ص 121ـ122.
(2) المصدر السابق نفسه، ص 120ـ121.
(3) المصدر السابق نفسه، ص 121ـ122.



لم تكن الهندسة الموضوع الرياضي الوحيد الذي عبر من الإسلام إلى أوروبا المسيحية. فقد كان الجبر وتطوير آلات القياس وفن رسم الخرائط والملاحة أيضًا من بين الموضوعات التي قام بترجمتها العلماء اليهود في إسبانيا الإسلامية والذين أدوا بذلك وظيفة في إيجاد الأدوات التي ستثبت أنها مفيدة جدًّا في الاستكشاف العالمي[1]. وكان جزء من هذا يستند إلى عمل البيروني، وهو صانع ماهر جدًّا للأجهزة العلمية قام بمشاهدات عام 1018 قرب مدينة إسلام آباد الحديثة، استند إليها في حسابات نصف قطر الأرض ومحيطها كانت دقيقة مدهش - بخطأ 15 كيلومترًا و200 كيلومتر فقط، على التوالي، وفق أحدث التقديرات. إن النظام العددي الذي استخدمناه منذ القرن الثالث عشر ذو أصل عربي. وأداة الحساب المعروفة باسم «المِعْداد» أحضرها إلى أوروبا الغربية من كتالونيا الفرنسي جربرت أوف أوريلياك عام 960 ميلادي. وكان نظامًا فعالًا للمحاسبة تطور في الإمبراطورية الإسلامية من أجل فرض الضرائب على التجارة قد تجاوز التقسيم الديني بسرعة واتخذ الطابع الأوروبي. كما أن كلمة «جمارك» الإنكليزية، التي تُترجم إلى اللغات الأوروبية الأخرى بكلمات *dogana, aduana*، أو *douane* مشتقة من كلمة «ديوان» العربية بمعنى دفتر المحاسبة.

الخزانة الطبية الإسلامية

أصبحت المعرفة الغربية لفن الطب، التي كان أسامة بن منقذ ينتقدها بقسوة في آوتريمر خلال القرن الثاني عشر، متبدلة متجددة كليًا مع تسرب المعرفة إلى أوروبا من الإمبراطورية الإسلامية. وفي منتصف القرن الحادي عشر في الدير البنيديكتي في مونتي كازينو جنوبي إيطاليا، بدأ راهب يُدعى قسطنطين «الأفريقي» لأنه جاء من تونس، بترجمة الأعمال الطبية من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية والسبب، بحسب كلماته، «لأنني لم أستطع أن أجد بين الكتب اللاتينية أي مؤلِّف قدم معلومات مؤكدة أو يمكن الاعتماد عليها»[2]. وفي وقت لاحق، ترجم جيرارد أوف كريمونا كتاب ابن سينا «القانون» وأكثر من 25 عملًا طبيًّا آخر. وقد أضيف عمل ابن رشد الطبي الرائع «الكليات» إلى المجموعة اللاتينية في القرن الثالث عشر إلى جانب عدة أعمال أخرى

---

(1) برناوي، علي (تحرير)، **أطلس تاريخي للشعب اليهودي**، ص 96.
(2) فليتشر، ريتشارد، **الصليب والهلال**، ص 123.



وأصبحت مجموعة ضخمة من الكتابات اليونانية والعربية حول الطب وموضوعات ذات صلة به متوفرة في أوروبا مع بداية القرن الرابع عشر. وقد بَحَثَتْ في مجال واسع من الموضوعات الطبية وتضمنت قوائم بالعقاقير الطبية وأطروحات عملية حول الجراحة أو الفحص التشخيصي للبول. كانت كليات الطب قد تأسست، مثل كلية مونبلييه، حيث جرى تدريس هذه النصوص وتعليم المهارات العملية على يد ممارسين طموحين.

يمكن رؤية مثال لثمار هذا التزايد المفاجئ لدراسة الطب في حياة آرنولد أوف فيلانوفا. درس آرنولد في مونبلييه خلال ستينيات القرن الثالث عشر وظل مرتبطًا بكلية الطب طوال عمله، وفي عام 1309 أصبح المستشار الأول للمقام البابوي الذي نظم منهج الدراسات هناك. وقد كان مؤلفًا كثير الإنتاج وترجم أيضًا كتب جالينوس وابن سينا الطبية من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية. وألّف عملًا واحدًا، هو رسالة حول النظافة العسكرية، للملك جيمز عاهل أراغون، وأطروحة مهمة أيضًا حول النظرية الطبية، بعنوان «مرآة الطب».

في ذلك الوقت كان ثمة نمو حيوي للخبرة الطبية في المناطق التي شكلت الاتحاد الأراغوني، تركز بشكل أساسي في مدينتي برشلونة وفالينسيا. وكان التدريب الطبي في حالة تحسن مستمر ووُجد في مراكز التفوق هذه عدد كبير من الممارسين الطبيين يضم جميع المستويات من الصيادلة إلى الجراحين. كانوا يطورون إحساسًا قويًّا بهوية جماعية، كما كانوا مشبعين بالاعتزاز الحِرْفيّ المبرر، وأدوا دورًا قيمًا في مجتمعاتهم. كان هذا التقدم كله نتيجة نشاط الترجمة خلال القرنين السابقين، لأن تدابير الرعاية الصحية في أوروبا المسيحية تحسنت بشكل مؤثر بعدما أصبحت ثمار البحث والثقافة الإسلامية متوفرة على نطاق أوسع[1].

علم الاجتماع المبكر؟

ثمة دراسة علمية إسلامية مبكرة أخرى ارتبطت على نحو تجريبي بالطب، وجرى بحثها مؤخرًا على نحو عميق للمرة الأولى في دراسة رائدة أجراها بيتر بيلر بعنوان «قياس التعدد؛ السكان في فكر العصور الوسطى». تطلب هذا المجال من التحقيق تطوير تفكير منضبط حول موضوع السكان: حجمهم وتوزيعهم ونسبة الجنسين والزواج

(1) فليتشر، ريتشارد، **الصليب والهلال**، ص 124ـ125.



والولادة ومستويات المرض والوفاة. يبيّن بيلر كيف أقيمت فكرة العصور الوسطى حول السكان ثانية بشكل راسخ على ترجمات النصوص اليونانية الكلاسيكية، وخصوصًا نصوص أرسطو، ثم تطورت أكثر بمقارنة سكان العالم المسيحي وثقافاتهم وتباينهم مع ما اعتقدوه حول العالم الإسلامي أو العوالم التي وراءه.

التقنيات المفيدة

إن ما ندعوه الآن تقنية كان منفعة أخرى عبرت من العالم الإسلامي إلى أوروبا المسيحية. وثمة مثال قديم لهذا هو رفع المياه للري بآلة يديرها حيوان تُدعى الساقية. وفيها يُربط حيوان ليجر عمودًا يدير عجلة أفقية تدير عندئذ عجلة عمودية عن طريق المسننات. تحتوي العجلة العمودية على قدور مثبتة على محيطها تمتلئ بالماء عند دورانها. والمثال الآخر هو المِعْداد الذي أتى ذكره سابقًا. والمثال الثالث هو صنع الورق الذي انتشر من الصين إلى بغداد قبل نهاية القرن الثامن وبعد ذلك، خلال القرنين التاليين، في جميع أنحاء الإمبراطورية الإسلامية[1]. كان الإسطرلاب اختراعًا بسيطًا آخر قدم فرصًا غير محدودة فعلًا للأوروبيين وأتاح للراهب نيكولاس لين القيام باستكشاف شمال الأطلسي في منتصف القرن الرابع عشر.

نقل يهود صور صناعة الزجاج الملون العالي النوعية إلى سكان البندقية الذين لا يزالون يستفيدون من هذه الصناعة إلى يومنا هذا[2]. وكان صنع الزجاج البصري وصناعة العدسات فرعًا آخر للتقنية التي جاءت إلى أوروبا من الإمبراطورية الإسلامية. ولا يحتمل كما قد يبدو أن أجمل زجاج ملون في كاتدرائية شارتر يدين بصناعته إلى التقنيات السرية الآتية من الشرق. فقد صنع هذه النوافذ حرفيون بارعون باستخدام معرفة علمية اكتشفها فرسان الهيكل في الأرض المقدسة[3]. وفي الحقيقة لقد صَنَعَ أقدم زجاج ملون للنوافذ في السجل التاريخي عمال مهرة من بلاد فارس في بداية القرن الحادي عشر. ويزعم الكاتب الروحاني الفرنسي، لويس شاربنتييه، أن إنتاجه حدث أولًا في مختبرات بعض الكيميائيين القدماء قبل انتقال الأسرار إلى مبتدئين آخرين في رحلة

(1) فليتشر، ريتشارد، **الصليب والهلال**، ص 54ـ57.

(2) بينارت، تشيام، **أطلس التاريخ اليهودي في العصور الوسطى**، ص 46.

(3) شاربنتييه، لويس، **ألغاز شارتر**، ص 139.



طويلة بلغت ذروتها في أوروبا[1]. على أية حال، ليست نوافذ الزجاج الملون الجميلة التي تزين كاتدرائيات أوروبا القوطية العظيمة فحسب هي ما ندين به لإخوتنا الإسلام، بل العمارة الأساسية للكاتدرائيات نفسها أيضًا.

القوس القوطية

إن المبدأ الأساسي للعمارة القوطية هو القوس المدببة التي مكنت البنائين في العصور الوسطى من البناء إلى ارتفاعات لم يسبق لها مثيل من قبل بهذا الأسلوب الرشيق. ويزعم كل من المؤرخ المعماري الإنكليزي الموهوب، وليم أندرسن، والعالم الفرنسي، جين بوني، أن القوس القوطية عرضتها الثقافة الإسلامية لأول مرة[2]. إن صديقي الحميم غوردن ستراتشان مقتنع أن أصل القوس المدببة موجود خارج أوروبا ويتفق مع كل من وليم أندرسن وجين بوني على أن أصلها إسلامي، وبالإضافة إلى ذلك، أنها جاءت من الأرض المقدسة. ويعتقد غوردن أن القوس القوطية نتجت عن «مزيج فريد من مهارات البناء الفطرية والعبقرية المعمارية الإسلامية»[3].

قابل فرسان الهيكل، خلال سكنهم في القدس أفرادًا من الأنظمة الصوفية كانوا يقومون بعملية إحياء لمصائرهم في ذلك الوقت[4]. مَثَلَ الصوفيون النظام الباطني الأساسي في الإسلام وكانوا مؤمنين ورعين بشكل باطني من التعددية بين الأديان تتلخص بكلمات جلال الدين الرومي: «إن دين الحب مستقل عن جميع الأديان. وأحباء الله لا دين لهم إلا الله وحده». ويزعم ستراتشان أن فرسان الهيكل، نتيجة اتصالهم مع الصوفيين، تعلموا الطريقة الهندسية المستعملة لتصميم المخمس الإسلامي أو القوس المدببة. ووضعوا هذا قيد الاختبار في القدس ببناء مدخل من ثلاثة أقسام أساسية بأقواس مدببة على جبل الهيكل لا يزال من الممكن رؤيته اليوم. وهكذا اكتسبت معرفة الهندسة المقدسة دفعًا هائلًا بسبب الاتصال بين الأنظمة الأولية للدينين كليهما، وكانت النتيجة النهائية تطور القوس المدببة إلى أسلوب جديد كليًا من البناء المقدس.

---

(1) شاربنتييه، لويس، **ألغاز شارتر**، ص 141.

(2) أندرسن، وليم، **نشوء القوطيين**، ص 39؛ بوني، جين، **العمارة القوطية الفرنسية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر**، ص 17.

(3) ستراتشان، غوردن، **شارتر**، ص 4.

(4) شاه، ي. **الصوفيون**، ص 166ـ193.



العِلم اليهودي

ارتبطت المنافع التي تجمعت في أوروبا المسيحية نتيجة لهذه المرحلة المكثفة من التبادل والتحفيز الفكريين أيضًا بالناس الذين قاموا بمعظم أعمال الترجمة، أي اليهود. وفي أجواء إسبانيا الإسلامية المتسامحة وضعوا مجموعة أدبية أغنى بكثير من أي شيء أنجزوه خلال أيام الخلافة العباسية في بغداد أو شمال أفريقيا[1]. ومن ناحية ثانية، بينما ازدهرت الدراسات التوراتية بين اليهود في أوروبا المسيحية، لم يصل نتاجهم الأدبي هناك أبدًا إلى المستويات التي تحققت خلال الفترة الأندلسية، لكنه، مع ذلك كانت له أهمية متميزة خاصة به[2].

على أية حال، إن المساهمة التي قام بها في مصر الحاخام موسى بن ميمون، المعروف باسم رامبام (1135ـ1204)، لا تُقدر بثمن فعلًا، لأنه يحيط بكل سمة من سمات الحياة اليهودية المعاصرة، كما امتد تأثيره أبعد بكثير من عصره وبلاد إقامته. وكانت كتاباته متسعة ومختلفة، بما في ذلك التعليقات الدينية، هالاخا (ميشنا التوراة)، والطب والرسائل والفلسفة والعلوم. وفي كتابه «دليل الحيارى» وضع نظامًا فلسفيًا كاملًا لترجمة التوراة اليهودية. وقد عالج الكتاب المشكلات التي أوجدتها المسيحية والإسلام معًا والتهديد الذي فرضاه على البقاء الروحي والجسدي للشعب اليهودي[3]. كان الكتاب موجهًا بشكل أولي إلى المثقف اليهودي القوي في إيمانه لكنه، بعد دراسته للفلسفة، كان مرتبكًا من إضفاء الصفة البشرية على الأشياء في التوراة. ولإدراكه أخطار تعليم الأمور الباطنية لعامة الناس، كتب المفكر الكبير بأسلوب مبهم، واضعًا أقوالًا متناقضة، ومستخدمًا هذه التعارضات وتاركًا القارئ الواعي في النهاية ليكتشف أفكار المؤلف الحقيقية[4].

من المحزن أن مساهمة الشعب اليهودي في تطوير الثقافة الأوروبية بالخدمات التي قدمها في الترجمة ونشر التعلم ومساهمته الكبيرة في فن الطب لم تُقابل بالامتنان من الدول المسيحية التي عاش فيها. على أية حال، كان العالم الأوروبي يتغير ببطء،

---

(1) برناوي، علي (تحرير)، **أطلس تاريخي للشعب اليهودي**، ص 100.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 101.

(3) بينارت، تشيام، **أطلس التاريخ اليهودي في العصور الوسطى**، ص 55.

(4) برناوي، علي (تحرير)، **أطلس تاريخي للشعب اليهودي**، ص 102.



لأن المستكشفين مثل ماركو بولو بدؤوا السفر إلى الأراضي الشرقية وتسجيل تجاربهم للأجيال القادمة. وكان ثمة إدراك متزايد بحجم بقية العالم وطبيعته الغريبة قد تعزز بكتابات روبروك ودي جوانفيل وآخرين.

شهدت المدة بين عامي 1250 ـ1320 تطورًا مهمًا في نمو الذهن الأوروبي، فبينما كانت الآفاق الفكرية لمحاربي القرن الحادي عشر، الذين استمعوا إلى أغنية رولاند، ضيقة ومحدودة تمامًا، أصبح الغربيون، مع ذلك، يدركون مع بداية القرن الرابع عشر أن العالم يحتوي على الجبال والبحار، والحيوانات والبشر، والعادات والمعتقدات المختلفة بشكل لا يمكن تصوره عما كان مألوفًا لديهم في أوطانهم. ولا يمكن أن يكون من قبيل المصادفة كليًا أن المدة نفسها كان يجب أن تترك لنا دليلًا على بزوغ أول فجر باهت لفكرة إمكان وجود تعدد للأديان في العالم أيضًا. كان هذا في الحقيقة تطورًا حاسمًا جدًّا في نضج ذهن العالم المسيحي الأوروبي، لكنه نضج كان سيأخذ وقتًا طويلًا جدًّا كي يثمر[1]. فعلى الرغم من الاهتمام المتأخر بالثقافة في بعض الدول المسيحية، كان التباين المستمر في المواقف تجاه التعلم والتسامح الديني بين الثقافتين المسيحية والإسلامية قد أصبح واضحًا بقسوة خلال زمن الحملات الصليبية. وعندما كان المسيحيون المتنورون يجلسون عند أقدام العلماء المسلمين في إسبانيا، كان الآخرون يبتهجون بذبح «الكفار» بعد الاستيلاء على القدس.

(1) فليتشر، ريتشارد، **الصليب والهلال**، ص 99.




مكتبة
الفكر الجديد

الجزء الرابع




مكتبة
الفكر الجديد

أوروبا المسيحية والرد على الإسلام

كانت الحياة بالنسبة إلى غالبية الناس في البر الأوروبي المسيحي قصيرة وقاسية وهمجية عند مقارنتها بالنظام المتطور والمتعلم والمتسامح في إسبانيا الإسلامية. **وهناك كان التسامح الديني الذي شكّل عنصرًا مكملًا للإسلام، متضافرًا مع مستوى عالٍ من الاستقرار السياسي، قد ضمن الازدهار لعامة الناس والتعليم للكثيرين، بغض النظر عن إيمانهم الديني، وقبل كل شيء، التسامح مع أهل الكتاب.**

كان المسار المضطرب غالبًا للأحداث الذي ندعوه بالتاريخ نادرًا ما يتوافق مع حاجات أي مؤرخ موضوعي، وهكذا لفهم تطور العداء الدائم الموجود كما يبدو بين عالمي المسيحية والإسلام علينا الرجوع بالزمن إلى الوراء. في البداية، كان ردّ المسيحيين في غرب أوروبا على نشوء الإسلام في حدّه الأدنى حتى غزا محاربو شمال أفريقيا إسبانيا. وهناك، بعد حملة قصيرة جدًّا، ظهر الرد في الفرار إلى الجيوب المسيحية الباقية في الأقاليم الشمالية الشرقية من تلك البلاد. وكانت المقاومة المسلحة للهجمات الإسلامية داخل أرض الفرنجة، أي فرنسا المعاصرة، تواجه مقاومة شديدة وأُوقف التقدم الإسلامي وبعد ذلك أجبر على التراجع في معركة بواتييه بقيادة شارل مارتل. على أية حال، تسببت سياسة شارلمان في الاحتواء بإنشاء سلسلة من الدويلات الحاجزة التي حَدَّتْ من أي تقدم كبير آخر للقوات الإسلامية إلى منطقته. وهكذا ظهرت سبتيمانيا والتخوم الإسبانية إلى حيز الوجود. تضمنت أراضي التخوم الإسبانية برشلونة التي كانت مجاورة لمملكة نافار الشمالية المسيحية. وقد استمر الاحتلال الإسلامي للأراضي البيزنطية في صقلية ومالطا أكثر من قرن بقليل وانتهى الحكم الإسلامي على هاتين الجزيرتين بشكل عملي مع إنشاء مملكة النورمانديين في صقلية وجنوب إيطاليا عام 1071.

مكتبة الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد

الفصل العاشر

أوروبا وجذور الجهاد المقدس

صُدم العالم المسيحي كله ورُوّع حين سقطت القدس بيد الجيوش الإسلامية عام 638، ولكن وفقًا للمبادئ الأساسية في دينهم، كان الغزاة المسلمون متسامحين جدًّا مع رعاياهم المسيحيين. وفي الحقيقة، لقد فضل العديد من المسيحيين تحت حكم الإمبراطورية الإسلامية آنذاك الحياة التي عاشوها تحت حكم سادتهم السياسيين على التي تحملوها طوال قرون تحت تعاقب من الأباطرة البيزنطيين الذين فرضوا عليهم ضرائب مفرطة واضطهدوهم غالبًا بسبب معتقداتهم «الكافرة»؛ الكافرة على الأقل بنظر حكام القسطنطينية آنذاك لكنها، مع ذلك، اعتقادات معتنقة بثبات في فلسطين وسوريا ومصر. وقد سمح لهم حكامهم الكبار المسلمون الجدد آنذاك بالإيمان بما يريدون والعبادة كما يرونه مناسبًا[1].

قيود المسيحية

كانت أوروبا المسيحية بعد مجلس نيقيا عام 325 ميلادي بعيدة عن التسامح، فالمسيحية كانت دينًا انعزاليًّا استخدمه قسطنطين الكبير وورثته على هيئة قوة موحِّدة لربط رعاياهم جميعًا بالحكومة الإمبراطورية[2]. ومع سقوط الإمبراطورية الغربية في القرن الخامس الميلادي، اكتسحت العالم الروماني موجة إثر موجة من الهمج الرُّحل عبر الراين والدانوب على نحو متكرر، وتفتت نسيج الحضارة الغربية. وفي العقود الأخيرة من القرن السادس أُسدل ستار من الظلام على قلب منطقة روما القديمة.

(1) بريدج، أنتوني، الحملات الصليبية، ص 26.
(2) رونسيمان، ستيفن، تاريخ الحملات الصليبية، ج 1، ص 6.



ورحب البابا غريغوري الكبير (590ـ604 ميلادي) فعلًا بوباء فتاك كان يدمر إيطاليا آنذاك بالكلمات: «حين نفكر في الطريقة التي يموت فيها غيرنا من الناس... يمكننا أن نشعر بالراحة من نوعية الموت التي تهددنا»[1].

خلال القرون التالية أمكن عمل القليل لوقف هذا الانحدار نحو الدمار والفساد، وفي الحقيقة لقد عجلت أشياء كثيرة بذلك، إلا في عهد شارلمان[2]. فالتجارة بعيدة المدى تلاشت تقريبًا، باستثناء تلك التي واصلها غالبًا اليهود وسكان شرقي البحر المتوسط بالأشياء الكمالية الثمينة والقيّمة جدًّا مثل المجوهرات والعاج المنحوت والبخور للكنيسة. وهكذا كان كل مجتمع صغير مجبرًا على الاكتفاء ذاتيًا والاعتماد على نفسه قدر الإمكان[3]. وكما أتى وصفه في فصل سابق كانت دولة الفرنجة التي تطورت تحت حكم شارلمان واسعة وقوية، لكنها، بالمقارنة مع الإمبراطورية الإسلامية التي يحكمها هارون الرشيد كانت مثل سمكة صغيرة قياسًا إلى حوت. فقد اعتمدت قوة شارلمان على ولاء أرستقراطية عسكرية جامحة أصلًا. كما حكمت هذه العائلات الكبيرة مقاطعاتها بالقوة العسكرية بدلًا من أي شكل يمكن تمييزه من الحكومات الإدارية.

كانت معرفة القراءة والكتابة مقتصرة على رجال الدين، حتى من نالوا درجات كهنوتية كانت هذه المعرفة عندهم متخلفة، على الأقل في المستويات الأدنى. ولم تكن القراءة والكتابة مهارات ذات قيمة في أوروبا، كما كانت في العالم الإسلامي. كانت الدراسة العلمية والفلسفية لليونانيين القدماء قد تلاشت بسبب تعصب الكنيسة الفطري تجاه أي شيء مصبوغ بالتأثير الوثني. وكان قد استبدل بتعلم الآثار الكلاسيكية القديمة ثقافة فكرية ضيقة ومحدودة «ذات طابع مسيحي» استندت أساسًا إلى الكتاب المقدس وأعمال آباء الكنيسة اللاتينيين الأوائل، مثل القديس أوغسطين أسقف هيبو. وتطورت هكذا ثقافة ضيقة ومحافظة بعمق، نظرت إلى الداخل والوراء باتجاه سنوات الكنيسة الأولى وليس أبعد من ذلك[4].

مع نهاية عهد شارلمان، سيطرت القوة الإسلامية على الطرف الغربي للبحر

(1) بريدج، أنتوني، **الحملات الصليبية**، ص 15.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 16.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 17.

(4) فليتشر، ريتشارد، **الصليب والهلال**، ص 50.



المتوسط من كتالونيا في إسبانيا إلى تونس في شمال أفريقيا. ونهب القراصنة المغاربة المسلمون شحنات سفن مسيحية، وبنت القوات الإسلامية القلاع في إيطاليا وفي بروفانس، وكانت روما نفسها قد نهبها المسلمون عام 846[1]. بدأ الغزو الإسلامي لصقلية عام 827 وعلى مدى أكثر من جيل بين عامي 843 و871 حافظ المسلمون على موطئ قدم مهم لهم في البر عند باري في أبوليا، ومنه أطلقوا هجمات منتظمة على الساحل الأدرياتي من إيطاليا ودلماشيا. وبعد طردهم أخيرًا من قاعدتهم في باري، حازوا أخرى قرب نابولي واحتفظوا بها حتى عام 915. وحين أصبحت السيطرة على صقلية محكمة، قاموا بمهاجمة المناطق البحرية في كلابريا مرات عدة[2]. كذلك تأسس وكر مزعج للقراصنة المغاربة المسلمين قرب نهاية القرن التاسع في منطقة بروفانس المعاصرة في لا غارد فرينيه على بعد نحو 30 ميلًا إلى الداخل من سان تروبيز. أرهب المسلمون المنطقة المحيطة لمدة نحو 80 سنة حتى دُمِّرت قاعدتهم في لا غارد فرينيه عام972[3]. وأخيرًا، في القرن الحادي عشر، تركزت فرق مختلفة من المرتزقة النورمانديين في جنوب إيطاليا وبعد ذلك، بشكل تدريجي، بين عامي 1060 و1091، انتُزِع بنجاح كل من صقلية ومالطا من أيدي المسلمين[4].

في عصر ما قبل الحملات الصليبية، كانت المجاعة متفشية في أوروبا طوال 48 سنة من أصل 100. وبحلول القرن الحادي عشر لم يعد الغزو الذي تقوم به موجات الهمج يشكل خطرًا أساسيًّا للمجتمع المسيحي الغربي، لأن ذلك المجتمع نفسه أصبح همجيًّا. كانت الحرب والوحشية سائدتين؛ فقد قاتل كل سيد إقطاعي صغير، وقاتل الإقطاعيون الملوك، وقاتل الملوك أحدهم الآخر ولم تكن توجد سلطة مركزية لها قوة كافية للسيطرة عليهم، ناهيك عن وضع حدّ لعداءاتهم القاتلة. كان الملوك وملاك الأراضي مجرد مجرمين أميين يفتقرون إلى أي مظهر من مظاهر الشرف، ويخون بعضهم بعضًا الآخر من دون انزعاج، ويكذبون ويغشون ويُغيرون ويعذبون ويقتلون في عالم مرعب يغذيه الخوف والطمع والطموح[5]. أما الأدب الذي كان هناك، الملاحم

(1) رونسيمان، ستيفن، **تاريخ الحملات الصليبية**، ج 1، ص 88.

(2) فليتشر، ريتشارد، **الصليب والهلال**، ص 42ـ44.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 44.

(4) المصدر السابق نفسه، ص 82.

(5) بريدج، أنتوني، **الحملات الصليبية**، ص 18.



الشعبية التي تُروى بدلًا من أن تُقرأ، فقد أضفى هيبة كبيرة على البطل العسكري، وبالنتيجة، اكتسب المنادي بالسلم سمعة سيئة لم يتعافَ منها أبدًا[1].

لم تقم الكنيسة، التي زعمت التقيد بنصائح الرجل الذي دعته «أمير السلام» أي المسيح الوديع، على الأقل بمحاولة تهدئة هذه الهمجية أو الحد من مداها. كان لدى أساقفة أكيتين، المجتمعين لحماية حصانة رجال الدين في مجلس شارو عام 989م، الشجاعة والالتزام لاقتراح أن على الكنيسة واجب ضمان تمكين الفقراء من العيش بسلام[2]. ولم يستطيعوا، طبعًا، تنفيذ ذلك على نحو فعال، ولكن، خلال مجمع كنسي عُقد في تولوز في روسيون عام 1027م، منع أوليبا، أسقف فيشي، كل قتال خلال ساعات أيام السبت اليهودي[3]. كان هذا قد اتسع فيما بعد ليتضمن أيام الأعياد الكنسية، وبعد مدة من الزمن لاحقًا، أعلن رئيس أساقفة روين «هدنة الله»، التي حاولت اقتصار الحروب الخاصة على ثلاثة أيام في الأسبوع فقط[4].

كانت فكرة «هدنة الله» قد رسخت جيدًا عند منتصف القرن، مع أنها كانت تتكرّم في أغلب الأحيان بخرقها بدلًا من مراعاتها، لذلك سعى مجلس ناربون المنعقد عام 1054 إلى التنسيق بينها وبين فكرة «سلام الله»، بقصد حماية أملاك الكنيسة وأملاك الفقراء من تأثيرات الحرب. وأكد المبدأ الأساسي أن أي مسيحي يجب ألا يذبح مسيحيًا آخر «لأن من يذبح مسيحيًا يريق دم المسيح»[5]. على أية حال، كان الولع الفطري بالقتال لدى الغرب وتذوقه طعم المجد العسكري لا يمكن إخماده بسهولة فائقة لذلك كان يُعتقد أنه من العملي أكثر محاولة استخدام هذه الطاقة الهمجية بتحويلها إلى حرب ضد الكفار[6]. ولم تكن فرص القيام بذلك تمامًا ستتأخر طويلًا في حدوثها.

قتال المسلمين المغاربة في إسبانيا

في عام 1014، حاول الملك سانشو الثالث عاهل نافار، الملقب بالعظيم بعد توحيد

---

(1) رونسيمان، ستيفن، **تاريخ الحملات الصليبية**، ج 1، ص 84.
(2) مانسي، **كونسيليا**، ج 19، ص 89-90.
(3) المصدر السابق نفسه، ج 19، ص 483-488.
(4) بريدج، أنتوني، **الحملات الصليبية**، ص 18.
(5) مانسي، **كونسيليا**، ج. 19، ص 827.
(6) رونسيمان، ستيفن، **تاريخ الحملات الصليبية**، ج 1، ص 87.



مملكته مع قشتالة، تنظيم تحالف مع الأمراء المسيحيين لمحاربة الغزاة المسلمين. وفي الحقيقة، كان شنّ حرب ضد الكفار في إسبانيا سرعان ما سيكتسب منزلة الجهاد المقدس، وبمرور الوقت، بدأ الباباوات في روما بتأدية دور مهم في تنظيمها. ووعد البابا ألكسندر الثاني (1061م-1073م) بالغفران الكنسي والصفح عن الذنوب كلها بالنسبة إلى جميع الذين قاتلوا من أجل القضية المسيحية في إسبانيا[1]. تواطأت الأحداث داخل إسبانيا الإسلامية لتسهيل هذا التحرك باتجاه الجهاد المقدس وإعادة الغزو بوساطة الجيوش المسيحية. كان القرن الحادي عشر قد أصبح زمن الجَيَشان في الأندلس، لأن الدولة القوية والموحدة المتمركزة في قرطبة والتي كانت مفروضة هكذا في بداية قرنها العاشر، واجهت آنذاك مزاعم فيها نزاع حول الخلافة، وحربًا أهلية وتجزئة. وحلّ محلها عدد من الإمارات الضعيفة، و«دول المدن» الصغيرة التي توجد، على سبيل المثال، في أماكن مثل إشبيلية أو فلنسيا وريفهما المحيط بهما، والتي أصبحت معروفة باسم الدول الصغيرة، أو ممالك الطوائف[2]. ومع الهجوم المُجَدّد من المسيحيين بدأت تسقط ببطء الواحدة بعد الأخرى واستولى القشتاليون على مدينة طليطلة المهمة نفسها عام 1085م.

لم تكن الحرب وإعادة الغزو مركز الاهتمام الوحيد للمسيحية في إسبانيا. كان الحج إلى موقع ضريح القديس يعقوب الكبير في كومبوستيلا وسيلة أساسية لإظهار الولاء الديني طوال قرون. اكتُشف القبر المزعوم للحواري يعقوب أولًا في وقت ما بين الأعوام 813 و818 ميلادي، لكن ما يدعو للسخرية هو أن أول وصف للحج إلى هذا الموقع قام بتسجيله عام 844 ميلادي العالم المسلم ابن يحيى. وتعززت المدينة المزدهرة التي نمت حول الضريح بفيض مستمر من الحجاج الذين شقوا طريقهم المحفوف بالمخاطر إلى هناك من جميع أنحاء أوروبا وعلى امتداد ساحل الممالك المسيحية في شمال إسبانيا[3]. كان الحج ذا أهمية حيوية للذين يعيشون في العصور المظلمة والعصور الوسطى التي تلتها؛ فالحياة كانت صعبة وقاسية وقصيرة. ودفع الخوف المتواصل من اللعنة الأبدية أشخاصًا يائسين إلى تحقيق أي مطلب يمكن أن توجهه الكنيسة لهم، خصوصًا ما يحمل معه وعدًا بغفران الذنوب وضمان الدخول إلى الجنة. وهكذا كان للحج، والمشاركة في الحملات الصليبية لاحقًا، جاذبية لا تقاوم تقريبًا. ثم تطور تسلسل جغرافي هرمي لمواقع

(1) رونسيمان، ستيفن، **تاريخ الحملات الصليبية**، ج 1، 90-91.
(2) فليتشر، ريتشارد، **الصليب والهلال**، ص 72.
(3) والاس - ميرفي وهوبكنز، **روسلين حارسة أسرار الكأس المقدسة**، ص 142.



الحج المقدسة المشابهة لهذا، وجرى تصنيف كومبوستيلا في إسبانيا بعد روما، المدينة التي يُفترض أن القديس بطرس والقديس بولس دفنا فيها، وصُنّفت روما، بدورها، الثانية مباشرة بعد القدس والأماكن المقدسة في فلسطين حيث عاش المسيح نفسه. كان الحج إلى هذه الأماكن واكتساب مغفرة أبدية لذنوب المرء أعمق رغبة لكل شخص[1].

في منتصف القرن الحادي عشر، كان وضع المسيحيين الذين يعيشون في الأرض المقدسة نفسها نادرًا ما يبدو ممتعًا جدًّا. كانت السلطات الإسلامية متساهلة، وكانت التجارة مع الدول المسيحية عبر البحار مزدهرة ومتزايدة معًا ولم يسبق أن رأى مسيحيو القدس هذا القدر من الثروة يأتي إليهم مع الفيض المتزايد للحجاج من الغرب[2]؛ وخلال القرن الحادي عشر عمليًّا، على الأقل حتى عقديه الأخيرين، تدفق سيل لا ينتهي كما يبدو من الحجاج شرقًا إلى الأرض المقدسة، يسافرون أحيانًا ضمن جماعات يصل تعدادها إلى الآلاف، مكونة من رجال ونساء من كل عمر وطبقة اجتماعية[3]. بالإضافة إلى ذلك، اعتمد نجاح الحج إلى القدس على استمرار شرطين: الحياة في الأرض المقدسة والدول المحيطة بها يجب أن تكون منظمة بما يكفي للحاج الأعزل أن يمر بأمان؛ وثانيًا، الطريق يجب أن يبقى مفتوحًا وقليل التكلفة بما يكفي لأن يتحمل الحجاج نفقاته[4].

كانت الحالة السعيدة التي أتاحت لهذا الحج الجماعي أن يحدث، أي التسامح الإسلامي مع أهل الكتاب، قد وصلت كما يبدو إلى نهاية مفاجئة في 19 أغسطس/ آب 1071. وقبل ذلك الحين، في عام 1055، كان الأتراك السلاجقة، الذين تزايدت قوتهم طوال سنوات عدة ، قد دخلوا بغداد بدعوة من الخليفة، وفيما بعد، سرعان ما أصبحوا السادة الحقيقيين للإمبراطورية الإسلامية التي امتدت من وسط آسيا وجنوب روسيا إلى الحدود الشمالية لسوريا[5]. وفي عام 1071، استولى المغامر التركي أطز بن أباك على القدس من دون قتال ثم احتل بقية فلسطين حتى قلعة عسقلان الحدودية. وفي عام 1075 استولى على دمشق والدمشقيين، وأصبح وريثه، الأمير السلجوقي طوطروش، الحاكم

(1) بريدج، أنتوني، **الحملات الصليبية**، ص 26.
(2) رونسيمان، ستيفن، **تاريخ الحملات الصليبية**، ج 1، ص 37.
(3) المصدر السابق نفسه، ج 1، ص 49.
(4) المصدر السابق نفسه، ج 1، ص 50.
(5) بريدج، أنتوني، **الحملات الصليبية**، ص 26.



الوحيد لدولة تمتد من حلب إلى حدود مصر عام 1079[1]. لم يتضمن المد المتصاعد للهيمنة السلجوقية أراضي الإمبراطورية الإسلامية فحسب، بل تجاوز أيضًا شريطًا واسعًا من الأرض في آسيا الصغرى كانت تحكمه الإمبراطورية البيزنطية طوال قرون.

الإمبراطورية البيزنطية

حسب البيزنطيون أنفسهم ورثة الإمبراطورية الرومانية القديمة ونظروا إلى عاصمتهم القسطنطينية على أنها روما الجديدة. بالنسبة إلى هؤلاء الناس، كان حاكمهم هو الوريث الوحيد والشرعي لأباطرة روما القديمة. كما كان أداة شعب الله المختار، أي هم أنفسهم، والحواري الثالث عشر لله. ولا داعيَ للقول إن هذا لم يكن رأيًا مشتركًا على نطاق واسع في الغرب لأن رفاقهم المسيحيين هناك رأوا الإيمان البيزنطي بالمنزلة المعطاة إلهيًا لإمبراطوريتهم دلالة على تكبر غير عادي، كذلك، أكثر البابا في روما من السخرية بمزاعم «ملك اليونانيين» أنه الوريث الشرعي للسلطة الرومانية. ولتعقيد هذا الصراع على السلطة بين البابا والإمبراطور نشأت بحلول القرن الحادي عشر خلافات دينية جدية بين الكنيستين الشرقية والغربية، وعلى مستوى عالٍ بين هذه كانت المسألة الشائكة حول الطبيعة الحقيقية للسلطة البابوية ومدى اتساعها[2].

كان يقابل هذه الخلفية طويلة العهد للنزاع والمعارضة أن على الإمبراطور البيزنطي التصرف حين يواجه غزو الأتراك السلاجقة لمعظم أراضيه. وهكذا فإن ألكسيس الأول كومنينوس (1081ـ1118)، إمبراطور بيزنطية، لم يناشد مسيحيي الغرب لمساعدته في استعادة ثروات إمبراطوريته، ولم يطلب منهم ببساطة طرد الأتراك من آسيا الصغرى، وهو ما كان بالتأكيد على رأس جدول أعماله الشخصي. وبدلًا من ذلك ناشد البابا لمساعدته في إنقاذ مسيحيي الشرق وكنائسهم من استبداد غزاتهم المسلمين. فقد اشتكى الإمبراطور ألكسيس من عدم تحمل تعرض مسيحيي الأرض المقدسة والأماكن المقدسة داخل تلك البلاد للسحق آنذاك تحت الأقدام المستبدة للأتراك الكفار. عندئذ ناشد ألكسيس البابا أوروبان الثاني (1088ـ1099) لمساعدته[3].

---

(1) رونسيمان، ستيفن، تاريخ الحملات الصليبية، ج 1، ص 75ـ76.
(2) سجلات الحملات الصليبية، ص 20.
(3) بريدج، أنتوني، الحملات الصليبية، ص 44.



مع معرفة واقع أوروبا الغربية القاسي في ذلك الوقت، ثمة إحساس مخيف بالحتمية حول الفكرة الكاملة للجهاد المقدس ضد الأتراك لإنقاذ الأماكن المسيحية المقدسة؛ وبدا مؤكدًا أنها ستخطر ببال شخص ما وقد أثارت إعجاب البابا أوروبان طبعًا. وحركت كلماته رد فعل في قلوب الرجال والنساء العاديين وعقولهم في جميع أنحاء أوروبا الغربية، إلى درجة أن تاريخ كل من أوروبا والعالم كان سيتغير بصورة مثيرة عن طريقهم ـ ولكن على نحو مختلف جدًّا عما تمناه الإمبراطور[1].

أرسل ألكسيس السفراء لحضور مجلس أوروبان الكنسي الكبير الأول في كريمونا في مارس/ آذار 1095. وقدموا وصفًا حيًّا ومبالغًا فيه لمحنة المسيحيين المقيمين في الشرق تحت الهيمنة التركية. لكن البابا، الحذر جدًّا بطبيعته، لم يستجب فورًا لأنه كان بحاجة إلى الوقت لتطوير ردّ يمكن أن يحل المشكلة المعروفة للاضطهاد التركي ولمنحه أيضًا درجة ما من السلطة على المسيحية البيزنطية.

الدعوة إلى الحملة الصليبية الأولى

أخيرًا استدعى البابا أوروبان أساقفة فرنسا للانضمام إليه في مجلس كنسي آخر في كليرمونت، حيث أعلن أوروبان، قبل توقع انتهاء المجلس مباشرة، أنه سيدلي بتصريح مهم في جلسة أمام الناس عامة يوم الثلاثاء 27 نوفمبر/ تشرين الثاني. استخدم البابا، الخطيب المفوه، مهاراته كلها وسحَر جمهوره. وزعم البابا أن المسيحيين في الشرق ناشدوه مؤخرًا للمساعدة ضد الأتراك الذين كانوا يتقدمون داخل الأراضي المسيحية، ويسيئون معاملة الرجال والنساء المسيحيين الأبرياء ويدنسون كنائسهم. كان هذا بالتأكيد سببًا كافيًا للقلق، ولكن، لجعل الأمور أسوأ، راح الأتراك يدنسون الأماكن المقدسة في القدس أيضًا ويمارسون أمورًا مذلة ووحشية مروعة على حجاج الأرض المقدسة. وجاء وقت المسيحيين في الغرب ليثوروا بغضب محق ويزحفوا للإنقاذ. إذًا ليتوقف مسيحيو أوروبا عن مقاتلة بعضهم بعضًا وليشنوا جهادًا مقدسًا ضد أعداء الله بدلًا من ذلك. وزعم البابا أن الله نفسه سيقودهم في المعركة ويمنحهم نصرًا مقدسًا.

وعد أوربان أن العفو ومغفرة الذنوب كليهما سيُمنح لجميع من «حملوا

(1) بريدج، أنتوني، **الحملات الصليبية**، ص 39ـ41.



الصليب»[1] وماتوا في المعركة لتحرير الأرض المقدسة من الأتراك. سببت هذه الرسالة المهيجة ردًّا فوريًّا ـ صيحات عالية تنادي Dieu le volte، «هذه إرادة الله». كان أوروبان قد حرك سلسلة من الأحداث التي كانت أكبر بكثير مما كان لديه أي مسوغ لتوقعها. وقد انتشرت موجة عارمة من الحماسة من كليرمونت عبر فرنسا وتدفقت متجاوزة حدودها إلى كل دولة في أوروبا الغربية، موجة جعلت جميع الشعوب المسيحية تتقد بتأجج متشدد[2]. كانت أعمالهم ستترك ندبة في العلاقة بين الغرب المسيحي والعالم الإسلامي لن تلتئم بشكل كامل ـ تلك النتيجة كانت الحملات الصليبية[3].

استعدت مجموعات مختلفة، في جميع أنحاء أوروبا، للانطلاق بحلول فصل الصيف، معتقدين أن الله سيكون دليلهم[4]. في تلك السنة بوركت أوروبا بحصاد وفير لكل من الحبوب والنبيذ، فقد بدا وكأن الله نفسه رتب الأمور ليرعى الحملة الصليبية القادمة بحيث لا يمكن لأي شيء أن يتعثر نتيجة نقص في تدابير هذا المشروع المقدس. انطلق أولًا هيو أوف فرماندوا، أخو الملك فيليب عاهل فرنسا؛ وتلاه بوهيموند أوف تورانتو، كونت أبوليا. وتحرك غودفروا دي بوليون، دوق اللورين الأدنى، عبر هنغاريا بينما عبر دلماشيا الكونت ريموند أوف تولوز وجيشه البروفنسي إلى جانب أدهيمر أسقف لي بوي. وفي أكتوبر/ تشرين الأول عام 1096، انطلق روبرت دوق نورماندي باتجاه الأرض المقدسة برفقة ستيفن أوف بلوا وروبرت كونت فلاندرز[5]. وأبعد من أن تكون حملة موحدة ومتماسكة، كانت الحملة الصليبية الأولى، بذلك، مكونة من سلسلة مجموعات مستقلة صغيرة مبعثرة متنافرة من المقاتلين يمكن وصفها فقط بالرعاع المسعورين غير المنضبطين المؤلفين من الفلاحين المتحمسين الذين كانوا، على عكس طبقة المحاربين، غير مستعدين على نحو غريب لمواجهة المحن التي تنتظرهم. كان يوحد الجميع هدف بسيط واحد: قتل أعداء المسيح.

(1) **فلتشر أوف شارتر**، الكتاب 1، الفصل 3، ص 130ـ138؛ **روبرت الراهب**، 1، 1ـ2، ص 727ـ729.
(2) بريدج، أنتوني، **الحملات الصليبية**، ص 5ـ45.
(3) المصدر السابق نفسه، ص 27.
(4) **فلتشر أوف شارتر**، الكتاب 1، الفصل 3، ص 130ـ138؛ **روبرت الراهب**، 1، 1ـ2، ص 727ـ729.
(5) **سجلات الحملات الصليبية**، ص 64ـ65.



مذابح اليهود

شكّل كاهن يدعى غوتشالك جيشًا صغيرًا من الرجال في اللورين وبافاريا، كما فعل رجل دين آخر في بوهيميا، اسمه فولكمار، الشيء نفسه، وجمع الكونت إيميتش أوف ليزنجن جيشًا آخر أكبر أيضًا في راينلاند. ومن ناحية ثانية، قبل أن يغادر أي من هؤلاء الأشخاص آسيا الصغرى طرح أحدهم هذا السؤال: «ألم يكن هناك أعداء للمسيح أقرب في الوطن، من يجب التعامل معه أولًا؟» وفي الحقيقة، «لماذا يجب عليهم أن يزحفوا ما يزيد على 2000 ميل عبر مناطق أجنبية لمحاربة الأتراك بينما كان بعض أفراد العرق الذي صلب المسيح يعيشون في كل مدينة أوروبية عظيمة؟»

مع تمتع اليهود طويلًا بمستوى حماية معين من أكثر الحكام المسيحيين تسامحًا، لم يسبق أن كانت لهم شعبية في أوروبا[1]. وهكذا شهدت بداية صيف عام 1096 تفشي حالات إجرامية من معاداة السامية العنيفة في العديد من الممالك المسيحية. وكان إيميتش أوف ليزنجن هو الذي قام بالتحرك الأول عندما هاجم هو وبعض رجاله يهود سبير في الثالث من مايو/ أيار، وقتلوا العشرات منهم قبل إجبار يهودية شابة على قتل نفسها بدلًا من تعرضها للاغتصاب. وبعد حوالي أسبوعين زحف بجيشه إلى مدينة وورمز، حيث كان اليهود لسبب ما مكروهين أكثر من الأماكن الأخرى. وحالما أصبحت نواياه معروفة، انضم رعاع من الفلاحين المحليين بحماسة إلى هجوم رجاله الشرير على الحي اليهودي. وكان أسقف وورمز قد فتح قصره لتقديم ملجأ لليهود، ومع ذلك شق إيميتش والرعاع طريقهم بالقوة داخل القصر الكنسي وقتلوا 500 رجل وامرأة وطفل.

حينئذ جاء دور يهود ماينتس الذين حاولوا عبثًا رشوة إيميتش بسبعة جنيهات ذهبية لإنقاذ حياتهم. قَبِلَ الرشوة الضخمة بتهذيب لكنه أمر في اليوم التالي بقتل كل يهودي في المدينة. استمر القتل طوال يومين واستطاع عدد قليل منهم الفرار[2]. بعد قيام إيميتش بالقتل الجماعي ليهود راينلاند مباشرة وصلت أخبار هذه المذابح إلى جيش فولكمار في براغ لذلك بدؤوا فورًا بقتل جميع اليهود الذين استطاعوا العثور عليهم. وحتى لا يُترك غوتشالك ورجاله خارج أفعال القتل الديني هذه، توقفوا في راتيشبون لمدة طويلة كافية لقتل جميع اليهود هناك[3].

---

(1) بريدج، أنتوني، الحملات الصليبية، ص 33.

(2) سجلات الحملات الصليبية، ص 69.

(3) بريدج، أنتوني، الحملات الصليبية، ص 54ـ55.



خلال صيف 1096، عندما كان يهود ألمانيا وأوروبا الوسطى يُقتلون على نحو وحشي باسم المسيح، كان مختلف الأمراء والنبلاء الذين أخذوا الصليب يجمعون جيوشهم وإمداداتهم استعدادًا لمغادرتهم، فقد عرفوا أن ما من حملة عسكرية لديها أي فرصة للنجاح من دون تخطيط حذر[1]. في حين كان نبيل الملك الإله، غودفروا دي بوليون، دوق اللورين الأدنى، يستعد للمغادرة، تلقى 1000 قطعة فضية من يهود ماينتس وكولون لتعجيله في طريقه، كذلك جرى اقتراح لإقناعه كي يدعهم بسلام. عندئذ طمأنهم بأنه لم تكن لديه نوايا مؤذية نحوهم، لكن غودفروا، مع ذلك، قَبِلَ عرضهم السخي بامتنان ليعوض النفقات العالية للحملة القادمة[2].

حالما عبرت فرق الفلاحين الهمجيين المتململين وغير المنظمين جيدًا أوروبا الشرقية، ولأنهم غير مستعدين إلى حدّ كبير لرحلتهم، راحوا يسرقون وينهبون حيثما ذهبوا. لم يكن لهذا التدمير لريف الدول المسيحية الأخرى أن يجعل السكان المحليين يحبونهم، وهكذا اندلعت حروب ومناوشات ثانوية خلال ذلك. وعندما قاموا هم والهمجيون ـمع أنهم فرسان حالمون في العالم المسيحي الغربيـ بعبور مضيق البوسفور تحت المراقبة اليقظة للإمبراطور ألكسيس ورفاقه البيزنطيين، اصطدمت ثقافتان مختلفتان جدًّا. كانت الثقافة البيزنطية ذات عراقة، ومتعلمة ومتطورة ومتحضرة إلى حد كبير؛ بينما كانت ثقافة أوروبا الغربية، التي خرجت بشق الأنفس من الهمجية الكلية، مقاتلة عديمة الرحمة وعديمة التسامح على نحو متشدد[3]. وعندما وصلت الجيوش المختلفة واحدًا بعد الآخر، أبقاها الإمبراطور البيزنطي خارج أسوار المدينة، واستضافها وقدم الهدايا إلى قادتها وانتزع قسم الولاء منها[4].

أثبت انتزاع قسم الولاء من القادة المختلفين للحملة الصليبية الأولى أنه بلا معنى، فأي قسم يمكن أخذه وهو يربط مسيحيين غربيين بإمبراطور طائفة ضلالية لم تركع للبابا في روما؟ وكان العديد من النبلاء في الحملة الصليبية أبناء صغارًا من دون أرض لطبقة نبلاء أوروبا الذين أرادوا استقطاع إمبراطورية لهم في الأرض الفلسطينية المقدسة.

(1) بريدج، أنتوني، **الحملات الصليبية**، ص 60.
(2) المصدر السابق نفسه، ص 54.
(3) المصدر السابق نفسه، ص 71.
(4) **سجلات الحملات الصليبية**، ص 60.



وبينما انطلقت القوة الرئيسة للجيش الصليبي نحو أنطاكية، انطلق بالدوين أوف بولونيا، وبصحبته حوالي 100 فارس والمؤرخ فلتشر أوف شارتر، للبحث عن ثروته في وادي الفرات[1].

وقد زُعم أن مغادرة بالدوين أتت نتيجة دعوة من الأمير الأرميني طوروس أمير إيديسا الذي كان يريد مساعدة الصليبيين للحصول على الاستقلال في آن واحد من الأتراك ومن سيده الأعلى الأصلي، إمبراطور بيزنطية. وحالما اتجه بالدوين باتجاه إيديسا، نهض السكان الأرمن لتحيته. تبنى طوروس بالدوين على أنه ابنه ووريثه واختاره فورًا حاكمًا مشاركًا. وسرعان ما خان بالدوين شريكه الجديد، وفي السابع من مارس/ آذار خُلع طوروس، وبعد ثلاثة أيام أصبح بالدوين أول محارب صليبي يحصل على إمارته الخاصة في الشرق. لم تمر ازدواجية بالدوين تجاه طوروس وخرقه قسم الولاء للإمبراطور ألكسيس من دون أن تلاحظه القسطنطينية[2].

على الرغم من جميع المزاعم بمعايير الشهامة الفروسية، كان المحاربون النبلاء في أوروبا الغربية، بشكل أساسي، مجرمين طماعين متوحشين وغير شرفاء. إذ كانت الشهامة والفروسية والشرف قيمًا عليهم مع ذلك أن يتعلموها من خصومهم المسلمين. وقد كشف سلوكهم عند سقوط أنطاكية الحقيقة المروعة الواضحة لمعاييرهم المسيحية حول الفروسية ليراها جميع سكان الشرق. استمر الحصار تسعة أشهر ودافع أمير أنطاكية، ياغي سيان، عن المدينة بشجاعة لم يسبق لها مثيل. وعندما سقطت المدينة في يونيو/ حزيران 1098، حدثت مذبحة همجية حقيقية لم ينجُ منها أحد؛ وجرى ذبح النساء والأطفال الأتراك مع رجالهم بالإضافة إلى عدد كبير من المسيحيين اليونانيين والأرمن[3]. كان هذا سيضع نموذجًا من المحزن أنه سيتكرر غالبًا. أصبح بوهيموند أوف تورانتو كونت أنطاكية رغم شكاوى الإمبراطور ألكسيس الأخرى من أن محاربًا صليبيًّا آخر قد خرق أيضًا قسم ولائه الجدي. بعد الدفاع الناجح عن أنطاكية ضد حصار تركي، حدد بوهيموند والكونت ريموند أوف تولوز تاريخ أول نوفمبر/ تشرين الثاني لخروج الصليبيين من القدس.

---

(1) **فلتشر أوف شارتر**، الكتاب 1، الفصل 14، ص 208.

(2) رونسيمان، ستيفن، **تاريخ الحملات الصليبية**، ج 1، ص 205_207.

(3) بريدج، أنتوني، **الحملات الصليبية**، ص 95.



«تحرير» المدينة المقدسة

خلّفت أعمال الصليبيين عند سقوط القدس لطخة دائمة وقاتمة على أية ذريعة أوروبية حول الشرف والفروسية. ومع ذلك، تبرز تصرفات رجل واحد على شكل مثال متألق عما كان يمكن تحقيقه، لأن ريموند أوف تولوز وحده تصرف بشرف ولياقة. ففي المعركة من أجل برج داود، أدرك المحارب المسلم افتخار الذي كان يحارب ريموند وقواته البروفانسية في وقت مبكر من بعد الظهر أن كل شيء قد ضاع. ومع انسحابه إلى برج داود، عرض أن يسلمه إلى ريموند مع ثروة كبيرة مقابل حياته وحياة رجاله. قبل ريموند هذه الشروط واحتل البرج، في حين تمّت مرافقة افتخار ورجاله بأمان خارج المدينة وسُمح لهم بالانضمام إلى الحامية العسكرية الإسلامية في عسقلان[1]. كان هذا المثال الوحيد للسلوك المتحضر الذي أظهره الصليبيون عندما استولوا على المدينة المقدسة، لأنهم حالما تُركوا أحرارًا داخل الأسوار، تغلبت عليهم شهوة رهيبة لا ترتوي لإراقة الدماء.

لم يكن لدى جيوش المسيح أي شك بأن المدافعين المسلمين عن المدينة كانوا كارهين لله، ومنتهكين للأماكن المقدسة، وخدمًا للمسيح الدجال وعبادًا لرجس الخراب الذي ذكره الكتاب المقدس؛ لذلك قتلوا كل رجل وامرأة وطفل عثروا عليهم بمتعة شريرة. كان هؤلاء الجزارون المتوحشون مقتنعين كليًا بأنهم ينفذون إرادة الله. والرواية الآتية كتبها دايمبرت، رئيس أساقفة بيزا، واصفًا سقوط المدينة المقدسة:

> **إذا كنتم تريدون معرفة ما جرى للأعداء الذين وجدناهم في المدينة، اعرفوا هذا: في رواق سليمان ذي الأعمدة وفي هيكله، خاض رجالنا في دم المسلمين حتى منتصف قوائم خيلنا**[2].

استمر الذبح على امتداد النهار وطويلًا خلال اليوم التالي حتى تقدم المنتصرون، عندما لم يعد ثمة شخص آخر لقتله، عابرين الشوارع التي تناثرت فيها الجثث إلى كنيسة الضريح المقدس وقدموا هناك الشكر لله على بركاته المتنوعة والعظيمة[3]. ولم ينجح السكان اليهود في المدينة المقدسة بشكل أفضل من نظرائهم المسلمين عندما هربوا

---

(1) غيستا فرانكوروم، الكتاب 10، الفصل 38، ص 202ـ204.

(2) رسالة من دايمبرت أوف بيزا وقادة آخرين إلى البابا..

(3) بريدج، أنتوني، **الحملات الصليبية**، ص 111.



بشكل جماعي إلى معبدهم الرئيس، لأنهم لم يلاقوا أية رحمة هناك. كانت المعابد قد أشعلت واحترقوا جميعًا وهم أحياء داخل جدرانها[1]. وعندما ذهب ريموند أوف أغيلر لزيارة منطقة الهيكل، كان مضطرًا إلى شقّ طريقه عبر الجثث والدم الذي وصل إلى ركبتيه[2]. ولا يمكن لأحد أن يذكر بأية درجة من الدقة عدد الناس الذين ذُبحوا، لكن القدس كانت فارغة تمامًا من جميع سكانها المسلمين واليهود. كان للمذبحة تأثير هائل في العالم؛ وشعر العديد من المسيحيين بالرعب وَطَوَّر المسلمون، الذين كانوا خلاف ذلك ربما سيتقبلون الصليبيين على أنهم مجرد عامل آخر في السياسة المعقدة في ذلك الوقت، إرادة متشددة لطرد الفرنجة بأي ثمن. ووفقًا لستيفن رونسيمان، مؤرخ إنكلترا البارز للحملات الصليبية، كان هذا الدليل المتعطش للدماء على التزمت الوحشي المسيحي هو الذي ألهب النيران المتشددة عند المسلمين[3].

على الرغم من جهد الصليبيين الموحد للاستيلاء على المدينة المقدسة، لم يُتخذ أي قرار قبل الحصار حول من سيتولى السلطة في القدس. وبعد ثمانية أيام من المذبحة، كُلِّف مجلس أساقفة ولوردات نبلاء باختيار ملك مناسب. وقرروا أولًا عرض العرش على ريموند أوف تولوز، ولكن ما فاجأ المجلس المجتمع أنه رفض المنصب على أساس أنه لا يمكن أن يكون هناك إلا ملك واحد فقط في القدس، وأن ذاك هو المسيح. بعد ذلك سأل المجلس غودفروا دي بوليون، الذي وافق على تولي القيادة ولكن ليس بلقب ملك[4]. بعد قليل من التشاور، اتخذ غودفروا دي بوليون لقب Advocatus Sancti Sepulchri، «أي المدافع المُكَرّس عن الضريح المقدس»[5]. وقد حكم مدة سنة واحدة فقط لكنه، على فراش موته، سمى أخاه، بالدوين أوف بولونيا، كونت إيديسا، وريثًا له.

(1) ابن القلانسي، **ذيل تاريخ دمشق: سجل دمشق عن الحملات الصليبية**، (ترجمة هـ. أ. ر.) لندن، 1932.

(2) غيستا فرانكوروم، الكتاب 20، ص 204ـ206.

(3) رونسيمان، ستيفن، **تاريخ الحملات الصليبية**، ج 1، ص 287.

(4) بريدج، أنتوني، **الحملات الصليبية**، ص 115.

(5) رايموند أوف أغيلر، 20، ص 301.



الفصل الحادي عشر

المحاربون المقدسون

أدت أرستقراطية الملك الإله في أوروبا الغربية دورًا مهمًّا في الحملة الصليبية الأولى التي قاتل فيها غودفروا دي بوليون وبالدوين أوف بولونيا وريموند أوف تولوز وهنري دي سانت كلير أوف روسلين وآخرون كثيرون، ومات بعضهم، في الحملة المتوجهة لغزو الأرض المقدسة. وبما أن جميع هذه العائلات زعمت انحدارها من عائلات المعمادوت الأربع والعشرين، العائلات الكهنوتية العالية في هيكل القدس، من المعقول افتراض أنهم بحسب رأيهم كانوا ببساطة يستعيدون ميراثهم العائلي. فقد كانوا آنذاك يوشكون على اتخاذ إجراء يعزز قبضتهم غير المستقرة على مملكة القدس.

متآمرو الملك الإله

انضم برنارد دي فونتين، المعروف لاحقًا باسم سانت برنارد أوف كليرفو (1090ـ 1153)، إلى النظام السيسترسي المقاتل، إلى جانب 32 من أصدقائه وأقربائه، عام 1112[1]. وارتفعت مكانته داخل الكنيسة بسرعة مدهشة وحاز موقعًا مؤثرًا لا يُصدَّق تقريبًا في جميع أنحاء العالم المسيحي، وأصبح المستشار الشخصي الرئيس للبابا وناصحًا للملوك والأباطرة والنبلاء. كان انتماؤه إلى الملك الإله مزية واضحة في إنجاز هذا المستوى من القوة والتأثير الكبيرين. عندئذ تعاون برنارد مع أفراد آخرين من العائلات المختفية في مشروع كان سيترك أثرًا دائمًا في التاريخ الأوروبي. تضمن المتآمرون ابن عمه، بيير دي سيرتيه، الذي أصبح لاحقًا بطريرك القدس اللاتيني ؛ وعمه

(1) مقالة بعنوان «الحياة من خلال إصلاح الكنيسة» Une Vie par réforme l'église بقلم ميتشل كلوبير نُشرت في مجلة «برنارد دي كليرفو»، طبعات دي لارغونانت..

مكتبة الفكر الجديد

أندريه دي مونتبارد؛ وهيوز دي بيين، من العائلة الملكية في اللورين؛ وأحد أهم النبلاء في أوروبا في ذلك الوقت، كونت شامبين.

حكم هيوز الأول أوف شامبين منطقة واسعة شرق باريس. وكان ابن ملك فرنسا فيليب الأول في العماد ودان له بالولاء؛ كذلك دان بالولاء للإمبراطور الروماني المقدس ودوق بورغندي. كان كونتات شامبين على قرابة بالدم والزواج مع عائلات الملك الإله في سانت كلير[1]، وملوك فرنسا الكابيتيين، ودوقات بورغندي، ودوقات نورماندي، والملوك النورمانديين والبلانتاجينيت في إنكلترا. كان مقر إقليم هيوز، تروا، مركزًا نادرًا للتعلم في قارة نصف همجية من ناحية أخرى؛ مركزًا جذب العلماء والفرسان والمفكرين ذوي المكانة العالية بالإضافة إلى القيام بدور المضيف ليهود أوروبا المسيحية البارزين اليشيفا بقيادة الحاخام سليمان بن إسحاق، العالم المعروف باسم راتشي. كان راتشي ضيفًا مرحبًا به في بلاط هيوز دي شامبين وحقق سمعة فكرية لا تزال منقطعة النظير بوصفه عالمًا توراتيًا وفيلسوفًا يهوديًا، ويُعد الثاني مباشرة بعد موسى بن ميمون. وبفضل تسامح هيوز دي شامبين، كان راتشي قادرًا على إبقاء مكانة عالية لمدرسة الكابالا في المدينة[2].

في عام 1104، اجتمع هيوز الأول دي شامبين في لقاء سري مع أفراد بارزين لعائلات الملك الإله من بريين ودي جوانفيل وشومون وأنجو. ثم توجه إلى الأرض المقدسة ولم يعد إلى شامبين حتى عام 1108. وفي عام 1114 قام بزيارة أخرى مختصرة وغامضة إلى القدس وعند عودته تبرع بأرض إلى النظام السيسترسي بنى الرهبان عليها دير كليرفو. وجرى تعيين برنارد دي فونتين فورًا أول رئيس لديرها. كانت زيارات هيوز دي شامبين إلى الأرض المقدسة وتبرعه بالأرض إلى السيسترسيين مقدمة لعمل منسق من عائلات الملك الإله، ليس في أوروبا أو في مقاطعة شامبين فحسب، بل في مدينة القدس المقدسة. أدت هذه الأعمال إلى تأسيس نظام الرهبان المقاتلين الذي يتردد صدى اسمه بشكل غامض حتى يومنا هذا ـ **فرسان المسيح وهيكل سليمان الفقراء**، المعروف خلاف ذلك باسم فرسان الهيكل.

---

(1) سانت كلير، ل ـ أ، **تاريخ نسب عائلة سانت كلير**.

(2) والاس ـ ميرفي، تيم، **تراث فرسان الهيكل والميراث الماسوني في معبد روسلين**، ص 18.



تأسيس فرسان الهيكل

احتوى دير للسيسترسيين أسسه برنارد في إمارة سيبورغا شمالي إيطاليا عام 1113 على وثيقة في سجلاته تذكر أن برنارد جاء في فبراير/ شباط 1117 إلى الدير مع سبعة رفاق، وحرروا راهبين سيسترسيين، هما غوندمار وروسال، من نذورهما الرهبانية ثم منحوا الجماعة كلها بركة مهيبة قبل مغادرتهم إلى القدس عام 1118. تعلن الوثيقة أن برنارد سمّى هيوز دي بيين بصفة السيد الأكبر «لميليشيا المسيح الفقيرة» والذي كرسه في تلك الرتبة آنذاك رئيس دير الرهبان إدوارد أوف سيبورغا[1]. من ناحية ثانية، ثمة رواية بعد ذلك بكثير كتبها غيوم الصوري بعد ما يزيد على 70 سنة من الأحداث التي وصفتها، تحدد مكان تأسيس نظام فرسان الهيكل في القدس عام 1118[2]. وبعد منحهم مقرات على جبل الهيكل، في موقع هيكل سليمان كما يُفترض، من الملك بالدوين الثاني خلال بضعة أسابيع من تولي الملك للعرش[3]، اتخذوا أولًا اسم «الجنود الزملاء الفقراء ليسوع المسيح» وأصبحوا معروفين لاحقًا باسم «فرسان هيكل سليمان»[4]. كان الأعضاء المؤسسون هم هيوز دي بيين، الذي أصبح أول رئيس كبير له، وأندريه دي مونتبارد وجوفروا دي سانت أومير وبيين دي مونتيدييه وأشامبود دي سانت أمند وجوفروا بيزول وغودفروا وغوندمار وروسال[5].

كانت هذه المجموعة من الفرسان عشوائية الالتئام كما يُفترض مرتبطة كلها على نحو وثيق بالكونت هيوز الأول أوف شامبين الذي قام بعدة زيارات إلى الأرض المقدسة قبل تأسيس فرسان الهيكل. وعندما عاد إلى هناك عام 1114، وبّخه إيفو، أسقف شارتر، لترك زوجته وتكريس نفسه «لفرسان المسيح» كي يتولى «تلك الفروسية الإنجيلية التي يمكن فيها لألفين أن يقاتلوا بشكل أكيد ضد من اندفع لمهاجمتنا بمئتي ألف»[6]. وثمة ذكر غريب إلى حدٍّ ما للنظام، قبل أربع سنوات مما هو مقبول عمومًا على أنه تاريخ تأسيسه الحقيقي.

---

(1) هوبكنز، سيمانز ووالاس ـ ميرفي، **الملك الإله**، ص 114.

(2) **وليم الصوري**، الكتاب 12، الفصل 7.

(3) روبنسن، جون ج.، **الزنزانة والنار والسيف**، ص 31.

(4) أديسن، تشارلز ج.، **فرسان الهيكل**، ص 5.

(5) نايت، س. ولوماس، ر.، **المسيح المنتظر الثاني**، ص 73.

(6) نيكلسن، هيلين، **فرسان الهيكل**، ص 22.



في عام 1125، بعد بضع سنوات من إنشاء فرسان الهيكل، عاد هيوز دي شامبين إلى الأرض المقدسة وانضم إلى النظام، مؤديًا بذلك قسم الطاعة المطلقة لسيدها الكبير الأول وتابعه الخاص وهيوز دي بيين ابن عم برنارد أوف كليرفو[1] وهيوز أوف شامبين[2]. كان دي بيين معروفًا باسم «هيوز المغربي» بسبب انحداره المباشر من أحد أمراء قرطبة. والرجل الذي عُدّ مؤسسًا مشاركًا لفرسان الهيكل عمومًا، وهو أندريه دي مونتبارد، كان كذلك عم برنارد أوف كليرفو[3]، قريب دوق بورغندي وتابعًا آخر أيضًا للكونت هيوز أوف شامبين. وكان العضو الثالث، جوفروا دي سانت أومير، ابن نبيل فلمنكي بارز، هو هيوز دي سانت أومير[4]. وكان بيين دي مونتيديبه وأشامبود دي سانت أمند كلاهما وثيق القرابة بعائلة فلاندرز الملكية، التي أصبح اثنان من أفرادها، هما غودفروا دي بوليون وأخوه الأصغر بودوان أوف بولونيا، لاحقًا حاكمين لمملكة القدس ـ غودفروا بصفة حامٍ للضريح المقدس، وبعد موته بودوان باسم الملك بالدوين الأول.

تلقى فرسان الهيكل اعترافًا رسميًا من بطريرك القدس في مجلس نابلس عام 1120[5]. ومنح البطريرك للنظام شارته الأولى، وهي صليب أحمر ذو قضيبين. وقد سجل الراهب أوردريك فيتاليس (1075ـ 1141 تقريبًا) أنه في عشرينيات القرن الثاني عشر انضم الكونت فولك الخامس أوف أنجو إلى «فرسان الهيكل» لمدة من الزمن خلال حجه إلى القدس. وعند عودته إلى أوروبا ظل يدفع لهم 30 جنيهًا سنويًا من فضة أنجو لدعمهم. وقد وصف أوردريك فرسان الهيكل بأنهم ـ *venerandi mitlites* ـ الفرسان الذين يجب احترامهم أو الإعجاب بهم كثيرًا، لأنه زعم أنهم كرسوا حياتهم لخدمة الله جسديًا وروحيًا، واحتقروا جميع الأمور الدنيوية وواجهوا الشهادة يوميًا[6].

أحداث غامضة في القدس

كانت الغاية المعلنة لهذا النظام الجديد للمقاتلين الرهبان هي حماية الحجاج في

---

(1) روبنسن، جون، **الزنزانة والنار والسيف**، ص 36.
(2) غاردينر، لورنس، **سلالة الكأس المقدسة**، ص 256.
(3) هوبكنز، سيمانز ووالاس ـ ميرفي، **الملك الإله**، ص 112.
(4) المصدر السابق نفسه، والصفحة نفسها.
(5) نيكلسن، **فرسان الهيكل**، ص 22.
(6) كاتب مجهول، **الجمعيات السرية في العصور الوسطى**، ص 190؛ نيكلسن، **فرسان الهيكل**، ص



الطريق من ميناء يافا إلى القدس. لكن هيوز دي بيين كان عمره 48 سنة في مرحلة تأسيس النظام وبما أن أغلب رفاقه كانوا بعمر مماثل، يصعب تخيل كيف كان تسعة فرسان كهول سينجزون هذه المهمة الضخمة، ولا سيّما حين نفكر بما قاموا به فعلًا خلال السنوات التسع الأولى من وجودهم. فبدلًا من مراقبة طرق الحج بين يافا والقدس، أمضوا وقتهم وهم ينقبون تحت مقرهم مباشرة على جبل الهيكل[1]. في أواخر القرن التاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين، أعاد الملازم وارن من مهندسي الجيش التنقيب ثانية في المحور العمودي الذي حفره فرسان الهيكل ونظام الأنفاق المتشعبة التي ترتبط به. واكتشف أنواعًا مختلفة من مصنوعات فرسان الهيكل اليدوية في الأنفاق، ومنها مهماز وبقايا رمح وصليب صغير لأحد فرسان الهيكل والجزء الرئيس من سيف أحد فرسان الهيكل. وهي الآن برعاية القيّم على محفوظات فرسان الهيكل، روبرت برايدن، في أدنبرة، إلى جانب رسالة من النقيب باركر الذي رافق وارن خلال استكشافاته. وقد أعطى باركر الاكتشافات إلى جد برايدن لحفظها بأمان عام 1912.

هل كانت هذه التنقيبات الهدف الرئيس الذي يكمن وراء تأسيس النظام؟ ما الذي كان فرسان الهيكل يبحثون عنه بالضبط؟ وماذا وجدوا؟ وكيف عرفوا أين يحفرون؟ وبالأهمية نفسها، كيف حصلوا على أماكن فوق موقع تنقيبهم مباشرة؟ رغم استحالة توثيق الأجوبة عن أي من هذه الأسئلة، من المعقول تخمين الأجوبة المحتملة عن بعضها، استنادًا إلى بعض الأسس الحقيقية.

ثمة دليل غير محتمل إلى حدٍّ ما قد يكون نحتًا على عمود في الرواق الشمالي لكاتدرائية شارتر يصور تابوت العهد منقولًا على عربة ذات عجلات[2]. يروي الكتاب المقدس أن تابوت العهد جرى دفنه عميقًا تحت الهيكل في القدس قبل الغزو البابلي بمدة طويلة وتزعم أسطورة أوروبية قديمة العهد أن هيوز دي بيين تمّ اختياره لاسترجاعه وإعادته إلى أوروبا[3]. إلى جانب التابوت، كما يُزعم، جرى اكتشاف كمية كبيرة من الوثائق القديمة ربما تكون قد تضمنت نسخًا من محتويات مخطوطات البحر الميت

---

(1) هانكوك، جراهام، **العلامة والختم**، ص 94 و99؛ انظر أيضًا: رافنسكروفت ووالاس ـ ميرفي، **سِمة الوحش**، ص 52.

(2) هانكوك، جراهام، **العلامة والختم**، ص 49ـ51.

(3) رافنسكروفت ووالاس ـ ميرفي، **سِمة الوحش**، ص 52.



التي وُجدت في قمران. وتميل ترجمة المخطوطة النحاسية التي وُجدت في قمران إلى تأكيد هذه النظرية، لأنها تدرج المواقع التي أُخفي فيها كنز الهيكل ومواد ذات أهمية مقدسة قبل دمار الهيكل على يد الجيش الروماني في عام 70 ميلادي. وفي الحقيقة، إن العديد من المواقع المدرجة في المخطوطة النحاسية قام بالتنقيب عنها جون أليغرو، عالم مخطوطات البحر الميت، وفي العديد منها عثر على مصنوعات فرسان الهيكل اليدوية ولكن لا شيء مطلقًا من القرن الأول، مما يشير إلى أن فرسان الهيكل، من دون شك، قد وصلوا إلى هناك قبله.

ثمة سيناريو معقول ربما يوضح هذه الظروف وهو أن معرفة هذا المخبأ السري تحت الهيكل قد تناقلته الأجيال بالأحاديث الشفهية لعائلات الملك الإله. وبالنسبة إلى مسألة الوضع الأكيد لأماكنهم فوق الكنز الذي سعوا إليه مباشرة، كان من الواضح أن الملك بالدوين الثاني، الفرد الآخر من عائلة الملك الإله، والذي منح فرسان الهيكل أماكنهم، هو جزء من المؤامرة.

عودة فرسان الهيكل إلى أوروبا

كتب الملك بالدوين الثاني إلى برنارد أوف كليرفو يلتمس منه أن يطلب من البابا منح اعتراف رسمي للنظام، لأن برنارد لم يكن مجرد مستشار رئيس للبابا هونوريوس الثاني، بل معلمه السابق أيضًا[1]. عندئذ أبحر هيوز دي بيين وفرسانه التسعة إلى بروفانس قبل سفرهم إلى نورماندي للاجتماع مع الملك الإنكليزي ستيفن (1097ـ1154) الذي منحه ورفاقه وثيقة مرور لعبور إنكلترا في طريقهم إلى اسكتلندا حيث أقاموا مع سانت كلير أوف روسلين.

تبرع ديفيد، ملك الإسكتلنديين، للنظام بأرض في قرية بالانترودوتش التي أصبحت لاحقًا مقر فرسان الهيكل في اسكتلندا. بعد إعادة تسميتها بالهيكل الآن، تجاور هذه الأرض أملاك سانت كلير، وبذلك أمكن بسهولة المحافظة على الاتصال بين عائلة الملك الإله القديمة في سانت كلير ونظام الفرسان الجديد. نتيجة عودته إلى أوروبا، مُنح النظام أملاكًا في اسكتلندا وإنكلترا وشامبين وبروفانس. ولا يزال ثمة نزاع كبير حول أي من هؤلاء كان أول من تلقى الهدايا لأن الكثير منها لم تؤكده أية وثيقة

(1) روبنسن، جون ج.، **الزنزانة والنار والسيف**، ص 37.



لبعض الوقت. ومن المحتمل كثيرًا أن الأراضي التي حول ليه أَركْ سِيْر أرْجَن في بروفانس كانت أول ما مُنح؛ وبعدها تمبل كريسنغ في إنكلترا؛ والثالثة بالانترودوتش؛ والرابعة تروا. كان أول هذه التبرعات بالأرض مخططًا له لمدة طويلة وتلاه سيل من هدايا العقارات والقلاع والبلدات والمزارع والقرى في جميع أنحاء أوروبا المسيحية. على أية حال، تلا العديد من هدايا الملكية والمال الأخرى هذه اعتراف البابا الرسمي بالنظام ومكافأة «حكمه» الأول.

حكم فرسان الهيكل

منح البابا هونوريوس الثاني (1124-1130) بركته طوعًا إلى المقاتلين الرهبان وأمر المندوب البابوي، الكاردينال ماثيو دالبانو، بدعوة مجلس كنسي في فرنسا لتشريع النظام الجديد ومنح الفرسان حكمهم الديني الأول. انعقد هذا المجلس في تروا في مقاطعة شامبين بتاريخ 14 يناير/ كانون الثاني 1128 تحت إشراف الكاردينال، وحضره رؤساء أساقفة ريمز وسينس؛ وأساقفة أورليان وباريس وسواسون وأوكسير ومو وشالون ولون وسامور؛ ورؤساء أديرة فيزلي وسيتو وبونتينيي وتروافونتين وسان ريمي دي ريمز وديجون ومولسيم[1]. وهناك شك كبير حول ما إذا حضر برنارد شخصيًا أم لا لأنه كان يعاني من اعتلال في صحته، على أية حال، كان المجلس كله بالتأكيد تحت هيمنة تفكيره. وقد تمثلت السلطة الدنيوية بكونت شامبين الجديد، ثيبود الرابع، والكونت وليم الثاني أوف نيفير، ونبيل آخر هو أندريه دي بودمان. وفي 31 يناير/ كانون الثاني 1128، مثُل السيد الكبير، هيوز دي بيين، ورفاقه الفرسان أمام المجلس ومُنحوا «حكمهم» الجديد مكتوبًا لهم بيد برنارد أوف كليرفو[2].

بعد هذا الحدث بعشر سنوات، بتوصية ثانية من برنارد أوف كليرفو، أصدر البابا إنوسنت الثاني رسالة بابوية بعنوان «كل هبة جديدة» *Omne datum optimum* جعلت فرسان الهيكل مسؤولين، عبر سيدهم الكبير، أمام البابا والبابا وحده. حرر هذا العمل النظام فعليًّا من سلطة الأساقفة ورؤساء الأساقفة والملوك والأباطرة كلهم. وهكذا، بعد أقل من 20 سنة من تأسيسهم، تحرر فرسان الهيكل كليًّا من أية سيطرة للأساقفة

(1) بوردونوف، جورجيس، **الحياة اليومية لفرسان الهيكل**، ص 29.
(2) كاتب مجهول، **الجمعيات السرية في العصور الوسطى**، ص 199.



والأمراء وأصبحوا بذلك أكثر نظام ديني مستقل ومحكوم ذاتيًا في العالم المسيحي. وكان سيصبح قريبًا الأقوى، عسكريًّا وماليًّا معًا.

جاءت تبرعات القلاع والأملاك الأخرى بكثافة وسرعة كبيرتين في السنوات التالية لمجلس تروا وكان على النظام، في حالات عدة ، أن يرجئ تحصين أراضيه الجديدة بسبب نقص القوة البشرية، لأن تركيزه الأساسي كان دائمًا على حماية مملكة القدس. جرى إرسال المتطوعين الأوائل وجميع الفرسان والقادرين على الخدمة العسكرية إلى الشرق بأقصى سرعة متبعين مثال سيدهم الكبير. وكان هيوز، بصحبة 300 فارس آتين من أنبل العائلات في أوروبا، قد عاد إلى الأرض المقدسة عام 1129[1]. وحين يفكر المرء بالوقت الذي استغرقه تسليح هؤلاء الرجال وتجهيزهم ثم نقلهم عبر أوروبا، فإن هذا التدفق الهائل من المتطوعين ونقلهم السريع إلى الأرض المقدسة هو مجرد مثال آخر للتخطيط الطويل الذي عزز عملية تأسيس فرسان الهيكل وصعودهم إلى السلطة.

بعد سنتين من مجلس تروا، بدأ فرسان الهيكل اكتساب أرض في البرتغال وترسيخ علاقات وثيقة مع الحكام؛ وجاءت التبرعات في التخوم الإسبانية ببطء لكنها اتبعت نمطًا متشابهًا. جرى منح فرسان الهيكل أرضًا في أراغون بعد عام 1130 مباشرة وبحلول أوائل أربعينيات القرن الثاني عشر كانوا قد حازوا أملاكًا وأفرادًا عسكريين بما يكفي لإبقاء العمليات العسكرية على جبهتين في الوقت نفسه، واحدة في الأرض المقدسة والأخرى في إسبانيا حيث عملوا بصفة مستشارين عسكريين لملك أراغون وقاتلوا في حملاته ضد المسلمين. لم تكن أعدادهم في هذه الحملات الإسبانية كبيرة، لكنهم عوضوا هذا النقص الواضح بانضباطهم وقدرتهم على التعبئة بسرعة والبقاء في الميدان بقدر ما يتطلبه الأمر[2]. وهكذا أصبحوا، في أوروبا ومملكة القدس معًا، أول جيش محترف دائم منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية.

كتب برنارد أوف كليرفو مقالة قصيرة «في مدح الفروسية الجديدة» بين عامي 1132 و1136، مجّدت مزايا نظام المحارب الجديد وأدرجت الفوائد الروحية التي يمكن أن تزداد لمن دعموا أهدافه بالخدمات الشخصية أو التبرعات بالأرض أو المال. وهكذا لم يعد تدفق المتطوعين والقائمة المتزايدة باستمرار لتبرعات الأرض والأملاك تصدر عن

(1) كاتب مجهول، الجمعيات السرية في العصور الوسطى، ص 199.
(2) نيكلسن، فرسان الهيكل، ص 96.



عائلات الملك الإله فحسب. وتدفق المتطوعون النبلاء، وهدايا الأرض والمال على فرسان الهيكل، ولا حاجة للقول إنهم لم يكونوا المستفيدين الوحيدين؛ فقد مرّ النظام السيسترسي بفترة استثنائية من التوسع أيضًا، لأنه أسس خلال حياة برنارد أكثر من 300 دير جديد ـ وهو أسرع توسع مدون لأي نظام رهباني منذ ذلك الزمن أو قبله.

بالإضافة إلى ذلك، خلال حياة برنارد أوف كليرفو، كان السيسترسيون وفرسان الهيكل، بالنسبة إلى العديد من الناس، مجرد ذراعين للجسم نفسه: إحداهما ذراع رهبانية تأملية، والأخرى هي الذراع العسكرية القوية السريعة. وفي النهاية أصبحت أملاك فرسان الهيكل وقلاعهم وكنائسهم داخل جميع الدول بين بحر البلطيق والبحر المتوسط ومن الشريط الساحلي للمحيط الأطلسي حتى الأرض المقدسة. كما كان دخل هذه الأملاك الواسعة مكرسًا للمحافظة على جيش النظام وحصونه في مملكة القدس. وقد سلك النظام كل وسيلة ممكنة لتنمية أرباحه التي كانت تُستعمل آنذاك لزيادة قوة عملياته العسكرية وتأثيرها في الأرض المقدسة.

الفرسان الصليبيون المعالجون

تعود أقدم الإشارات إلى وجود مستشفى القديس يوحنا في القدس إلى عصر الاحتلال التركي السلجوقي للأرض المقدسة وذلك عام 1071 أو نحوه. ومن جديد، إن أحد مصادرنا لهذه المعلومات هو رواية غيوم الصوري التي كتبها بعد 100 سنة تقريبًا. وقد منح البابا باسكال الثاني المستشفى حماية وامتيازات بابوية عام 1113 وأشار إلى الراهب جيرارد بأنه «مؤسس المستشفى»[1]. وزعم غيوم الصوري أن تجارًا من مدينة أمالفي طلبوا من خليفة مصر موقعًا ضمن المدينة لإسكان الحجاج الإيطاليين، ونتيجة ذلك منحهم مناطق قرب كنيسة الضريح المقدس وقاموا ببناء مؤسسة لاتينية هناك. وسرعان ما تلاها بناء مستشفى للحجاج المرضى تمّ تكريسها للقديس يوحنا المحسن[2].

(1) الرسالة البابوية «الإرادة البابوية» Pie postulation voluntatis، 1113.

(2) تاريخ الأسقف ويليام الصوري:غيّوم الصوري، تاريخ Willemi Tyrensis Archiepiscopi Chronicon: Guillaume de Tyr, Chronique. (إعداد هايغنس ر. ب. س.) جزءان، Corpus Christianorum Continuatio Medievalis 68-a 68، (تورنهولت 1986) ج 2، ص 814ـ817.

مكتبة الفكر الجديد

على أية حال، شك عدد من المؤرخين الحديثين برواية غيوم الصوري ويزعمون الآن أن المستشفى كُرِّست للقديس يوحنا المعمدان منذ بدايتها[1]. ويزعم آخرون أنها بينما كانت تحت سيادة الراهب جيرارد، الذي انتُخب حوالي عام 1100، غيّر نظام المعالجة هذا قاعدته من البنيديكتية إلى الأوغسطينية وبدّل راعيه من القديس يوحنا المحسن إلى القديس يوحنا المعمدان[2]. وسرعان ما حصل على سلسلة من المستشفيات في جميع أنحاء آوتريمر، كما كانت تُدعى مملكة القدس آنذاك، وبشكل تدريجي انتشرت هذه إلى أوروبا على امتداد طرق الحج.

خلف الراهب جيرارد في منصب سيد الصليبيين المعالجين عام 1120 الراهب ريموند دي بوي، وهو عبقري تنظيمي. وتحت قيادته نال عمل النظام التمريضي شهرة، وبدأ يتلقى مِنَح الأرض من غودفروا دي بوليون في آوتريمر ومن النبلاء في فرنسا وإيطاليا وإسبانيا وإنكلترا. وقدم مختلف الباباوات امتيازات إلى النظام جعلته مستقلًا ذاتيًا مثل فرسان الهيكل تقريبًا، وحررته من السلطة القضائية لبطريرك القدس ورؤساء الأساقفة والأساقفة في جميع أنحاء العالم المسيحي. ووضع البابا إنوسنت الثاني النظام خارج نطاق جميع أشكال الحرمان أو الطرد الكنسي من قبل أي أسقف[3]. وبالنظر إليها على أنها مجموعة واحدة، كانت الامتيازات البابوية الممنوحة قبل عام 1154 قد حررت النظام من الخضوع لأية سلطة باستثناء سلطة البابا، لذلك فقد تمتع عمليًا آنذاك بالحرية نفسها التي تمتع بها فرسان الهيكل[4]. وسرعان ما أصبحوا شركاء في غاية واحدة، وهي الدفاع عن الأرض المقدسة. ومع المنحة التي قدمها الملك فولك عاهل القدس وهي قلعة جيبلين في عام 1136، يمكننا ملاحظة البدايات المؤكدة للروح للعسكرية داخل النظام[5]. ويزعم المؤرخ الإنكليزي ديزموند سيوارد أنه من دون تأثير برنارد أوف كليرفو لم يكن من الممكن أبدًا للنظام أن يحمل السلاح. ومن المحزن أنه لا يوضح إن كان هذا التأثير نتيجة مجرد دعم من برنارد لأول الأنظمة العسكرية، أي فرسان الهيكل،

(1) نيكلسن، هيلين، **الفرسان الصليبيون المعالجون**، ص 3.

(2) سيوارد، ديزموند، **رهبان الحرب**، ص 15.

(3) **الرسالة البابوية** «يُطبق من تاريخ صدوره» **Ad hoc nos disponente**

(4) نيكلسن، هيلين، **الفرسان الصليبيون المعالجون**، ص 7.

(5) المصدر السابق نفسه، ص 11.



والذي وضع نموذجًا يمكن أن تتبعه الأنظمة الأخرى، أم أن برنارد قام بدور أكثر فعالية ومباشرة في تسليح الفرسان الصليبيين المعالجين[1].

من العناية إلى القتال

أكد كونت طرابلس ريموند مكانة القتال الجديدة لدى نظام القديس يوحنا بين عامي 1142 و1144 حين منحه سلسلة القلاع التي حرست حدود مقاطعته ضد الهجمات الإسلامية. تضمنت هذه القلاع كاستيلوم بوتشي، لاكوم، فيليسيوم وموربابيش، ولا حاجة إلى ذكر أعظم قلاع الصليبيين المعالجين كلها، وهي قلعة الحصن. كانت الشروط التي قدم وفقها هذه الحصون سخية؛ فالصليبيون المعالجون لن يدفعوا أية رسوم إقطاعية عن هذه الأراضي، التي تضمنت عدة قرى؛ وسيحتفظون بنصف الغنيمة المكتسبة من أية حملة عسكرية يكون موجودًا فيها، وإذا لم يكن موجودًا هو أو حاكم قلعته أو قائد جيشه، فبإمكان الصليبيين المعالجين الاحتفاظ بالغنيمة كلها لأنفسهم[2]. وسرعان ما تبعت ذلك تبرعات مماثلة أخرى على حدود الولايات الصليبية.

وفقًا لجيمز دي فيتري، أسقف عكا، حمل الصليبيون المعالجون السلاح على غرار فرسان الهيكل[3]. بالمقابل، ومع التبرعات الهائلة من القلاع والأراضي داخل الولايات الصليبية وإسبانيا وفرنسا وإيطاليا وأماكن أخرى من أوروبا، سرعان ما بدأ الفرسان الصليبيون المعالجون ينافسون فرسان الهيكل في السلطة الدنيوية والقوة العسكرية. وقد عكس التنظيم والانضباط الداخليين ضمن كل من هذه الأنظمة عمومًا ما كان لدى الآخرين. كان الانضباط العسكري كاملًا؛ ولم يكن مسموحًا للفرسان الأسرى بالفدية وكان النظامان كلاهما مسؤول عبر سادته الكبار أمام البابا والبابا وحده. ومن دون المحاربين الرهبان لفرسان الهيكل والصليبيين المعالجين يستحيل تقريبًا تصور كيف كان من الممكن للولايات الصليبية أن تستمر بالبقاء. فكلاهما قاتل في إسبانيا وكذلك في الأرض المقدسة وكلاهما موّلته الأرباح الضخمة من أملاكه الأوروبية الواسعة.

---

(1) سيوارد، ديزموند، رهبان الحرب، ص 19.

(2) نيكلسن، هيلين، الفرسان الصليبيون المعالجون، ص 11.

(3) دي فيتري، «تاريخ الشرق» **Historia Orientalis**



الأنظمة العسكرية الأخرى

كما كتبتُ في «روسلين ـ حارسة أسرار الكأس المقدسة»:

إن التقليد هو أصدق حالات التملق وخلال مدة زمنية قصيرة كان فرسان الهيكل في عدد من الدول تنافسهم أنظمة فروسية أخرى من المحاربين الرهبان التي دانت بولائها للملك وليس للبابا. كان أحد هذه الأنظمة، وهو الفرسان الصليبيون الألمان، قد أسسه في الحقيقة فرسان الهيكل. وكان الأهم بين الآخرين الذين شكلوا أنفسهم على غرار فرسان الهيكل هو الأنظمة الإسبانية لفرسان كالاترافا وفرسان ألكانتارا[1]. وقد تأسس كلاهما بعد مدة قصيرة من فرسان الهيكل، ويُعرف عن سانت برنارد أوف كليرفو الآن أنه قام بدور ما غامض في تأسيسهما[2].

تشكل الفرسان الصليبيون الألمان عام 1198 حين اتحد نبلاء ألمان أتوا إلى مملكة القدس بحملة صليبية ألمانية مع النظام الثانوي المؤسس، وهو مستشفى القديسة مريم الألماني، التي كانت ستخفق لولا ذلك. عُرف النظام الجديد الذي تشكل بهذا الدمج باسم الفرسان الألمان لمستشفى القديسة مريم في القدس. وقد تشكل النظام بقيادة سيده الجديد، هاينريش والبوت فون باسنهايم، على غرار فرسان الهيكل، لكن مع تدابير لعمل الصليبيين المعالجين[3]. حدث أقدم نشاطاتهم العسكرية في الأرض المقدسة، لكنهم سرعان ما نشروا شبكتهم لتتضمن الحرب في إسبانيا ضد المسلمين، وفي اليونان ضد البيزنطيين والأتراك، وأخيرًا، فيما أصبح مركز عملياتهم الرئيس، الولايات البلطيقية[4].

كانت أنظمة فرسان سانتياغو الإسبانية وفرسان ألكانتارا وفرسان كالاترافا كلها نتيجة حملة ضد المسلمين في إسبانيا دامت عمليًا ثمانية قرون. تأسس فرسان كالاترافا عام 1164 على شكل نظام مندمج كليًا مع السيسترسيين، وفي السنة نفسها حصلوا على اعتراف بابوي بصفة نظام محاربين رهبان. وبعد زمن قصير من تأسيس فرسان كالاترافا،

---

(1) والاس ـ ميرفي، تيم، تراث فرسان الهيكل والميراث الماسوني في معبد روسلين.

(2) والاس ـ ميرفي وهوبكنز، روسلين: حارسة أسرار الكأس المقدسة، ص 102.

(3) سيوارد ديزموند، رهبان الحرب، ص 63.

(4) سيوارد ديزموند، المصدر السابق نفسه، ص 64ـ65.



تأسس نظام محاربين لحماية الحجاج في الطريق إلى ضريح سانتياغو أوف كومبوستيلا. وفي عام 1171 منحهم المندوب البابوي، الكاردينال خاسينتو، حكمًا، وقدم لهم البابا ألكسندر الثالث اعترافًا بابويًّا عام 1175 باسم نظام القديس يعقوب صاحب السيف. وكان نظام سانتياغو قد وُلد[1].

كان ما ميّز نظام سانتياغو عن الأنظمة العسكرية الأخرى هو قبول الرجال المتزوجين بصفة أعضاء كاملين منذ البداية. وقبل عام 1170 بدأت أخوية مسلحة معروفة باسم فرسان سان جوليان دي بيريرو بتحويل نفسها إلى نظام ألكانتارا. وهكذا تطور مفهوم المحاربين الرهبان منذ بداياته الصغيرة، وهي كما يُفترض حماية الطرق المتجهة إلى القدس، إلى شبكة معقدة من الأنظمة العسكرية التي تحارب من أجل القضية المسيحية من بحر البلطيق إلى مضيق البوسفور، وتحرر إسبانيا من غزاتها المسلمين، وقبل كل شيء، تدافع عن مملكة القدس والولايات الصليبية الأخرى. تعزز هذا المشروع المعقد بشبكة واسعة من الأملاك ومناطق الإقامة ومزارع العنب والقلاع والمقالع والخزائن غطت جميع المناطق المناخية في أوروبا، وكلها معدّة لتحقيق الربح الذي سيغذي الجهاد المقدس ضد الكفار.

(1) لوماكس، د. و.، نظام سانتياغو **La Orden de Santiago** 1170-1175، CSIC، مدريد، 5̣5

مكتبة الفكر الجديد



مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الثاني عشر

من يقتل مسيحيًا، يسفح دم المسيح!

في سبتيمانيا، تحت حماية النبلاء التابعين للملك الإله، تصرف خليط السكان على شكل متراس فعال ضد الاحتلال الإسلامي طوال قرون عدة بعد موت شارلمان. وعاشت المجتمعات اليهودية المتنامية والمزدهرة بقيادة الناسي، أو الأمير، بحالة وئام مع غالبية جيرانهم المسيحيين، لكنهم، كما يمكن توقعه، لفتوا انتباهًا غير مرحب به من البابوية ورجال الدين في الكنيسة. وفي عام 768، بعد تسع سنوات فقط من استيلاء ببين القصير على ناربون أدان البابا ستيفن الثالث هدايا الأرض المَلَكية المختلفة إلى يهود سبتيمانيا وكتب إلى رئيس الأساقفة أريبرت أوف ناربون، معبرًا عن استيائه الشديد من هذه التبرعات وصرح بأنه حزين بسببها إلى «درجة الموت»[1].

احتج البابا غريغوري الكبير أيضًا، ولكن في هذه المرة ضد اليهود الذين يملكون عبيدًا مسيحيين. كذلك أبدت المجالس الكنسية في القرنين السادس والسابع قلقها من الملكية اليهودية المتزايدة للعقارات حول ناربون[2]. أقر مجلسا جيرونا الثاني والثالث، في عامي 1068 و1078، مراسيم توضح أساس سخط الكنيسة المالي الحقيقي المتمثل بالشكوى من أن اليهود في سبتيمانيا امتلكوا آنذاك الأراضي التي كانوا، في أوقات سابقة، يدفعون عنها ضريبة العشر إلى الكنيسة[3]. وقد ذكر المؤرخ اليهودي بنجامين أوف توديلا أن الناسي، في نهاية القرن الثاني عشر، كان يملك عقارات مهمة[4] لكنه

(1) رين، ج.، دراسات عن حال اليهود في ناربون، ص 90ـ91.

(2) رين، ج.، المصدر السابق نفسه، ص 27ـ29.

(3) رين، ج.، المصدر السابق نفسه، ص 90ـ91.

(4) أدلر، م. ن.، خط رحلة بنجامين توديلا، ص 459.



تخلى عن معظم السلطة السياسية التي كانت لديه خلال العصر الكارولنجي[1].

حافظ التجار العرب على اتصال منتظم بين سبتيمانيا والعالم الإسلامي ووصل عدد من الأطباء العرب واليهود إلى الإقليم من الشرق وعبر جبال البيرينه معًا. وفي الحقيقة، كان الأطباء والعلماء اليهود يُعاملون باحترام شديد إلى درجة أنهم أسسوا في ناربون ومونبلييه[2] يشيفا، أو مدرسة دينية، خاصة بهم حيث جمعوا أوائل النسخ المكتوبة من الكابالاه. كانت الفراسة الروحية للمجتمعات اليهودية في ناربون وبيزييه وكاركاسون منصة الإطلاق لانتشار دراسات الكابالا في أوروبا[3]. وكان تأثير الكتابات المنحولة اليهودية والإسلامية قد أصبح أوسع انتشارًا آنذاك، ووصلت إلى العديد من رجال الدين الكاثوليك وأحيانًا إلى عامة الشعب أيضًا. تلقت بلدة مونبلييه موافقتها عام 1141 وأدى تأثير أطبائها اليهود إلى تأسيس كلية الطب فيها لاحقًا خلال القرن نفسه، وأصبح العديد من أولئك الأطباء مدرسين. كما أُسست كلية حقوق عام 1160 وأدى هذا التقليد الفكري إلى تأسيس جامعة مونبلييه أخيرًا في نهاية القرن الثالث عشر.

وهكذا يمكننا ملاحظة أن اليهود في سبتيمانيا لم يُبعدوا عن الحياة العامة كما كانوا في أمكنة أخرى من أوروبا، وقد جرى تعيينهم في العديد من البلدات في منصب قنصل أو قاض[4]. كان هذا القبول للمجتمعات اليهودية في سبتيمانيا مختلفًا جدًّا عن معاملتهم في غالبية أوروبا المسيحية حيث عُدّ اليهود في أواخر القرن الثاني عشر أقلية أجنبية يمكن التسامح معها تحت الحماية المباشرة للحاكم المحلي أو الملك نفسه. وكان اليهود في أغلب أوروبا يُذلون علنًا على نحو احتفالي ويُضطهدون باستمرار على غرار جماعات الهرطقة المسيحية.

نتيجة حمايتها من الغزو بجبال البيرينه وتخفيف الضغط عنها بالقوة المتزايدة للممالك الإسبانية في التخوم الإسبانية ازدهرت الزاوية الجنوبية الغربية من فرنسا، وهي مناطق لانغدوك وروسيون المعاصرة، بهدوء تحت حكم أرستقراطية ملكهم

(1) زوكرمان، أ. ج.، **إمارة يهودية في فرنسا الإقطاعية**، ص 96.

(2) كوستن، مايكل، **الزنادقة والحملة الصليبية ضد الزنادقة**، ص 38.

(3) بينهارت، تشيم، **أطلس اليهودية في العصور الوسطى**، ص 53؛ ستويانوف، يوري، **التقليد الخفي في أوروبا**، ص 160.

(4) أولدنبورغ، زوي، **مذبحة في مونسيغور**، ص 24ـ25.



الإله المحلي الخيرة. وفي الحقيقة، ظهرت خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر حضارة رائعة فعلًا هناك؛ تنير دربها بمبادئ ناشئة للديمقراطية والحب، وقبل كل شيء، التسامح الديني[1]. وقد شجعت طبقة النبلاء المحلية الاستقرار الاقتصادي والتجاري ومستوى من الحرية الخلاقة التي كانت استثنائية فعلًا في أوروبا آنذاك[2]. كان حكم النبلاء المحليين الإقطاعي خاضعًا إلى درجة معقولة من الاعتدال الديمقراطي من برجوازيات غنية وراسخة جيدًا، ساعدتها جماعات من المحامين في البلدات والمدن الأكثر ازدهارًا[3]. وكان تأثير الكنيسة الكاثوليكية قد تلاشى كليًّا تقريبًا في بعض المناطق وتراجع بشكل ملحوظ في باقي المنطقة الجنوبية الغربية[4]. ونتيجة لذلك كانت طبقة النبلاء المحلية تتسامح مع المجتمع اليهودي الكبير الذي يعيش في وسطها، والتي رأت الفوائد الاقتصادية والفكرية التي تدفقت من وجوده، شعرت آنذاك أنها حرة في مد هذا التسامح إلى مجموعة دينية معروفة باسم الزنادقة ـ المسيحيين الذين زعموا اتباع «تعاليم المسيح الحقيقية». وفي عقيدة الزندقة، كان التجمع معروفًا باسم «المستمعين» والكهنة باسم «*les bonshommes*» أو «الرجال الأخيار»[5]. وعاش هؤلاء الرجال الأخيار وفقًا للمثل العليا التي وضعها أسلافهم الإيسينيين، لكن نقادهم المعادين لهم داخل الكنيسة المسيحية أطلقوا عليهم اسم «*perfecti*»، وهو تحريف للتعبير اللاتيني *hereticus perfectus* ، أي الزنادقة الكاملين؛ وكانوا معروفين كذلك باسم *Cathari*، أي الأنقياء[6].

في نهاية القرن الحادي عشر أنشأ الكونت ريموند أوف تولوز جيشًا كبيرًا للمشاركة في الحملة الصليبية الأولى وتحرير وطنه الذي ينتمي إلى الملك الإله من الكفار. على أية حال، بحلول منتصف القرن الثاني عشر، كانت طبقة النبلاء المحلية تتزايد بثقة وفي جو سلطة الكنيسة الآفلة أصبحوا معادين للكهنة صراحة. وكان الكونت ريموند الرابع، الذي توفي عام 1222، قد مال بشكل مؤيِّد نحو عقيدة الزندقة وكان يأخذ معه أحد

(1) أويه ميشيل، **الزنادقة**، ص 3.
(2) ستويانوف، يوري، **التقليد الخفي في أوروبا**، ص 159.
(3) كوستن، مايكل، **الزنادقة والحملة الصليبية ضد الزنادقة**، ص 32ـ34.
(4) كوستن، مايكل، المصدر السابق نفسه، ص 37ـ39.
(5) كوستن، مايكل، المصدر السابق نفسه، ص 59.
(6) دي فري، سيمون، **الزنادقة، عادات البلاد وقلاعها**، ص 2.



الزنادقة الكاملين حيثما سافر. ورحب كونت فوا بالزنادقة في بلاده، وأصبحت زوجته نفسها، عندما علا شأن عائلتها، زنديقة كاملة، منضمة كليًّا إلى عقيدة الزندقة[1]. عَلّم الزنادقة الكاملون ريموند روجر ترانسافال، الكونت المستقبلي لكاركاسون وبيزييه؛ وفي الحقيقة، وفقًا لجيرود، المؤرخ الكاثوليكي، كان نبلاء لوراغيه، المنطقة المزدهرة المكتظة بالسكان بين كاركاسون وتولوز، زنادقة كليًّا تقريبًا[2]. وقد شجع الزنادقة تأسيس طبقة من الحرفيين المهرة داخل المجتمع المحلي وأشرفوا على تشغيل ورشات متخصصة في صناعة النسيج والجلود وعلى مهارة عبرت من إسبانيا الإسلامية، وهي صنع الورق[3].

دين الزنادقة

وبقدر ما يمكن إثباته من السجلات القليلة الباقية، كان دين الزنادقة شكلًا مزدوجًا لمذهب العرفان(*) الذي يمكن تتبع جذوره إلى الدين الزرادشتي الباكر[4] ومدرسة فيثاغورس وطائفة ميترا، مع هذا الخليط الغريب للمعتقدات التي انتقلت نتيجة الاتصال بالمسيحية المبكرة. ويزعم بعض المؤرخين أيضًا أنه اشتقاق من المانوية، وهي طائفة مسيحية أولية من أصل فارسي استندت إلى تعاليم الصوفي ماني (حوالي عام 215ـ حوالي 277 ميلادي)[5]. كان من الممكن معرفة الزنادقة الكاملين رجالًا ونساء بسهولة من عباءاتهم المتميزة، وقد عاشوا في مجتمعات تؤمن بالمساواة بين البشر، بغض النظر عن مركزهم الاجتماعي السابق. وكانوا يهتمون بالحاجات الرعوية للمجتمعات التي خدموها، ويسافرون في الريف ضمن أزواج، يعظون ويعلمون ويعالجون[6]، محاكين نموذج المسيح والحواريين الأوائل ورفاقهم الإيسينيين[7].

---

(1) ستويانوف، يوري، **التقليد الخفي في أوروبا**، ص 160.

(2) أويه ميشيل، **الزنادقة**، ص 13؛ غيردهام، آرثر، **الهرطقة الكبيرة**، ص 15.

(3) غيردهام، آرثر، المصدر السابق نفسه، ص 16.

(*) يمكن ترجمته بالغنوسطية كما هو شائع أحيانًا، وهو مذهب بعض المسيحيين الذين اعتقدوا أن المادة شر وأن الخلاص يأتي عن طريق المعرفة الروحية. [المترجم].

(4) أويه ميشيل، **الزنادقة**، ص 3.

(5) ستويانوف، يوري، **التقليد الخفي في أوروبا**، ص 158.

(6) غيردهام، آرثر، **الهرطقة الكبيرة**، ص 35ـ36.

(7) غيردهام، آرثر، المصدر السابق نفسه، ص 38.



يروي إنجيل توما أن المسيح قال: «من يشربْ من فمي، فسأصبح هو وسيصبح أنا»؛ مشيرًا إلى أن جميع الحواريين الحقيقيين سيصبحون قادرين على العمل كما كان يفعل[1]. إن الاتحاد الروحي مع الله سيكون النتيجة النهائية التي تتدفق من تواضعهم وخدمتهم. إذ كانوا يعتقدون أن المعرفة المقدسة، أو المعرفة الروحية، جاءت من الله فقط ويمكن الوصول إليها باتباع التعاليم الحقيقية للمسيح. وانتقلت هذه المعرفة الروحية إلى المسيح عن طريق يوحنا المعمدان، وعن طريق المسيح إلى يوحنا المقدس، ومنه إلى الزنادقة. وقد استخدموا شكلًا من المعمودية الروحية دعوه «the consolamentum» كان يُمنح للمؤمنين فقط بعد ثلاث سنوات من تكريسهم، أو على فراش موتهم. كانت هذه الإشارة الخارجية لنيل التنوير الفكري، وحين يتلقونه يحصلون على رتبة زنديق كامل[2]. وكانوا يؤمنون بتناسخ الأرواح وانتقال الأرواح إلى الحيوانات. وهكذا، بصفة حيوانات يمكن أن توجد فيهم أرواح غير الكاملين، فالزنادقة الكاملون كانوا نباتيين. بالإضافة إلى ذلك، بما أن خلق المزيد من البشر يمكن فقط أن يؤخر الكمال وتحرير الأرواح فقد امتنع الزنادقة الكاملون عن جميع العلاقات الجنسية[3]. وكان السامعون، أو المؤمنون العاديون، متحررين من هذه القيود.

بسبب النمو السريع والكبير لعقيدة الزندقة، أُسست أربع أبرشيات في لانغدوك بحلول عام 1167: آجن وألبي وكاركاسون وتولوز[4]. وأُسِّست الخامسة لاحقًا في رازيه[5]. وعلى ضوء وصفي السابق لنبلاء لانغدوك بوصفهم أفرادًا من مجموعة عائلات الملك الإله، لن يكون أمرًا مفاجئًا معرفة أن أبرشية أخرى للزنادقة أُسست في مقاطعة شامبين، التي نمت لاحقًا لتتضمن إيل دي فرانس على شكل منطقة كنسية منفصلة. وفي شمال إيطاليا، كان في إقليمي لومبارديا وتوسكانيا ست أبرشيات أخرى، وست أخرى في دول البلقان. وكان يحكم كل أبرشية أسقف، وتحت إمرته مساعدان يطلق عليهما الابن الأكبر والابن الأصغر. وعند موت الأسقف، ورث الابن الأكبر منصبه، وصعد

(1) **إنجيل توما** في مكتبة نجع حمادي..
(2) كوستن، مايكل، **الزنادقة والحملة الصليبية ضد الزنادقة**، ص 66ـ67.
(3) غيردهام، آرثر، **الهرطقة الكبيرة**، ص 42ـ45.
(4) ستويانوف، يوري، **التقليد الخفي في أوروبا**، ص 164.
(5) غيردهام، آرثر، **الهرطقة الكبيرة**، ص 18.



الابن الأصغر مرتبة وجرى انتخاب ابن أصغر ابن أصغر آخر[1]. وكان يوجد شماس تحت إمرة الأسقف، وتحته مجتمعات «الزنادقة الكاملون».

إن إحدى أقدم الإشارات إلى الزنادقة التي يمكن العثور عليها في توثيق الكنيسة هي رسالة من إبوين أوف شتاينفيلد السابق في عام 1145 مرسلة إلى برنارد أوف كليرفو. والموضوع هو جماعة يصفها بأنها «زنادقة كولون» بقيادة راهب مرتد اسمه هنري. إثر بعض المضايقة من سلطات الكنيسة، انتقل هنري بحكمة إلى المنطقة الأكثر تسامحًا[2] في تولوز، حيث تبعه برنارد أوف كليرفو. وكتب برنارد لاحقًا إلى كونت تولوز يصف الأحوال التي وجدها خلال سفراته عبر مناطق سيطرة الكونت. وذكر:

> **أن الكنائس من دون مصلين، والمصلين من دون كهنة، والكهنة من دون وقار لائق، وأخيرًا، إن المسيحيين من دون المسيح[3].**

ووصف هنري في تولوز بأنه «مستمتع بكل غضبه بين قطيع المسيح». ومع ذلك مدح هذا الكاهن البارز ومستشار البابوات الزنادقة الذين وصفهم أنهم شعب ذو روحانية بسيطة وتقية يقوده كهنة موهوبون: «ما من موعظة لأحد أكثر روحانية»[4]. وفي هذا الوقت تقريبًا كتب رجال الدين في ليبج إلى البابا لإعلامه أن هرطقة جديدة ظهرت وبدا «أنها غمرت مناطق مختلفة في فرنسا، وهي مختلفة جدًّا ومتنوعة جدًّا ويبدو من المستحيل تمييزها تحت اسم محدد»[5]. ومضوا في وصف عناصر عقيدة الزندقة وزعموا أنها جذبت أتباعًا في جميع أنحاء الأراضي المنخفضة ولومبارديا ولانغدوك[6]. والسؤال الذي لم يحاولوا الإجابة عنه: من أين جاءت هذه الهرطقة؟

بينما تستحيل الإجابة عن ذلك السؤال بدقة، ظهر إجماع بين المؤرخين يوضح الطريق الأكثر احتمالًا الذي وصلت عبره عقيدة الزندقة إلى الأجزاء الجنوبية من فرنسا.

---

(1) غيردهام، آرثر، **الهرطقة الكبيرة**، ص 18.

(2) ستويانوف، يوري، **التقليد الخفي في أوروبا**، ص 156.

(3) رسالة برنارد أوف كليرفو مقتبسة في كتاب ويكيفيلد وإيفانس، **هرطقات العصور الوسطى**، ص 122ـ 124.

(4) ستويانوف، يوري، **التقليد الخفي في أوروبا**، ص 156.

(5) ستويانوف، يوري، المصدر السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(6) ستويانوف، يوري، المصدر السابق نفسه، والصفحة نفسها.



وزُعم أن هذه العقيدة الجديدة نشأت عندما بَشّرَ كاهن، معروف باسم بوغوميل، بشكل مزدوج للعقيدة في بلغاريا حوالي عام 930 ميلادي[1]. وبعد الحملات الصليبية عززت الإمبراطورية البيزنطية طرق التجارة من القسطنطينية إلى كل من البندقية وجنوة، محدثة بذلك وسائل مواصلات فعالة بين أوروبا الشرقية والغربية للمرة الأولى منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية. وهكذا، على نحو متناقض ظاهريًا، أوجدت حركة تحويل الأرض المقدسة إلى المسيحية أيضًا الطرق التي يمكن فيها لأشكال الهرطقة الشرقية أن تؤثر في أوروبا الكاثوليكية. وكانت بدعة الهرطقة شكلًا نقيًا من المسيحية الأولية التي علّم كتابها المقدس الوحيد، «إنجيل الحب»، المعروف خلاف ذلك باسم إنجيل يوحنا السري[2]، الرسالة البسيطة بأن المسيح جاء للكشف وليس للخلاص. وهكذا، بهذا المعنى، يمكن العثور على الأصل المؤكد الأول لعقيدة الزندقة داخل الكنيسة الأولى في القدس بقيادة يعقوب الصالح، أخي المسيح.

زعمت كل من الكنيسة الكاثوليكية وعقيدة الزندقة أنها تستند إلى تعاليم المسيح النازوري، رغم وجود اختلافات مذهلة بين المذهبين. وقد أنكر الزنادقة صلاحية جميع مناسك الكنيسة، خصوصًا مناسك القربان المقدس بمسحته المتعلقة بأكل لحوم البشر[3]؛ بالإضافة إلى ذلك رفضوا الاعتراف بسلطة البابا في روما وعارضوا مفهوم البركة الذي كان أساسيًا جدًا في العقيدة الكاثوليكية[4]، كذلك رفضوا رفضًا قاطعًا طبيعة الفداء في تضحية المسيح عند موضع الجمجمة[5].

رد الكنيسة

مع تنامي قوة دين الزندقة وتأثيره في لانغدوك، بدأ ينافس كنيسة روما، ويزيحها كليًا في العديد من المناطق. شكل هذا تهديدًا للكنيسة التي لم تعد تستطيع الاحتمال. وردًا على ذلك بعثت الكنيسة كهنة مبشّرين إلى لانغدوك برئاسة كاهن إسباني متشدد،

(1) كوستن، مايكل، الزنادقة والحملة الصليبية ضد الزنادقة، ص 58.
(2) دي فري، سيمون، الزنادقة، عادات البلاد وقلاعها، ص 2.
(3) كوستن، مايكل، الزنادقة والحملة الصليبية ضد الزنادقة، ص 65.
(4) كوستن، مايكل، المصدر السابق نفسه، ص 66.
(5) سيروس، جورجيس، أرض الزنادقة، ص 35.



هو دومينيك غوثمان[1]. لاقى تبشيره آذنًا صماء وكانت النهاية المرعبة لمهمته الإنجيلية العقيمة تحذيرًا وحشيًا:

طوال سنوات حتى الآن جئت إليكم بكلمات عن السلام، وعظت، ناشدت، بكيت. ولكن، كما يقول عامة الشعب في إسبانيا، إذا كانت البركة لا تنفع، فعندئذ يجب أن تعمل العصا. إننا الآن سنثير الأمراء والأساقفة ضدكم، وهم، بكل أسف، سيجمعون الأمم والشعوب، والكثيرون سيموتون بالسيف. ستتحطم الأبراج وتسقط الجدران وستخضعون للعبودية. وهكذا ستسود القوة حيث أخفق اللطف[2].

كان الذين سمعوا رسالته عجزًا مُطبقًا عن فهم حقيقتها القاسية ولم يستطيعوا ببساطة تصور الطرق الوحشية التي ستستخدمها الكنيسة المسيحية لقمع أي شكل من أشكال الهرطقة. وسرعان ما كانوا سَيُنبَّهون بطريقة فظة. ففي عام 1209 أعلن البابا إنوسنت الثالث حربًا دينية ضد الزنادقة. وأطلق على هذه الحملة المريبة اسم حملة صليبية، مما عنى أن جميع المشاركين الذين يخدمون مدة 40 يومًا يُمنحون غفرانًا كنسيًا بابويًا يحمل براءة من جميع ذنوبهم السابقة وأي ذنب يمكن أن يرتكبوه خلال الحملة الصليبية[3]. وكان لهم الحق بالاستيلاء على أملاك أي زنديق، أميرًا كان أو فلاحًا؛ وهكذا حصلوا على إذن بابوي كي يقتلوا ويسرقوا ويغتصبوا وينهبوا باسم المسيح النبيل، الرجل الذي دعته الكنيسة «أمير السلام». إلى جانب الجيش الصليبي جاء رجال الدين، الذين تعاملوا مع أي زنديق مشكوك فيه بالتعذيب ومواجهة الموت على الخازوق. ومع ذلك، وعلى الرغم من كون هذه حملة صليبية رسمية، لم يقم فرسان الهيكل ولا النظام الصليبي الآخر للفرسان الصليبيين المعالجين بأي دور مهم في القتال[4].

في يوليو/تموز 1209، هاجم الصليبيون مدينة بيزييه المزدهرة. كان فيكونت ريموند روجر ترنسافال، حاكم مدينتي بيزييه وكاركاسون، متأكدًا من أن المدينة يصعب الدفاع عنها وغادر بشيء من السرعة إلى مدينة كاركاسون المحصنة بطريقة ممتازة.

(1) كوستن، مايكل، **الزنادقة والحملة الصليبية ضد الزنادقة**، ص 112ـ114.

(2) سيروس، جورجيس، **أرض الزنادقة**، ص 15.

(3) أويه ميشيل، **الزنادقة**، ص 15.

(4) ستويانوف، يوري، **التقليد الخفي في أوروبا**، ص 173.



وهرب معه أفراد المجتمع اليهودي الكبير في بيزييه الذين عرفوا ما كابده رفاقهم اليهود من اضطهاد في شمال فرنسا. ولم يُبدِ مجتمع بيزييه اهتمامًا كبيرًا بتوسلات أسقفهم، الذي أراد استسلامًا فوريًّا، وقرروا الدفاع عن المدينة[1]. كان الحصار قصيرًا، وعشية الهجوم النهائي طلب قادة الجيش المحاصر توجيه المندوب البابوي حول كيفية معاملة أبناء دينهم في المعركة القادمة. وبدلًا من الاستشهاد بكلمات المسيح «أحبب قريبك كما تحب نفسك»، أو «اغفر لأعدائك»، أمر ممثل البابا الصليبيين أن: «... لا تظهروا رحمة تجاه أي نظام أو عمر أو جنس... زنديق أو كاثوليكي - اقتلوهم كلهم... وسيعرف الله من هم له عندما يصلون إليه»[2].

في اليوم التالي ذبحوا أكثر من 20000 مدني من دون رحمة، 7000 منهم قُتلوا داخل الكاتدرائية حيث هربوا طلبًا للملجأ. وزعم بيير دي فو سيرني أن المذبحة كانت عقابًا على تجديف الزنادقة ضد مريم المجدلية، التي حدثت مذبحة بيزييه يوم عيدها الرسمي، في 22 يوليو/ تموز، وادعى:

> ... أن بيزييه سقطت في عيد يوم القديسة مريم المجدلية. آه، يا لعدالة الله العليا! ... لقد زعم الزنادقة أن القديسة مريم المجدلية كانت عشيقة المسيح... وهكذا، ولسبب وجيه أُخذ هؤلاء الكلاب المثيرون للاشمئزاز وذُبحوا خلال عيد التي أساؤوا إليها[3]...

كانت ثمة نتيجة فورية وحيدة هي الاستسلام غير المشروط لناربون، التي لم يكتف قائداها، الفيكونت ورئيس الأساقفة، بعرض دعم مادي على الصليبيين بل وعدهم أيضًا بتسليم أي زنديق كامل في المدينة وأي عقار امتلكه يهود بيزييه فيها[4].

بعد بيزييه جرى حصار مدينة كاركاسون. وبعد أسبوعين، عندما جفت الآبار داخل أسوار المدينة ومنعت جيوش الصليبيين الوصول إلى مياه النهر، عرض الصليبيون على الفيكونت عبورًا آمنًا ليناقشوا شروط الاستسلام ولكن، وفقًا للكنيسة كانت الوعود

---

(1) كوستن، مايكل، الزنادقة والحملة الصليبية ضد الزنادقة، ص 123.

(2) سيزاريوس أوف هايسترباخ، ج 2، ص 296-298.

(3) غيبان ومواسوانوف، تاريخ الزندقة لبيير دي فو دو شارني **Histoire Albigeoise de Pierre des Vaux-de-Chernay**.

(4) كوستن، مايكل، الزنادقة والحملة الصليبية ضد الزنادقة، ص 125.



المقدمة إلى زنديق باطلة، وعليه فقد تمّ سجن فيكونت ترانسفيل[1] وأُلغيت حقوق وراثة ابنه. وقد مات داخل السجن في نوفمبر/ تشرين الثاني 1209 ووفقًا لأغلب المؤرخين كان موته نتيجة عملية غدر. وعندما استسلمت كاركاسون، جرى الإبقاء على حياة سكانها بدون تمييز ديني، لكنهم أُجبروا على مغادرة المدينة بملابسهم الداخلية وترك بيوتهم وأملاكهم تحت رحمة جيش الصليبيين[2]. ومُنح أحد قادة الحملة الصليبية، وهو سيمون دي مونفور، جميع حقوق عائلة ترانسفيل وأراضيها وامتيازاتها الإقطاعية[3].

تعذيب وقمع وموت

حدث أول إحراق علني للزنادقة الكاملين في كاستر؛ بعد حصار مينرف وسقوطها جرى إحراق 140 من الزنادقة الكاملين، رجالًا ونساء، أحياء وأصبح هذا المصير الحتمي لجميع الزنادقة الكاملين الذين قُبِض عليهم[4]. وفي الحقيقة، لقد واجه كل من حارب الصليبيين أخطارًا هائلة. في عام 1210، أنزل قائد الحملة الصليبية، سيمون دي مونفور، عقابًا رهيبًا بالمدافعين الأسرى في برام باختيار مئة منهم عشوائيًّا، واقتلع أعينهم وأمر بتقطيع شفاههم وآذانهم وأنوفهم. وأمر أحد السجناء، الذي اقتُلعت له عين واحدة فقط، بأن يقود رفاقه المصابين إلى قلعة كباريه[5] في تحذير للحامية الموجودة هناك من المصير الذي ينتظر من عارضوا جيش الصليبيين. بيد أن كباريه لم تسقط!

زحف جيش دي مونفور بعد أن أسس على نحو واضح قاعدة مسيحية نموذجية للفروسية من أجل الصليبيين متقدمًا للقيام بمزيد من الغزوات، وبعد سقوط لافور، حُكم بالشنق على الفرسان الثمانين الذين دافعوا عن البلدة بشجاعة فائقة. وانهارت المشنقة تحت ثقل أجسادهم كلها ولذلك، بدافع من الرحمة، أمر سيمون دي مونفور بقطع حناجرهم. وجرى تسليم الليدي غيرود، سيدة القلعة، إلى الصليبيين واغتصبوها بشكل متكرر، ثم ألقوا بجسدها النازف في بئر ورجموها حتى الموت بوصفها زانية[6].

---

(1) سيروس، جورجيس، **أرض الزنادقة**، ص 20.
(2) كوستن، مايكل، **الزنادقة والحملة الصليبية ضد الزنادقة**، ص 128.
(3) أويه ميشيل، **الزنادقة**، ص 11.
(4) ستويانوف، يوري، **التقليد الخفي في أوروبا**، ص 174.
(5) غيردهام، آرثر، **الهرطقة الكبيرة**، ص 63.
(6) كوستن، مايكل، **الزنادقة والحملة الصليبية ضد الزنادقة**، ص 132.



بعد هذا النصر، تمّ إحراق الزنادقة في نار هائلة؛ وبعد ذلك بمدة قصيرة جرى إحراق 60 آخرين في ليكاس[1].

انضم ملك أراغون إلى المعركة مساندًا قضية الزنادقة وأصيب بجرح بليغ في معركة موريه بتاريخ 12 سبتمبر/ أيلول 1213، حيث تجاوز الذبح ما حدث في بيزييه[2]. وإضافة إلى إرهاب الحملة الصليبية والإعدام الروتيني للزنادقة، فُرِضت سياسة الأرض المحروقة وأحرقت المحاصيل بشكل متواصل لتجويع الناس حتى الاستسلام[3]. دامت الحرب الوحشية 30 سنة. وسجل غيوم توديل أن 5000 رجل وامرأة وطفل جرى تقطيعهم ببساطة إربًا إربًا بعد سقوط مارماند عام 1226[4]. وقد سوّغت الكنيسة جميع هذه الأفعال الوحشية المنهجية، وزعمت أن الصليبيين كانوا يدافعون عن الدين الحقيقي ضد الزنادقة الذين، هم تحديدًا، لم تكن لهم أي حقوق.

انتهت الحملة الصليبية ضد الزنادقة عام 1244 باستسلام آخر معقل للزنادقة في مونسيغور بعد حصار دام سنة تقريبًا. ولمرة واحدة، تصرف الصليبيون ببعض مظاهر الفروسية، فقد تمّ الإبقاء على حياة المقاتلين في الحامية وغير الزنادقة كلهم داخل القلعة، ولكن عندما انطلقوا هابطين الجبل كان طريقهم مضاء بالنيران الناجمة عن محرقة جنائزية ضخمة حيث أُحرق 225 زنديقًا وهم أحياء[5].

محكمة التفتيش

لم تعتمد الكنيسة على الحملة الصليبية وحدها لإخماد هرطقة الزنادقة. فقد جرى إنشاء مؤسسة جديدة باسم «المكتب المقدس للتحقيق» عام 1233. كان هدف هذه المؤسسة الجديدة خلق جو من الخوف بحيث لا يمكن مطلقًا أن يوجد فيه أي شكل من أشكال الهرطقة، لكن هدفها الأكثر مباشرة كان إخماد هرطقة الزنادقة نهائيًا[6]. وهكذا سيظهر لاحقًا أن السلام الذي فرضته الكنيسة كان أكثر رعبًا من فظاعة الحرب الأخيرة.

(1) أويه ميشيل، الزنادقة، ص 12.
(2) سيروس، جورجيس، أرض الزنادقة، ص 6.
(3) كوستن، مايكل، الزنادقة والحملة الصليبية ضد الزنادقة، ص 151.
(4) غيردهام، آرثر، الهرطقة الكبيرة، ص 69.
(5) كوستن، مايكل، الزنادقة والحملة الصليبية ضد الزنادقة، ص 160.
(6) ستويانوف، يوري، التقليد الخفي في أوروبا، ص 178.



خلال القرون التي تلت انكشف السجل المخزي لمحكمة التفتيش حتى إن المؤرخ الكاثوليكي المتدين بول جونسن يدينها الآن بشدة ويعرض تفاصيل نشاطاتها برعب[1]. كما وصف المؤرخ البارز لي، هـ. س. أعمالها بأنها «سلسلة لا تنتهي من الأعمال الوحشية»[2]، وأدان اللورد أكتن، وهو كاثوليكي آخر، محكمة التفتيش والكنيسة التي أحدثتها بالكلمات الآتية:

> **لا شيء دون الاغتيال الديني... كان مبدأ محكمة التفتيش إجراميًّا لأن الباباوات لم يكونوا مجرد قتلة بالمفهوم الواسع، لكنهم جعلوا القتل قاعدة قانونية للكنيسة المسيحية وشرطًا للخلاص[3].**

تجاهلت محكمة التفتيش ببساطة جميع القوانين المكتوبة والرسمية والمألوفة التي منحت أي شكل من أشكال الحماية للمتهم وأظهرت سخرية قاسية من العدالة البابوية على نحو مستمر. وقد تأثر المؤرخ، لي، هـ. س. وكتب:

> **إنّ على قرار التاريخ النزيه النظر إلى محكمة التفتيش بوصفها النتاج البشع للحماسة الخاطئة، الذي استفاد من الطمع الأناني وشهوة السلطة لخنق التطلعات الأسمى للإنسانية وإثارة أوضع الرغبات[4].**

الكنيسة لا تعرف إراقة الدماء
Ecclesiam non novit sanguinem

كان التعذيب مُستَخدمًا على نحو اعتيادي منذ البداية لكنه لم يتلقَّ موافقة بابوية رسمية حتى عام 1252[5]. ومع ذلك كان ثمة تقليد قديم إلى حدٍّ ما مفاده أنه لا يُسمح لرجال الدين ولا للكنيسة بإراقة الدم، وأنه كان محفوظًا في الأمر الرسمي، **Ecclesiam non novit sanguinem**. لذلك كان الجرح بالرمح أو السيف أو الخنجر مخالفًا جدًّا للمسيحية وهكذا كانت تقنيات محكمة التفتيش مصممة لإبقاء إراقة دماء في حدها الأدنى. لذلك، وللمحافظة على عهودهم الرهبانية بالطاعة، أكد المحققون أن أشكال

(1) جونسن، بول، **تاريخ المسيحية**، ص 253ـ255.
(2) لي، هـ. س.، **محكمة التفتيش في العصور الوسطى**، نيويورك، 1955.
(3) دي روزا، بيتر، **كهنة المسيح**، ص 249.
(4) لي، هـ. س.، **محكمة التفتيش في العصور الوسطى**، نيويورك، 1955.
(5) رسالة بابوية للبابا إينوسنت الرابع **1252** اقتلاع Ad extirpanda



التعذيب التي استخدموها تجنبت بدقة إراقة الدم. وقد جرى ابتكار هذه لتسبب أقصى درجات الألم والمعاناة ضمن الحد الأدنى من إراقة الدماء وكانت رؤية آلات التعذيب فحسب كافية أحيانًا لانتزاع الاعترافات بالهرطقة. ومن بين جميع طرق التعذيب التي استخدمتها محكمة التفتيش، كانت النار أهم وسيلة[1].

في بداية الأمر كان المحققون أنفسهم ممنوعين من ممارسة التعذيب ويقومون بدور مشرفين فحسب يوجهون المنفذ المدني ويدونون ملاحظات حول أي شيء قاله المتهمون تحت الإكراه. في عام 1252، سمح لهم البابا إنوسنت الرابع رسميًّا بممارسة التعذيب تحت الشرط الآتي «... مع التقيد أن هذا الإلزام يجب ألا يتضمن جرح أحد الأطراف أو يسبب خطر الموت». كان يتمّ تجنب الأدوات المدببة وذات النصل في آلة التعذيب، والبراغي والأدوات التي تجعل الدم يتدفق ولو بنتيجة ثانوية فقط. كان تمزيق اللحم بالكماشة سيريق الدم من دون شك، ما لم يكن قد جرى تسخين الكماشة تمامًا إلى درجة أن المعدن الحار يكوي الجرح ويوقف النزف. ومع أنه تحت سلطة القانون المدني الموجود سابقًا، كانت بعض فئات من الناس معفاة من التعذيب، مثل الأطباء والجنود والفرسان والنبلاء عمومًا، لكن محكمة التفتيش لم تشعر بأنها ملزمة بأي من هذه القيود في الحرب ضد الهرطقة.

طرق التعذيب

في السنوات الأولى كانت هناك ست طرائق أساسية للتعذيب: التعذيب بالماء والتعذيب بالنار والتعليق والدولاب والشد وحذاء التعذيب. كان التعذيب بالماء يجعل السجين مجبرًا على ابتلاع كمية من الماء، إما عن طريق قمع أو بنقع قطعة حرير أو كتان بالماء ودفعها داخل الحنجرة، مما قد يؤدي إلى انفجار الأوعية الدموية. أما التعذيب بالنار، فكان السجين يُربط بشكل ثابت ويوضع أمام نار متقدة ويُمد الدهن أو الشحم على قدميه كي يُقلى تمامًا. وكان التعليق، أو التعذيب بالبكرة، أحد الأشكال الرئيسة للتعذيب، حيث يُعرى السجين إلا من ملابسه الداخلية، ويُقيد كاحلاه وتُربط يداه وراء ظهره، ثم يُربط رسغاه إلى حبل آخر يدور على بكرة مثبتة بالسقف فوقه. عندئذ يُرفع المتهم عاليًا فوق الأرض، وتُثبت أوزان حديدية بقدميه ويُترك معلقًا هناك من رسغيه

(1) بايجنت ولاي، **محكمة التفتيش**، ص 27ـ28.



المربوطين. وبعد ذلك يتمّ جلده ومتابعة استجوابه. وإذا ظل غير متعاون، فإنه يُرفع إلى أعلى ليهدأ ثم يُترك ليسقط فجأة حتى يصل إلى فوق الأرض بقليل. ينجم عن ذلك عمومًا حالات خلع حادة ومتعددة. وفي أحيان أخرى، تُربط الضحية إلى دولاب عربة وتُضرب بالمطارق أو القضبان أو الهراوات.

كان الشد أسوأ أشكال التعذيب سمعة مما استعملته محكمة التفتيش في العصور الوسطى. إذ يوضع إطار خشبي أفقي عبره ألواح خشبية مثل درجات سلم، وفي كل طرف تُثبت بكرات يُربط بها كاحلا الضحية ورسغاه. يستجوب المحقق الضحية بهذا الوضع، ثم يُشد بتدوير البكرات حتى يصل جسد الضحية إلى درجة الخلع. وكان حذاء التعذيب أو جوارب التعذيب نوعًا من «حذاء» التعذيب تُثبت فيه كل ساق إلى لوح سميك بحبل قوي يُربط بإحكام قدر الإمكان. وعند بدء الاستجواب، تُدق أوتاد خشبية أو معدنية بين اللوحين وساقي الضحية، حتى يصبح الضغط لا يطاق وتبدأ الحبال بشق اللحم أو يسمع المحقق صوت تحطم العظام أو سحقها. وكان العجز الدائم هو النتيجة الحتمية لذلك[1].

حين يعترف المتهم بشكل قسري تُسجل إفادته، وتُقرأ عليه، ويُسأل رسميًّا إن كانت صحيحة. إذا أجاب بنعم، يُدَوّن في السجل أن اعترافه كان «حرًّا وطوعيًّا»، ولم يحدث نتيجة «إجبار أو خوف». يتبع ذلك الحكم، لكن حكم الإعدام كان يصدر في عشرة بالمئة من الحالات فقط، لأن أغلب المحققين كانوا يفضلون إبقاء روح «مُخَلّصَة» في جسد سليم تقريبًا، الأمر الذي يقدم، عبر التكفير أو خلال الحج، شهادة حية لبركة الكنيسة، أو كما لاحظ أحد المعلقين: «إن المرتد الذي قد يخون أصدقاءه كان مفيدًا أكثر من جثة مشوية»[2].

كان من الممكن بالنسبة إلى الزنديق الذي يتخلى عن عقيدته بعد الاستجواب، أن يسجن مدى الحياة، أو يتعرض لخسارة أملاكه، أو يُحكم عليه بوضع صليب أصفر يُخاط على ملابسه مما يمنعه عمليًّا من القيام بأي شكل من أشكال التواصل الاجتماعي. ومن يساعد أو يستخدم أو يُطعم أو يتحدث مع شخص يضع الصليب الأصفر سيُتهم

(1) بورمان، إدوارد، **محكمة التفتيش: مطرقة الهرطقة**، ص 62ـ65.

(2) بايجنت ولاي، **محكمة التفتيش**، ص 34ـ36.



نفسه بالهرطقة أو بحماية الزنادقة. وهكذا كان الحكم بوضع الصليب الأصفر، في الحقيقة، حكمًا بالموت البطيء. وكانت مرافقة زنديق خلال الطفولة تُعد إثباتًا للذنب، ولذلك كان المحققون يطلبون التفاصيل العائلية والاجتماعية لحياة أي مشتبه به، وكل من تثبت مشاركته يتعرض للاستجواب بدوره. وكان جميع المشتبه بهم يُعدون مدانين بالهرطقة لمجرد اتهامهم بها وأصبحت محكمة التفتيش وسيلة الإرهاب التي طاردت مخيلة أوروبا طوال أكثر من 700 سنة[1].

ولكن حتى محكمة التفتيش لم تستطع إخماد عقيدة الزندقة كليًا. وعلى الرغم من إحراق الكثير من الزنادقة الكاملين واضطهاد عدد لا يُحصى من المؤمنين على يد محكمة التفتيش خلال فترة 60 سنة من القمع الذي تلا الحرب، فقد هرب بعضهم إلى المنفى وتعلم آخرون فنون التخفي والتنكر. وقد تلاشى دين الزندقة على شكل كيان مرئي كليًا في القرن الرابع عشر. وانضم الكثير من الزنادقة إلى فرسان الهيكل في السنوات الأخيرة من الحملة الصليبية، وبعد سقوط مونسيغور[2]؛ وهرب الكثيرون إلى توسكانيا حيث جرى استيعابهم ضمن المجتمع المحلي المتسامح. وهرب آخرون إلى أراضي سانت كلير في اسكتلندا حيث أسسوا صناعة الورق.

انعكس التشدد الوحشي للكنيسة المسيحية مع المنشقين داخل مراتبها بموقفها الحربي نحو أشخاص من معتقدات أخرى، خصوصًا الذين استقروا ضمن الأراضي المسيحية. وهذا تباين واضح مع التسامح المتأصل الذي أظهره الإسلام تجاه «أهل الكتاب».

معاداة السامية المسيحية

وصفتُ سابقًا في هذا الفصل دمار المجتمعات اليهودية في سبتيمانيا خلال الحملة الصليبية ضد الزنادقة. وحدث أمر أسوأ بكثير في مكان آخر لأن اليهود، في نتيجة مباشرة للتعليم المسيحي، لم يُحسبوا مواطنين من الدرجة الثانية فقط بل تعرضوا للشتم عالميًا تقريبًا. وقررت عقيدة الكنيسة وضاعة اليهود الاجتماعية وتبعيتهم؛ ولم تنطبق القواعد التي تحرمهم من السلطة المدنية على الوظائف العامة فقط بل على كل علاقة اجتماعية،

(1) كوستن، مايكل، **الزنادقة والحملة الصليبية ضد الزنادقة**، ص 169ـ174.

(2) غيردهام، آرثر، **الهرطقة الكبيرة**، ص 89.



سواء بين سيد وخادم أو بين طبيب ومريض، وعلى أية حالة قد تضع يهوديًّا في موقع سلطة على مسيحي.

بما أن الاتصال بين المسيحيين واليهود شكل خطرًا واضحًا ذا تأثير مُفْرِط، فقد أيدت الكنيسة سياسة التفرقة. ولم يكن هتلر أول من أجبر اليهود على وضع علامات يسهل تمييزها على ثيابهم، ففي العصور الوسطى كان ثمة إلزام بارتداء ملابس يمكن تمييزها، أو وضع شارة خاصة، مفروضًا على اليهود[1]. بالإضافة إلى ذلك، كان على اليهود في الأراضي المسيحية أن يقاوموا الخرافة الجاهلة التي حرضت عليها الدعوة المسعورة المعادية لليهود، واستمرت هجمات عنيفة من دون استفزاز على نحو متقطع طوال قرون، مع فقدان كلي للحياة كان مروعًا حقًّا.

كانت مراسيم الطرد التي فرضها مختلف الملوك المسيحيين لا تقل وحشية تقريبًا[2]. وكانت قرارات طرد اليهود من إنكلترا عام 1290[3] ومن فرنسا عام 1306[4] الخطوات الأولى في العملية المرعبة لتطهير أوروبا الكاثوليكية من اليهود[5]. وفي عام 1306 كان الملك فيليب الجميل يُؤمِّل تحقيق كسب مالي كبير من طرد اليهود ومصادرة أملاكهم، فقد كان مسموحًا لهم باصطحاب ممتلكاتهم الشخصية فقط وكل ما عدا ذلك يُصادر لصالح التاج[6]. وفي إيطاليا، خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر كان يقرر الحياة اليهودية مناخ سياسي متقلب بشكل دائم، ولكن مع سن الكنيسة لتشريع معاد لليهودية باستمرار[7]. ظلت هذه الشبكة المسيحية المعقدة لمعاداة السامية تضطهد اليهودية الأوروبية طوال قرون إلى أن بدأ وصول العقلانية الإنسانية لحركة التنوير يغرس ببطء مواقف أكثر إيجابية بين الناس المفكرين[8].

---

(1) برناوي، علي، تحرير، **أطلس تاريخي للشعب اليهودي**، ص 104.

(2) لانج، نيكولاس، **أطلس العالم اليهودي**، ص 35.

(3) بينهارت، تشيم، **أطلس التاريخ اليهودي في العصور الوسطى**، ص 57.

(4) بينهارت، تشيم، المصدر السابق نفسه، ص 59.

(5) برناوي، علي، تحرير، **أطلس تاريخي للشعب اليهودي**، ص 104.

(6) بينهارت، تشيم، **أطلس التاريخ اليهودي في العصور الوسطى**، ص 59.

(7) بينهارت، تشيم، المصدر السابق نفسه، ص 48.

(8) فليتشر، ريتشارد، **الصليب والهلال**، ص 99.



الجزء الخامس




مكتبة
الفكر الجديد

العداء المستمر بين الإسلام والمسيحية

يمكن على الأغلب تتبع أصول موقفنا الغربي الحالي تجاه الإسلام بالعودة إلى بداية الحملة الصليبية الأولى، منذ أن كانت ثمة حالة مستحكمة تقريبًا من العداء بين الغرب المسيحي وعالم الإسلام. تأكد عصر الارتياب والعداء هذا بأزمنة الحرب المريرة التي استمرت إلى ما بعد الحملات الصليبية. ومع نشوء الإمبراطورية العثمانية، التي أسسها عثمان، وهو تركي عثماني أسقط العباسيين عام 1288، واجهت أوروبا خصمًا مسلمًا ذا قوة عسكرية هائلة تضمنت أراضيه معظم دول البلقان واليونان. على أية حال، مع أن العلاقات كانت عدائية، فإن هذا لم يؤثر في الحد من التبادل التجاري والفكري بين الجانبين، وهو أمر استفادت أوروبا كثيرًا منه.

مع اقتراب أوروبا من عصر النهضة، كانت قد قامت بخطوات كبيرة في التعليم والتعلم مستندة بشكل كبير، حتى ذلك الوقت، إلى الأسس القوية التي وضعها العلماء المسلمون. وبوجود عصر النهضة والمزاج الجديد للبحوث الفكرية الذي تلا الإصلاح، بدأت الإنجازات الفكرية الأوروبية تعادل إنجازات الإسلام ثم تتجاوزها. تعززت هذه العملية بضربة مزدوجة أصابت عالم الإسلام وعرقلت بشكل ضخم المزيد من تقدمه الفكري ولم يتعافَ منها أبدًا؛ أولًا، غزوات القوات المسيحية المتعددة من الغرب، المعروفة بالحملات الصليبية، وثانيًا، غزو الحشود المغولية من الشرق بقيادة جنكيزخان، التي نهبت بغداد والعديد من مراكز الثقافة والتعلم الإسلامية الأخرى. وهكذا، بحلول القرن السابع عشر، تجاوز التقدم الأوروبي في العلوم والهندسة والطب بكثير تلك التي في الشرق. لقد بزغ فجر عصر الإمبريالية الجديد، وبدلًا من تبديد المصادر الثمينة به

مكتبة الفكر الجديد

الإمبراطورية العثمانية، بدأت الأمم الأوروبية استكشاف العوالم الواسعة الانتشار في الأميركيتين وأفريقيا والشرق الأقصى واستغلالها. وتركت العثمانيين بسلام.



الفصل الثالث عشر

الدول(*) الصليبية ـ المواجهة الأساسية مع الإسلام

في الدول الصليبية، تقبل الرعايا المسلمون الخاضعون للفرنجة عمومًا سادتهم الجدد بهدوء، واعترفوا أخيرًا بعدالة الإدارة المسيحية؛ وبشكل قابل للفهم على الأحوال كافة ، كان من الممكن أن يصبحوا مشاكسين غالبًا إذا سارت أمور قوات الاحتلال على نحو سيئ. وقد تاق اليهود، لسبب معقول، إلى أيام حكم العرب لهم، ذلك لأن سادتهم المسلمين تعاملوا معهم دائمًا بتسامح ولطف[1]. وبعد وصول الصليبيين قل عدد اليهود في الأرض المقدسة وفي سوريا إلى حد كبير عقب مذبحة القدس وخشية الاضطهاد. وقد كتب الرحالة المشهور ومؤرخ الشعب اليهودي، بنجامين أوف توديلا، عام 1170 عن حزنه حول انكماش مستوطناتهم عندما زار البلاد[2]. وكان في دمشق وما حولها فقط الكثير ممن بقي من اليهود[3]. وبالنسبة إلى الفلاحين المسلمين كان ثمة تغيير قليل رغم حقيقة أن مملكة القدس قد أعيد تنظيمها ظاهريًا بأسلوب إقطاعي[4]. ومن جهة ثانية، لم تنس الغالبية الكبيرة من المسلمين، خارج المناطق المحتلة وداخلها معًا، أبدًا المذبحة الرهيبة لأهلهم على يد الصليبيين في كل من أنطاكية والقدس. بالإضافة إلى ذلك كانت

(*) فضلت ترجمة states بكلمة «دول» توخيًا للدقة، وهي تشير بالطبع إلى الممالك أو الإمارات أو الدويلات الصليبية، لأنها التسميات المتداولة في كتب التاريخ. [المترجم].

(1) ابن جبير، (تحرير رايت) **رحلة ابن جبير**، ليدن، 1852، ص 304ـ305.

(2) بنجامين أوف توديلا، **الرحلات**، (تحرير د أدلر)، النص العبري، ص 26ـ47.

(3) بنجامين أوف توديلا، المصدر السابق نفسه، ص 47ـ48.

(4) رونسيمان، ستيفن، **تاريخ الحملات الصليبية**، ج 2، ص 297.



حياتهم خلال تاريخ الممالك الصليبية كلها قد عكّر صفوها التدفق المتواصل للصليبيين والحجاج الجدد من أوروبا، الذين كان أول سؤال لهم حين يصلون «أين يوجد بعض المسلمين الذين يمكن أن أقتلهم»؟[1]

ألغى طقس العبادة اللاتيني في الكنيسة الرومانية الممارسات البيزنطية التي سادت بين المجتمعات المسيحية المحلية قبل الحملة الصليبية الأولى، ولكن، في الزمن القصير الواقع بين تأسيس الأنظمة العسكرية ونهاية القرن الثاني عشر، كانت الأنظمة العسكرية قد تغلبت على الكنيسة العلمانية في الأرض المقدسة كليًا. قدم هذا إلى ملك القدس مصدرًا يُعتمد عليه للجنود المحترفين المنضبطين جدًا والذين لم يقتصروا على عدم تكلفة الدولة بأي شيء بل كانوا كذلك أغنياء بما يكفي لبناء القلاع والدفاع عنها وهذا ما كان القليل من نبلائه قادرين على توليه بشكل معقول. ومن دون هذه المساعدة المستمرة والمكرسة كانت الدول الصليبية ستنتهي زمنيًا على نحو أسرع مما حدث فعلًا[2].

الحياة في آوتريمر

مع مرور السنوات، استسلم الفرنجة في آوتريمر، كما كانت تُدعى فلسطين آنذاك، إلى عملية تطبع بطيء بالطابع الشرقي. وفي النهاية، تخلى أغلب الفرسان عن الأزياء الغربية كليًا وعندما عادوا من المعركة قاموا بخلع دروعهم ولبس أردية حريرية في الصيف وفراء فاخر في الشتاء[3]. وبالنسبة إلى الحجاج الغربيين الواصلين حديثًا، بدت الحياة في آوتريمر مذهلة أحيانًا بسبب ترفها وتحررها. ومن المحتمل أنه لو كانت القوى الأوروبية أكثر عددًا لكان من الممكن أن يحتفظوا على نحو أكبر بأساليبهم الغربية، لأنهم خلال مدة احتلالهم كلها ظلوا أقلية صغيرة جدًا، عرقيًا واجتماعيًا معًا، في الأراضي التي حكموها[4].

كانت مستويات معيشة الفرنجة في آوتريمر أعلى بكثير من التي خبروها في أوروبا وقد استمتعوا بعناية طبية رفيعة المستوى. فقد كانت مهارة الأطباء العرب متقدمة كثيرًا

---

(1) بريدج، أنتوني، **الحملات الصليبية**، ص 135.
(2) رونسيمان، ستيفن، **تاريخ الحملات الصليبية**، ج 2، ص 312.
(3) بريدج، أنتوني، **الحملات الصليبية**، ص 127.
(4) بريدج، أنتوني، المصدر السابق نفسه، ص 125.



على مهارة الأطباء في الغرب، لذلك كان المسيحيون في الممالك الصليبية يستشيرون أطباء عربًا أو يهودًا ويفضلونهم على أطباء ثقافتهم الخاصة. وقد سجل وليم الصوري أن معاصريه «احتقروا أدوية أطبائنا اللاتينيين وممارساتهم ووثقوا في اليهود والسامريين والسوريين والمسلمين فقط»[1].

إن العداء الطويل، بحد ذاته، علاقة من نوع ما، لها إيقاعاتها وأساليبها النمطية الخاصة التي تستوجب التفاعل بين الأطراف المتقاتلة[2]. وقد بدأت ترسخ ببطء وعلى مضض درجة من الاتصال الدبلوماسي حين قام الفرنجة بعلاقات حذرة مع جيرانهم المسلمين. وكان عليهم إجراء تعاملات مع العدو كأن يتمّ تبادل سفارات من وقت إلى آخر، والتفاوض على تحالفات ضد أعداء مشتركين، وترتيب حالات هدنة، وافتداء الأسرى نتيجة للمعارك[3]. وقد ترك لنا معلّق مسلم من القرن الثاني عشر، هو أسامة بن منقذ، رواية عن آرائه في المسيحيين الذين رأى أنهم أعداؤه، لكنهم أشخاص جديرون بالاهتمام. وأشار إليهم بأنهم «الفرنجة ـ لعنهم الله»[4]. وقد احتقر جهلهم في الطب، وحيرته الحرية الاجتماعية المسموح بها للنساء المسيحيات. من ناحية أخرى، خلال أوقات الهدنة كان على ود مع الفرنجة ووجد مصالح مشتركة مع العديد منهم[5]. وعلى الرغم من الحقيقة القاسية للحرب المتقطعة، اعتاد كلا الجانبين على تقدير بوادر الكياسة والفروسية، وهو موقف تعلمه المسيحيون من خصومهم المسلمين. وفي أوقات السلام، كان النبلاء من كل مجتمع يجتمعون غالبًا للقيام برحلات صيد وكان السادة المسيحيون والمسلمون يُستقبلون أحيانًا باحترام في بلاط الدين المنافس[6].

وهكذا، عادت بين عامي 1050 و1300، السيطرة المسيحية أولًا إلى صقلية تحت حكم مملكة النورمانديين، ثم جاءت ودخلت سوريا وفلسطين، وانتشرت أخيرًا في غالبية إسبانيا. كان هذا العصر فترة عداوة مستمرة، تختلف قليلًا عن الحرب الدائمة، بين العالمين المسيحي والإسلامي حول البحر الأبيض المتوسط. هل يعني ذلك أن

---

(1) بريدج، أنتوني، **الحملات الصليبية**، ص 131.
(2) فليتشر، ريتشارد، **الصليب والهلال**، ص 86.
(3) المصدر السابق نفسه، ص 87.
(4) استشهد به فرانتشيسكو غابرييلي، **المؤرخون العرب للحملات الصليبية**، ص 73.
(5) فليتشر، ريتشارد، **الصليب والهلال**، ص 91.
(6) رونسيمان، ستيفن، **تاريخ الحملات الصليبية**، ج 2، ص 319.



جدارًا لا يُخترق من التزمت كان موجودًا بين المسيحيين والمسلمين؟[1] لم يكن من الممكن أبدًا أن يدوم السلام بين الفرنجة وجيرانهم المسلمين، ولكن كان من المفروض وجود اتصال كبير. فقد كان معظم عائدات الدول الصليبية، على سبيل المثال، يأتي من الضرائب المفروضة على التجارة بين الداخل والساحل الإسلاميين وتطلب هذا، بالضرورة، السماح للتجار المسلمين بالوصول على نحو كامل إلى الموانئ المسيحية ومعاملتهم باحترام[2]. كان المهاجرون الجدد في الحقيقة هم الذين أتوا للقتال من أجل القضية المسيحية التي خربت فجاجتهم باستمرار أي سياسة سلمية في آوتريمر. بالإضافة إلى ذلك، كانت سياسة الكنيسة الأم المقدسة نادرًا ما تحبذ أي تفاهم مع الكفار، ففي نظر الكهنوت لم يكن أي اتفاق مبرم مع غير المؤمنين أن يُعد ملزمًا[3].

ثمة مشكلة أصابت الجانبين معًا في حالة العداء الدائم هذه، وهي الافتقار إلى الوحدة. فالقوى المسيحية كانت مقسمة بين عدة دول مستقلة ذاتيًا وبعد ذلك تعقدت الأمور أكثر بالمنافسات الشخصية المريرة والصراع من أجل السلطة. هذه الحالة كانت واضحة أيضًا بين قوى الإسلام. ولم تكن القوى الإسلامية ممزقة بالمنافسات المحلية والنزاعات العشائرية فحسب، لكن أغلبية الإمبراطورية كانت سنية وخلافة مصر كانت شيعية. وهكذا فإن حالات تفشي العنف كانت مركزة عمومًا لأن أيًا من الطرفين لم يستطع أن يتحد حول هدف مشترك؛ والتحالفات المؤقتة بين الحكام المحليين المسيحيين والمسلمين ضد إخوتهم في الدين لم تكن خافية على أحد. لكن هذا كله كان سيتغير قريبًا.

صلاح الدين

في عام 1138 وُلد صلاح الدين يوسف بن أيوب، أو صلاح الدين. وكان هذا هو القائد الذي سيوحد في النهاية جيوش الإسلام ويقودها إلى النصر على الصليبيين. كان أبوه القائد الماهر نجم الدّين أيوب[*]، وقد برع صلاح الدين الشاب في التعلم

---

(1) فليتشر، ريتشارد، **الصليب والهلال**، ص 85.

(2) رونسيمان، ستيفن، **تاريخ الحملات الصليبية**، ج 2، ص 318.

(3) رونسيمان، ستيفن، المصدر السابق نفسه، ج 2، ص 320.

(*) يُروى أن نجم الدّين شاهد ابنه صلاح الدّين وهو صغير يلعب مع الصبية فأخذه من بين الأطفال ورفعه عاليًا بيديه، وكان أبوه رجلًا طويل القامة، وقال له: ما تزوجت أمك وما أنجبتك كي تلعب مع الـ

مكتبة الفكر الجديد

قبل أن يحمل السلاح في خدمة القائد المسلم نور الدين. وتحت حكم الملك بالدوين الثالث (1130ـ1162) حاصرت القوات المسيحية مدينة عسقلان العربية عام 1153. وبعد حصار طويل، تمت الموافقة على شروط الاستسلام والسماح للحامية المصرية مع السكان المدنيين بالخروج من المدينة من دون إزعاج؛ وسار بالدوين الثالث ملك القدس فيها بصفة فاتح لها وهو في سن الثالثة والعشرين. وكما علق المؤرخ الإنكليزي أنتوني بريدج بشيء من المفاجأة، «خلافًا للعديد من الصليبيين الذين قبله، التزم [بالدوين] بكلمته»[1]. هذه الجدارة بالثقة في المحافظة على المعاهدات كانت في الحقيقة نادرة بين القوات المسيحية. ومن المحزن أن بالدوين الثالث أصيب بمرض وتوفي في 10 فبراير/ شباط 1162. وبالنسبة إلى المسيحيين لم يكن من الممكن تعويضه، فقد كانت لديه مقومات ملك عظيم؛ وقد حزن عليه شعبه بشكل مرير كما اصطف الفلاحون المسلمون على الطريق تعبيرًا عن احترامهم خلال نقل جسده إلى القدس. وقد حث شخص ما نور الدين على اغتنام هذه الفرصة لمهاجمة الفرنجة، لكن هذا القائد النبيل رفض قائلًا «سيكون من الخطأ استغلال أمة حزينة على موت أمير عظيم كهذا»[2].

تجلى موقف المسيحيين الوحشي وغير النبيل ثانية عند سقوط بلبيس في مصر في أكتوبر/ تشرين الأول 1168، عندما صُدم بعض الفرنجة أنفسهم بالمذبحة الدامية والمقززة التي تلت ذلك. انتفضت مصر كلها برعب واشمئزاز، لأن المسلمين والمسيحيين الأقباط، نساء وأطفالًا، ورجالًا عجائز وأطفالًا رضّعًا ذُبحوا بعصبيّة دينية. وبعد أيام قليلة، عندما استولى الصليبيون القادمون حديثًا من أوروبا على ميناء تانيس المسيحي القبطي، وقعت مذبحة أخرى. وقد سقطت جموع المصريين، الذين كان من الممكن بسهولة أن يؤيدوا الفرنجة، بين يدي نور الدين. بعد ذلك بقليل توفي الخليفة وأصبح أحد قادة نور الدين، صلاح الدين، حاكم مصر[3]. وبحلول عام 1185، وحد

= ولكن تزوجت أمك وأنجبتك كي تحرر المسجد الأقصى! وتركه من يده فسقط الطفل على الأرض. نظر الأب إلى الطفل فرأى الألم على وجهه، فقال له: آلمتك السقطة؟ قال صلاح الدين: آلمتني. قال له أبوه: لِمَ لَمْ تصرخ؟ فقال له: ما كان لِمُحرّر الأقصى أن يصرخ. [المترجم].

(1) بريدج، أنتوني، **الحملات الصليبية**، ص 170.

(2) بريدج، أنتوني، المصدر السابق نفسه، ص 174ـ175.

(3) بريدج، أنتوني، المصدر السابق نفسه، ص 179ـ180.



صلاح الدين الفئات المختلفة داخل العالم الإسلامي من خلال الدبلوماسية والواقعية السياسية والبراعة العسكرية الفائقة، واستعد للتصرف وفق طموحه الدائم - إعلان الجهاد المقدس ضد القوى المسيحية في مملكة القدس واسترداد المدينة المقدسة نفسها.

انتظر صلاح الدين فرصته الملائمة واستفاد من فترة الهدنة الموقعة مع المسيحيين عام 1185 كي يوحد قيادته للقوات المسلمة. صمدت الهدنة بين غاي ملك القدس وصلاح الدين، لكنهما تجاهلا رينالد أوف شاتيلون الذي يوصف بأنه همجي ولا يتحمل المسؤولية[1]. خلال الهدنة كانت القوافل الكبيرة المسافرة بين دمشق ومصر تمر ثانية من دون تعويق عبر أراضي الفرنجة. وفي مايو/ أيار 1187 كانت قافلة ضخمة تسافر من القاهرة عبر أرض الفرنجة برفقة قوة صغيرة من الجنود المصريين للحماية من الغزاة البدو. وفي تحدٍّ للهدنة، هاجمها رينالد أوف شاتيلون من دون إنذار وهي تتحرك إلى مؤاب، وقتل زمرة الجنود القليلة المرافقة وأخذ التجار وعائلاتهم مع جميع أملاكهم إلى قلعته القريبة في الكرك[2]. كانت الغنيمة ضخمة، وأكبر بكثير مما رآه من قبل. ولا حاجة للقول إن أخبار هذا الهجوم انتشرت فورًا وسرعان ما وصلت سمع صلاح الدين. ولحرصه على المعاهدة، أرسل يطلب من رينالد الإطلاق الفوري للأسرى المسلمين والتعويض الكامل عن خسائرهم. رفض رينالد بعجرفة أن يستقبل مبعوثي صلاح الدين، الذين سافروا عندئذ إلى القدس واشتكوا إلى الملك غاي. استمع غاي بتعاطف إلى طلبات المبعوث وأمر رينالد فورًا بدفع تعويض مناسب. ورفض رينالد. كان غاي يدين بعرشه لدعم رينالد ولذلك لم يستطع، أو لم يرد، أن يجبره على طاعته[3].

تلال حطين

بدأ صلاح الدين يجمع أكبر جيش قاده على الإطلاق عبر الحدود في حوران وسرعان ما أصبح هذا معروفًا للفرنجة. استدعى الملك غاي ملاكه الأساسيين لإحضار رجالهم ومقابلته في عكا. جمع النظامان العسكريان كلاهما، فرسان الهيكل والصليبيون

(1) بريدج، أنتوني، **الحملات الصليبية**، ص 167.

(2) **سجلات الحملات الصليبية**، ص 152.

(3) **قصة هيراكليس Histoire d'Eracles** R.H.C. Occ. ج 2، ص 34.



المعالجون، كل فرسانهم المتاحين باستثناء القلة اللازمة لحماية قلاعهم. وهكذا، مع نهاية يونيو/ حزيران 1187، كان 1200 فارس مسلح كليًا، وعدد كبير من سلاح الفرسان المحلي الخفيف، أو التوركوبول، و10000 جندي مشاة قد اجتمعوا خارج أسوار عكا. استشار الملك نبلاءه عندما وصلت أخبار عبور صلاح الدين الأردن مع جيشه. نصح أغلبية الحاضرين الملك أن تكون استراتيجيتهم دفاعية تمامًا، لأن صلاح الدين لن يكون قادرًا على إبقاء جيشه في الميدان طويلًا في ذلك المناخ الجاف وسيكون في النهاية مجبرًا على التراجع.

على أية حال، كان رينالد أوف شاتيلون وجيرارد دي ريدفورت المتهور، قائدا فرسان الهيكل، قد اتهما الآخرين بالجبن. ونتيجة ذلك انتقل الجيش عندئذ إلى سيفوريا، وهي قاعدة أخرى يسهل الدفاع عنها حيث ثار النقاش نفسه، لكن الملك في هذه المرة صمم على البقاء في مكانه. في وقت لاحق من تلك الليلة، ومن جديد تحت ضغط من قائد فرسان الهيكل المناور والأحمق، غير رأيه، وهكذا تهيأ المشهد للكارثة[1].

نتيجة ذلك هزم صلاح الدين في معركة تلال حطين أكبر جيش مسيحي سبق أن تجمع في آوتريمر ومهد الطريق لانهيار الدول الصليبية نهائيًا. وحقيقة إن إخفاق المسيحيين المفاجئ هذا قد نجم إلى حد كبير عن العجز التستراتيجي لجيرارد دي ريدفورت، قائد فرسان الهيكل، كما كان نتيجة عبقرية صلاح الدين العسكرية، لا يمكن أن تخفف فداحة الهزيمة. بعد المعركة، أمر صلاح الدين بإعدام جميع فرسان الهيكل والصليبيين المعالجين المئتين والثلاثين الباقين على قيد الحياة قائلًا: «أتمنى أن أطهر الأرض من هذين النظامين الرهيبين، اللذين لا فائدة من ممارساتهما، واللذين لن يتخليا عن عدائهما ولن يقدما أي خدمة وهم عبيد»[2].

كانت الفدية محرمة على المحاربين الرهبان بقوانين النظامين كليهما، وعرف صلاح الدين هذا. وكان كل فارس يُمنح فرصة اعتناق الإسلام، وهو عرض متوقع رفضه، ثم يسلَّم إلى الصوفيين لقطع رأسه. وفسّر بعضهم سبب تولي الصوفيين هذه

(1) رونسيمان، ستيفن، تاريخ الحملات الصليبية، ج 2، ص 454ـ456.
(2) ريغان، جفري، قلبا الأسد: صلاح الدين وريتشارد الأول، ص 91.



المهمة بأن اعتقاداتهم ومعتقدات فرسان الهيكل كانت تضم أمورًا مشتركة كثيرة. كان الصوفيون يؤمنون أن جميع المحاربين الذين ماتوا من أجل دينهم سيذهبون إلى الجنة مباشرة، لذلك أطاعوا الأوامر مدركين تمامًا أن دخول ضحيتهم الفوري إلى الجنة كان مصيرًا أرحم من العبودية مدى الحياة. جرى إعدام رينالد أوف شاتيلون، الذي تمّ أسره في حطين، بيد صلاح الدين نفسه عقابًا على ما ندعوه الآن جرائم حرب[1]. لم يُرق سوى القليلين دموعًا عليه، لأنه كان رجلًا عنيفًا وعديم الضمير، ومنتهكًا لاتفاقيات الهدنة ومهاجمًا للحجاج الذين يشقون طريقهم بسلام إلى مكة. وعلى كتفيه الفاقدين للرأس يجب أن تقع مسؤولية خرق الهدنة التي أدت إلى معركة حطين.

وقد زعم مؤلف كتاب «أحداث الفرنجة» **غيستا فرانكوروم**، الذي قاتل المسلمين بنفسه، «**أنك لا يمكن أن تجد جنديًا أقوى أو أشجع أو أكفأ منهم**»[2]. احترم المسيحيون، برغم جميع أخطائهم، القيم الأخلاقية والقدرة العسكرية لأعدائهم. وكان صلاح الدين أول من تلقى هذا النوع من الإعجاب، لكنه لم يكن الوحيد. كان رجلًا يحترم كلمته، تقيًا وحكيمًا ورحيمًا وعادلًا. لكنه كان قاسيًا ورهيبًا فقط مع أمثال رينالد أوف شاتيلون الذي خرق قوانين الحرب. وقد اقتبس المؤرخ المسيحي جون دي جوانفيل أقوال صلاح الدين المأثورة موافقًا عليها: «**قال صلاح الدين: إنك يجب ألا تقتل أبدًا رجلًا شاركته ذات مرة خبزك وملحك**»[3].

يتجلى سلوك صلاح الدين حين فتح مدينة القدس المقدسة لاحقًا في السنة نفسها، في تباين ملحوظ مع ذلك اليوم الدامي حينما استولت الجيوش المسيحية للمرة الأولى على المدينة المقدسة عام 1099. بعد ذلك حدث حمام الدم المعتاد للصليبيين المتشددين وهم يقتلون كل شخص مسيحي ويهودي ومسلم يرونه أمامهم، حتى خاضت خيول الفرسان الغزاة في الدماء حتى منتصف قوائمها. وحين استولت قوات المسلمين على المدينة، فاوض صلاح الدين من أجل استسلام سلمي وعرض على

---

(1) فليتشر، ريتشارد، **الصليب والهلال**، ص 88.

(2) **الفرنجة وأحداث أخرى في القدس Gesta Francorum et aliorum Hierosolimitanorum**، ترجمة هيل، روزاليند، (أدنبرة 1962) ص 21.

(3) دي جوانفيل، **حياة القديس لويس**، ص 245.



سكانها فرصة افتدائهم لا ذبحهم[1]. وفي الحقيقة، لقد جرى افتداء العديد من أولئك الأسرى بوساطة صلاح الدين نفسه أو بوساطة أفراد من عائلته. ولم يجر نهب بناء واحد أو جرح أي شخص[2]. بالإضافة إلى ذلك، وفي دليل على تسامح صلاح الدين الإسلامي الفطري مع أهل الكتاب، جرى تشجيع اليهود على الاستقرار في القدس مرة أخرى[3]. كما بقي المسيحيون الأرثوذكس وأفراد من كنائس اليعاقبة السورية في المدينة، متأكدين من أمنهم نتيجة تاريخهم السابق تحت حكم المسلمين الخيّر.

تحولت دول آوتريمر الصليبية آنذاك إلى بعض المدن والمرافئ على الساحل والأراضي التي دافعوا عنها. كانت القدس قد سقطت عام 1187، وعند سماع الأخبار، أخذ الملك ريتشارد عاهل إنكلترا الصليب في مدينة تور وأقسم على تحرير المدينة المقدسة من جديد. وبعد غزو قبرص وإخضاعها في طريقه إلى الأرض المقدسة، نزل ريتشارد في عكا، وهي مرفأ محصن أساسي ضمن البقية المقتطعة من مملكة القدس، بتاريخ 7 يونيو/ حزيران[4]. وفي الأرض المقدسة قام ريتشارد، الذي ربما كان أسوأ ملك حكم إنكلترا على الإطلاق، بترسيخ سمعته إلى الأبد بوصفه محاربًا مرعبًا ونبيلًا معًا. إن المعارك بين ريتشارد قلب الأسد وصلاح الدين تُعد مادة للأسطورة فعلًا. ولمرة واحدة كان للقوات المسيحية قائد استطاعت احترامه لشجاعته وفعاليته معًا، كما اكتسب ريتشارد إعجاب خصمه صلاح الدين. خلال إحدى المعارك راقب صلاح الدين ريتشارد بإعجاب كاره، متأثرًا جدًّا بروح ريتشارد المقدامة إلى درجة أن صلاح الدين، عندما قُتلت مطية الملك الإنكليزي تحته، أمر سائسًا لديه بأن يقود زوجًا من الخيول عبر المعركة تحت علم الهدنة ويقدمهما إلى الملك الإنكليزي مع تحياته[5]. كما زُعم أيضًا أنه في مناسبة أخرى حين مرض ريتشارد، بعث صلاح الدين أحد أطبائه الشخصيين للاعتناء بخصمه الرائع. وسواء أكان هذا صحيحًا أم لا، فقد صدقه الرجال

(1) بريدج، أنتوني، **الحملات الصليبية**، ص 202ـ203.
(2) رونسيمان، ستيفن، **تاريخ الحملات الصليبية**، ج 2، ص 466.
(3) رونسيمان، ستيفن، المصدر السابق نفسه، ج 2، ص 467.
(4) ريغان، جفري، قلبا الأسد: **صلاح الدين وريتشارد الأول**، ص 155ـ156.
(5) بريدج، أنتوني، **الحملات الصليبية**، ص 226.



على نطاق واسع في جانبي الصراع آنذاك، مما أضفى قدرًا من الود والاحترام أثاره عملاقا الفروسية الحقيقيان هذان بين المقاتلين.

فرضت عادات ذلك الوقت على أي قائد مشهور أن يستغل قوته ليحقق كسبًا ماليًّا. على أية حال، كان صلاح الدين شخصًا مؤمنًا يرفض هذه الفرص، وهذا أمر استثنائي بالنسبة إلى سلطان إسلامي، توفي عام 1193 وهو في فاقة كلية تقريبًا وكان على أخيه أن يدفع ثمن كفنه[1]. لقد انتقم صلاح الدين للهزائم المريعة التي أوقعها الصليبيون بالمسلمين، ولكن بأسلوب مزج الشجاعة بالعدالة والإنسانية والكرم، وهكذا كسب انتصارًا معنويًّا مدويًا. وكان مشهورًا من الجانبين معًا أنه قائد لم يُعرف عنه سابقًا أنه أخل بكلمته مع صديق أو خصم[2].

بعد الاستيلاء على القدس استمرت الدول الصليبية الباقية في الأرض المقدسة لأكثر من قرن، وعلى الرغم من العديد من المحاولات لإنعاش الروح الصليبية، تبين أن أي تقدم تقوم به القوات المسيحية كان مؤقتًا ووهميًّا.

حملة صليبية أخرى ضد المسيحيين

كانت الحملة الصليبية الرابعة عام 1204 كارثة خلّفت خزيًا للسمعة المسيحية لا يمكن أن يزول أبدًا. بعد سلسلة معقدة من الأحداث، ألهبها الطمع أكثر من الاتقاد الديني، تقرر ألا يكون الهدف الأرض المقدسة، بل الإمبراطورية البيزنطية، مقر المسيحيين الذين يتحدثون بلغة مختلفة، ويمارسون طقوسًا غريبة ويرفضون تقبل سلطة البابا في روما.

كان هذا الهجوم بطلب من سكان البندقية مقابل نقل الصليبيين إلى الشرق. وكتب البابا إنوسنت الثالث إلى قادة الحملة الصليبية مانعًا أي هجوم كهذا على دولة مسيحية، لكن رسالته وصلت بعد بداية الهجوم. وبعد محاولتي حصار للقسطنطينية سقطت المدينة بأيدي الصليبيين يوم الاثنين 12 أبريل/ نيسان. وفي اليوم التالي بدأت مذبحة تفوق الوصف؛ فطوال 3 أيام جال 20000 رجل مسلح وثمل غالبًا في المدينة على شكل عصابات، من دون قيادة أو سيطرة كما يبدو، وهم يغتصبون ويقتلون وينهبون.

(1) ريغان، جفري، قلبا الأسد: **صلاح الدين وريتشارد الأول**، ص 218.

(2) بريدج، أنتوني، **الحملات الصليبية**، ص 202ـ203.



كانت القسطنطينية مركزًا للأعمال الفنية التي جُلبت إلى هناك من جميع أنحاء العالم طوال 1000 سنة تقريبًا. وبعد سقوط المدينة، نهب سكان البندقية العديد من أفضل روائعها، كما جرى تدميرها على نحو أشمل على أيدي القوات الفرنسية في عربدة من العنف الطائش. وسرق الكهنة الكنائس؛ وفي كنيسة آيا صوفيا مزق جنود سكارى وساخطون الستائر الحريرية، وانتزعوا الفضة من حاجز الأيقونات، وشربوا من آنية المذبح المقدسة وأجلسوا عاهرة على عرش البطريرك، حيث غنت أغاني فرنسية فاسقة. وأدخل آخرون الخيول والبغال وتركوها تلقي روثها في أرجاء المكان. وفي الشوارع خارجًا لم ينجُ أحد؛ فالراهبات تمّ تجريدهن من ثيابهن ثم جرى اغتصابهن؛ وخضعت النساء والفتيات إلى مجون مماثل وجرى تحطيم رؤوس الأطفال الصغار والرضّع مثل قشور البيض على الجدران بينما كان الجنود يلوحون بهم من أعقابهم. وكتب نيسيتاس، المؤرخ البيزنطي، رثاء للمدينة يشكو فيه بمرارة أن المسلمين كانوا أرحم بكثير من هؤلاء المسيحيين المزعومين. وسجل أحد الصليبيين، وهو فيلهاردوين، أن الغزاة:

> ... ابتهجوا جميعًا وقدموا الشكر للرب على ما منحهم من الشرف والنصر... لأن من كانوا فقراء يعيشون الآن في غنى وترف. وهكذا احتفلوا بأحد الشعانين وعيد الفصح التالي له بقلوب مليئة بالفرح للخيرات التي قدمها ربنا ومخلصنا لهم[1].

انْتُخِبَ نبيل فرنسي، هو بالدوين أوف فلاندرز، إمبراطورًا، وسيطر نبلاء البندقية والفرنسيون على أملاك النبلاء في اليونان ومناطق الإمبراطور البيزنطي الأوروبية الأخرى وحكموها بشكل مستقل.

على الرغم من تحفظاته السابقة، عندما سمع البابا إنوسنت الثالث بسقوط القسطنطينية احتفل، وأصدر نتيجة هذا الحدث حكمًا بابويًّا على الكنيسة المنشقة في الشرق. وكتب رسالة تهنئة فياضة إلى الإمبراطور الجديد، بالدوين، عبّر فيها عن موافقته غير المحدودة على كل ما حدث. لقد احتقر الشعب البيزنطي دائمًا الفرنجة الذين كانوا، في نظره، همجًا قادرين على ارتكاب أي عمل وحشي. وحين عرفوا أن البابا أعطى بركته

(1) بريدج، أنتوني، **الحملات الصليبية**، ص.237ـ238.



لاغتصاب مدينتهم وذبح شعبها اتخذت كراهيتهم للغرب أبعادًا جديدة. كان هذا كله سيجلب نتائج تستمر طوال قرون[1].

سنوات آوتريمر الأخيرة

لم يكن للحملات الصليبية التي تلت أي تأثير دائم على تقدم القوات الإسلامية في الأرض المقدسة. كانت هذه الحملات الصليبية التي تزايدت غير فعالة وظلت آوتريمر ممزقة دائمًا بالمنافسات الشخصية والنزاع المدمر والحرب الأهلية الواضحة أحيانًا. فبعد إخفاق الحملة الصليبية بقيادة ملك فرنسا لويس التاسع عام 1244، اندلعت حرب أهلية مريرة حول ملكية الدير المكرس للقديس سابا المنتصب على تل يفصل بين مناطق أهل البندقية وأهل جنوة في عكا. تحالف جيش البندقية مع جيش بيزا وفرسان الهيكل والفرنسيين الجنوبيين وعائلة إيبيلين القوية؛ بينما كان جيش جنوة مدعومًا من الصليبيين المعالجين وواحد أو اثنين من أقوى النبلاء. كان ثمة صراع مرير في شوارع عكا، ومعارك في البحر بين الأساطيل الإيطالية المتنافسة، ونزاع عنيف للسيطرة على المدن المسيحية القليلة في آوتريمر[2].

كانت الدول التجارية الإيطالية المختلفة التي كسبت أغلب دخلها من التجارة مع المسلمين في حالة اقتتال مستمر. وقد سيطرت عمليًّا على تجارة آوتريمر كلها بسيادتهم على البحار، وتقاتلت بكل قسوة في محاولاتها للسيطرة على التجارة بين أوروبا ودول شرقي البحر المتوسط، المسيحية أو المسلمة، بغض النظر عن حالة إخوتهم المسيحيين في آوتريمر. وكانت الأنظمة العسكرية لفرسان الهيكل والصليبيين المعالجين والفرسان الألمان المجموعات الوحيدة التي لديها أي شيء يشبه قوة الدول الإيطالية، وقد كره بعضها البعض الآخر بالقدر نفسه من الحقد الذي فعله الإيطاليون. كما كانت غنية أيضًا، وأقوى عسكريًّا من أية عائلة نبيلة بمفردها، وعديمة الرحمة كليًّا عندما يصل الأمر إلى الدفاع عن مصالحها الأنانية[3]. لذلك لا عجب مطلقًا من أن الجيوب المسيحية التي بقيت في آوتريمر كانت محكومًا عليها بالفناء.

---

(1) بريدج، أنتوني، **الحملات الصليبية**، ص 238_239.
(2) بريدج، أنتوني، المصدر السابق نفسه، ص 279.
(3) بريدج، أنتوني، المصدر السابق نفسه، والصفحة نفسها.



سقوط عكا

وأخيرًا، في 5 أبريل/ نيسان 1291، ظهر القائد المسلم الأشرف أمام أسوار عكا على رأس جيش قوامه ربع مليون رجل. ووجد أن أبواب المدينة مغلقة ويدافع عن أسوارها فرسان ومشاة من إنكلترا وفرنسا وإيطاليا، وعمليًّا كامل بقية فرسان الهيكل والصليبيين المعالجين والفرسان الألمان. وكان للقوات المسيحية مزيّة واحدة فقط، فنتيجة سيطرتهم على البحر، كان يمكن إحضار الطعام لهم على نحو منتظم من قبرص[1]. على أية حال، أدى هجوم قوات الأشرف إلى إضعاف أسوار المدينة كثيرًا إلى أن بدأت تتداعى وتنهار. قاد سادة فرسان الهيكل والصليبيين المعالجين الكبار هجومًا مضادًّا عنيفًا، ولكن على الرغم من أن فرسانهم قاتلوا بشجاعة فائقة كانوا يشتهرون بها عن جدارة، لم يستطيعوا بأعدادهم الكبيرة أن يحرزوا أي تقدم. كابد الفرسان خسائر جسيمة، وفي النهاية تراجعوا وقُتل وليم أوف بيجو، زعيم الهيكل وأصيب جون دي فيلييه، رئيس المستشفى، بجراح بالغة[2]. وسقطت عكا.

سرعان ما واجهت مدن الفرنجة الباقية مصير عكا نفسه؛ وسقطت صور، التي تحدت صلاح الدين مرتين، من دون قتال؛ ودافعت عن صيدا مجموعة صغيرة من فرسان الهيكل بعض الوقت، لكن الصعوبات التي واجهتها كانت كبيرة جدًّا وأُجبرت على الإبحار بعيدًا والالتحاق بأفراد آخرين من النظام في قلعة طرطوس. سقطت بيروت بعد ذلك، واستسلمت حيفا بعد أيام قليلة. لم يكن فرسان الهيكل آنذاك أقوياء قوة تكفي لحماية القلاع الثلاث المعزولة التي ظلوا يمتلكونها، لذلك تخلوا عن طرطوس وأهليت، وركزوا على الدفاع عن جزيرة أرواد المحصنة. وقد واصلوا السيطرة عليها حتى أجبرهم ضغط نظامهم في فرنسا على مغادرة موطئ القدم الرمزي ذلك خارج ساحل آوتريمر[3]. وهكذا تناقصت المدن الصليبية واحدة بعد أخرى، حتى فقدت القوات المسيحية موطئ قدمها الفعال الأخير في تلك البلاد المقدسة والغارقة في الدم[4].

---

(1) بريدج، أنتوني، **الحملات الصليبية**، ص 293.

(2) بريدج، أنتوني، المصدر السابق نفسه، ص 294ـ295.

(3) بريدج، أنتوني، المصدر السابق نفسه، ص 296.

(4) والاس ـ ميرفي وهوبكنز، **حراس الحقيقة**، الفصل 14.



حدث نقد كثير في أوروبا حول الحملات الصليبية، لكنه لم يكن حول المبادئ الأساسية لمشروع الحرب الصليبية. فقد تركز على الحالة الأخلاقية الملموسة وعلى تصرف الصليبيين، أو اقتصر على النقاشات حول الطرق والوسائل المتعلقة بتنظيم حملات صليبية معينة[1]. كان الطابع الأخلاقي للصليبيين يتلخص بسلوكهم عندما استولوا على القدس وعلى مدن إسلامية أخرى، نتيجة استخدام رينالد أوف شاتيلون للعنف والتعصب القاسي للملك لويس التاسع[2]. وكان التفوق الأخلاقي لأعدائهم يتمثل بالنظام المتسامح على نحوٍ تلقائي في الإسلام نفسه والسلوك النبيل لذلك القائد العظيم، صلاح الدين.

(1) فليتشر، ريتشارد، **الصليب والهلال**، ص 85.

(2) فليتشر، ريتشارد، المصدر السابق نفسه، ص 92.



الفصل الرابع عشر

أوروبا ونشوء الإمبراطورية العثمانية

لم تكن أورُوبا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر تحارب المسلمين في الأرض المقدسة فحسب بل على طرفها الجنوبي في إسبانيا. كان المسلمون هناك يتراجعون خطوة فخطوة، كما سقطت ممالك الطوائف واحدة بعد الأخرى بيد القوات المسيحية، ونتيجة ذلك كان التهديد الذي تشكله الدولة الإسلامية داخل أوروبا يتلاشى بصورة تدريجية. وفي عام 1248، بدأ غزاة إشبيلية الكاستيليانيون ما قد ندعوه الآن «التطهير العرقي» بطرد كل مسلم من المدينة في محاولة لخلق منطقة مسيحية حصريًا. ومن ناحية ثانية، سرعان ما اكتشف الغزاة الجدد أن المدينة لم تعد تعمل من دون السكان السابقين فسمحوا على مضض للمسلمين بالعودة. وأصبح هؤلاء العائدون معروفين بالتعبير العربي «المدجنين»، أي «المسموح لهم بالبقاء»[1]. وصلت عملية إعادة الغزو إلى توقف فعلي عام 1280، عندما سقطت مملكة مرسية الصغيرة، تاركة مملكتي غرناطة ومالقة فقط تحت السيطرة الإسلامية[2].

زوال فرسان الهيكل

وصفتُ في الفصل السابق كيف طرد الملك فيليب الجميل عاهل فرنسا اليهود وصادر أملاكهم عام 1306، في محاولة لدعم موارده المالية الضعيفة. بعد ذلك طرد مصرفيي لومبارد وخفض قيمة العملة. وكان هدفه التالي أغنى نظام ديني في أوروبا، فرسان الهيكل. عند فجر الجمعة 13 أكتوبر/ تشرين الأول 1307، فتح وكلاء الملك في

(1) فليتشر، ريتشارد، **الصليب والهلال**، ص 112.

(2) فوسيير، روبرت، تحرير، **تاريخ كمبردج المصوّر للعصور الوسطى**، ج 3، ص 65_66.



جميع أنحاء فرنسا الأوامر المختومة التي وزعوها في 14 سبتمبر/ أيلول[1]. وهاجموا أملاك كل فارس هيكل في المملكة واعتقلوا قائد فرسان الهيكل، جاك دي موليه، ونحو 60 فارسًا من الحلقة الداخلية وحوالي 24 من أفراد النظام المقيمين في فرنسا[2]. ولتسويغ هذه الاعتقالات، وجّهت اتهامات بالهرطقة ضد نظام المحاربين المسيحيين الأول وُصفت بأنها «شيء مرير، شيء مؤسف، شيء مروع أكثر من إمكان التفكير فيه، ورهيب سماعه، إنه جريمة مقيتة، وشر لعين، وعمل كريه، وخزي بغيض، شيء غير إنساني تقريبًا، منفصل في الحقيقة عن كل إنسانية»[3]. وجرى اتهام الفرسان بأنهم سببوا للمسيح «أذى أفظع مما تحمله على الصليب»[4]، وهو تعليق أشار ضمنًا إلى أن فرسان الهيكل شكلوا خطرًا على المسيحية أكبر من المسلمين.

زعم الملك أنه كان يعمل منفردًا بناء على طلب غيّوم دي باريس[5]، المحقق الرئيس في فرنسا ونائب البابا والكاهن الذي يتلقى اعتراف الملك. على أية حال، من الواضح تمامًا أن الملك كان المحرك الأساسي في المسألة كلها وأن محكمة التفتيش كانت، في هذه الحالة على الأقل، تتصرف وفق أوامر الدولة وليس أوامر البابا. لقد استجوب المحققون وعذبوا أسراهم الفرسان طوال سبع سنوات تقريبًا ومات الكثيرون تحت إشرافهم؛ فرئيس أساقفة سان، على سبيل المثال، أشرف على حرق 54 من فرسان الهيكل عام 1310[6]. وجاءت الخاتمة في 18 مارس/ آذار 1314 عندما جلس رئيس أساقفة سان نفسه، بصحبة ثلاثة مفوضين بابويين، على منصة أقيمت خارج الجهة الغربية لنوتردام في باريس. قرأ أسقف ألبا الاعترافات التي كانت قد انتُزعت بالتعذيب من فرسان عدة وحُكم عليهم بالسجن المؤبد.

عند ذلك خلّص قائد فرسان الهيكل، جاك دي موليه، نفسه بشجاعة مدروسة رسخت مكانته في التاريخ إلى الأبد. هذا الحطام المعذب البالغ من العمر 70 سنة الذي كان ذات مرة محاربًا عظيمًا، أشار إلى أنه يريد التحدث. وتحت انطباع خاطئ بأن دي

(1) باربر، مالكولم، **محاكمة فرسان الهيكل**، ص 45.
(2) بايجنت، لاي ولينكولن، **الدم المقدس والكأس المقدسة**، ص 46.
(3) ليزران، **ملف قضية فرسان الهيكل**، ص 16.
(4) باربر، مالكولم، **محاكمة فرسان الهيكل**، ص 45.
(5) باربر، مالكولم، المصدر السابق نفسه، ص 47.
(6) بارتنر، بيتر، **فرسان الهيكل وأسطورتهم**، ص 82.



موليه يود الاعتراف، سمح له الأساقفة المجتمعون بلطف أن يخاطب الحشد. حينئذٍ تحدث القائد:

يقتصر الأمر على أنني، في يوم رهيب كهذا، وفي آخر لحظات حياتي، علي أن أكشف ظلم الباطل كله، وأجعل الحقيقة تنتصر.

لذلك أعلن، أمام السماء والأرض، وأعترف، مع خجلي الأبدي، بأنني ارتكبت أفدح الجرائم ولكن... كان ذلك اعترافًا بما وُجّه من اتهام بشكل شرير إلى النظام. إنني أشهد ـ والحقيقة تلزمني بالشهادة ـ أنه بريء!

لقد قمت بالإعلان المعاكس لمجرد إيقاف آلام التعذيب المفرطة، ولتهدئة الذين جعلوني أتحملها.

إنني أعرف العقوبات التي أصابت جميع الفرسان الذين كانت لديهم الشجاعة لإلغاء اعتراف مماثل؛ لكن المشهد المخيف الماثل أمامي لا يستطيع جعلي أؤكد كذبة بأخرى. لقد عرضتني الحياة إلى مثل هذه الشروط الشائنة التي أتركها من دون ندم(1).

قوبلت كلمات دي موليه بهتاف استحسان هادر من الحشد المتجمع بينما وقف جوفروا دي شارني بجانب القائد في إشارة إلى الدعم وبعد ذلك تحدث هو نفسه عن قدسية نظام فرسان الهيكل. وألغى اعترافه أيضًا(2). وحُلَّ الأمر بإخلاء الساحة وإبلاغ الملك عن الأحداث فورًا. وحكم على الفارسين بالموت البطيء في ذلك المساء نفسه على جزيرة دي جافيو. وجرى إعداد نار بطيئة لتأكيد إطالة معاناة فارسي الهيكل وتم شيّ جاك دي موليه وجوفروا دي شارني ببطء حتى الموت. وأخيرًا ورث الفرسان الصليبيون المعالجون الأغلبية الهائلة لأملاك فرسان الهيكل في أوروبا.

وفي الحقيقة لم يقتنع نظام فرسان الهيكل أبدًا بأية تهمة من التهم الموجهة ضده، ومع ذلك ظل النظام واقعًا تحت قمع البابا في 22 مارس/ آذار 1312 نتيجة الرسالة البابوية، «الصوت العالي» **vox in excelso**. وتكشف صياغة هذه الوثيقة:

... كذلك، نظرًا للفضيحة الخطيرة التي نشأت عن هذه الأمور ضد النظام، التي لم يبدُ أنه أمكن كبحها بينما كان هذا النظام لا يزال موجودًا... من دون إلحاق

---

(1) هوبكنز، سيمانز ووالاس ـ ميرفي، **الملك الإله**، ص 172.

(2) بارتنر، بيتر، **فرسان الهيكل وأسطورتهم**، ص 83.



> **اللوم بالإخوة... ليس بحكم قضائي، ولكن عن طريق تدبير احتياطي، أو أمر بابوي، نلغي نظام الهيكل آنف الذكر... ونخضعه إلى حظر دائم... وإذا تصرف أي شخص ضد هذا، فسيتعرض إلى حكم فعلي بالحرمان الكنسي[1].**

وهكذا انتهى نظام فرسان الهيكل، التنظيم الذي أتاحت حمايته لطرق الحج في جميع أنحاء أوروبا تطوير التجارة البرية البعيدة المدى على نحو، مع ارتباطه بممارسات فرسان الهيكل المصرفية، شجع النشاط الاقتصادي، وسهل تراكم رأس المال، ووضع بذلك أسس الاقتصاد الأوروبي الحديث. على أية حال، لقد استمر تقليد فرسان الهيكل وطابعه الروحي بين عائلات الملك الإله وظهر بعد بضعة قرون على شكل «الماسونية». تعلم هذه الأخويّة المنتشرة الآن في جميع أنحاء العالم أعضاءها بوساطة الطقوس والقصص الرمزية مسارًا روحيًا للتسامح والأخوة يستند إلى أسس ثابتة للحقيقة والعدالة.

طرد اليهود من إسبانيا

وأخيرًا أصبحت إسبانيا المسيحية متحدة تحت الحكم المشترك لفردناند الخامس (1452ـ1516) وإيزابيلا (توفيت عام 1504) وكان قرارهما بإبعاد اليهود من مملكتهما ذروة القمع المُنَظّم الذي جرى تبنيه في سبعينيات القرن الخامس عشر. اتضحت هذه السياسة الجديدة مع تأسيس محكمة التفتيش الإسبانية بين عامي 1478 و1480 خلال فترة الزهو الديني التي اكتسحت البلاد بعد سقوط غرناطة. فقد قامت محكمة التفتيش بكتابة مرسوم الطرد، وعلى الأرجح بيد توماس توركيمادا، ووقعه الملكان المشتركان في مارس/ آذار وأُعلن بعد شهر. وأمر المرسوم جميع اليهود بمغادرة إسبانيا مع نهاية يوليو/ تموز. سبّب هذا الخروج الجماعي الإجباري قدرًا كبيرًا من المعاناة إلى درجة أن المؤرخين الأسبان والإيطاليين، الذين لم يشعروا بتعاطف مع اليهود، عبروا عن صدمتهم ورعبهم. وقد هرب العديد من اليهود إلى البرتغال، ولكن من دون جدوى، لأن ملك البرتغال بعد أربع سنوات، تحت ضغط من إسبانيا، أصدر مرسومه الخاص بالطرد[2].

كانت النتيجة النهائية لعمليات طرد اليهود الإجباري هذه من أوروبا الغربية حركة ضخمة للناس؛ وتدفقًا مستمرًّا لليهود من أوروبا المسيحية إلى الأراضي الإسلامية،

---

(1) رسالة البابا كليمنت الخامس، «**بالصوت العالي**» **Vox in excelso**.

(2) برناوي، علي، **أطلس تاريخي للشعب اليهودي**، ص 120.



أصبح سيلًا خلال أزمنة الاضطهاد الحاد في أجزاء من أوروبا. كان أكبر خروج تلا طرد اليهود من إسبانيا عام 1492 عندما غادر بين 50000 و150000، معظمهم إلى المغرب والإمبراطورية العثمانية. وكانت هذه الإمبراطورية الإسلامية الجديدة قد استقبلت عددًا كبيرًا من المهاجرين اليهود في العقود السابقة ورحبت بهم، ومنحت المهاجرين الجدد فرصة لتحقيق حياة مستقرة ومزدهرة لهم ضمن ثقافة تحمل تسامحًا واحترامًا تجاه «أهل الكتاب»(1).

عصر النهضة

في أجزاء من أوروبا المسيحية كانت ثمة مناطق متفرقة من التسامح مع المهاجرين اليهود المطرودين من شمال أوروبا وفرنسا وإسبانيا والبرتغال. كان الطغاة الذين حكموا دول المدن الشمالية في إيطاليا متسامحين مع الذين هربوا من الظلم في مكان آخر. وتحت حكمهم المتسامح حدث عصر النهضة، أحد أعظم أزمنة ازدهار العبقرية الإنسانية في أوروبا ؛ وانفجار هائل للموهبة الخلاقة السليمة والمؤثرة(2). بدأ المصرفي والتاجر، كوزيمو دي مديتشي (1389ـ1464)، الحاكم الفعلي لجمهورية فلورنسا، مع أنه لم يتولَّ منصبًا رسميًّا أبدًا، سلسلة من المشاريع الكبيرة التي غيرت الحضارة الغربية في النهاية. في عام 1439 أرسل وكلاء إلى جميع أنحاء عالم البحر المتوسط سعيًا وراء مخطوطات قديمة، وفي عام 1444 أسس أول مكتبة مسيحية عامة في أوروبا، مكتبة سان ماركو في فلورنسا، وهي مؤسسة شكلت تحديًا مباشرًا لمحاولات الكنيسة الضعيفة على نحو متزايد للتحكم بالوصول إلى التعليم. وعلى الرغم من التأسيس السابق للجامعات، واصلت الكنيسة خداع نفسها بأنها تسيطر على النشاط الفكري كله، ومن ثم إحراق الفيلسوف جوردانو برونو على الخازوق بتهمة الهرطقة والإقامة الجبرية لجاليلو بسبب تعاليمه المناقضة لعقيدة الكنيسة. لم يكتفِ كوزيمو بتأسيس المكتبة، بل أمر جامعة فلورنسا بتعليم اليونانية القديمة للمرة الأولى خلال سبعة قرون. وهكذا، بفضل حفظ المخطوطات الأصلية في المكتبات الإسلامية استطاع الطلاب الآن قراءة الأعمال الكلاسيكية كما كُتبت ولم يعودوا مجبرين أن يعتمدوا على الترجمات(3).

---

(1) لانج، نيكولاس، **أطلس العالم اليهودي** ص 41.

(2) فيشر، هـ. أ. ل.، **تاريخ أوروبا**، ص 388.

(3) بايجنت، لاي ولينكولن، **الدم المقدس والكأس المقدسة**، ص 109.



بدأت دراسة الأدب والفلسفة والعلوم اليونانية القديمة بالازدهار وأصبحت مركزًا لروح البحث الفكري الذي أطلق عصر النهضة. بقيادة فلورنسيين، هما بترارك (1304ـ1374) وبوكاشيو (1313ـ1375)، تتابعت هذه الدراسات بفهم وتقدير لم ترهما أوروبا العصور الوسطى من قبل. بحث بترارك وبوكاشيو عن الأعمال الكلاسيكية وأعادا لها مكانتها بعد بقائها مهملة في المكتبات الرهبانية لأوروبا المسيحية وغيرها[1]، وبعد إعادة الغزو تمّ إرسال معظم علوم العصور الهلينية إلى فلورنسا من المكتبات الإسلامية في غرناطة وطليطلة[2].

لم تنظر البابوية إلى هذا الانفجار للنشاط المبدع والحرية الفكرية برضا، وكانت ستستخدم قوتها ضد طبقة نبلاء الملك الإله في الشمال حيث جرى اغتيال غالتسيو ماريا سفورتسا عام 1476 وغوليانو دي مديتشي عام 1478 نتيجة مؤامرة بابوية[3]. وعلى الرغم من هذه المحاولات لإيقاف أو قتل الروح الجديدة للبحث والتقدم الفكريين، عزز لورينزو دي مديتشي (1449ـ1492)، المعروف باسم لورينزو الرائع، قوته في فلورنسا وأحاط نفسه بعلماء مشبعين بروحانية مصر وحكمة اليونان. وازدهر الأدب الديني والفلسفة والعلوم، كما عمل الفنانون ذوو المكانة الكبيرة، مثل بوتيتشيلي ومايكل أنجيلو وفيروكيو وغيرلاندايو، كلهم تحت رعايته الكريمة[4].

كان شمال إيطاليا سابقًا خليطًا مشوشًا تقريبًا من دول المدن القوية، كل منها تحسد وتغار من مكانة منافستها، وهكذا كانت ثمة حاجة ملحة إلى توازن قوى عادل حقًا بين دول المدن الشمالية. كان الرجل الذي سعى حثيثًا لتحقيق هذه المهمة الضخمة هو كوزيمو دي مديتشي، المناور السياسي الذكي الذي حَوّل جمهورية فلورنسا إلى حكم استبدادي مخفي. أقام كوزيمو تحالفًا مع فرانتشيسكو سفورتسا، الذي أصبح لاحقًا دوق ميلانو، وهكذا حافظ على توازن القوى في شمال إيطاليا[5]. وعزز فرانتشيسكو

(1) أورتن، بريفيت، **الخطوط العامة لتاريخ العصور الوسطى**، ص 469.
(2) غودوين، جفري، **إسبانيا الإسلامية**، ص 7.
(3) فوسيير، روبرت، **العصور الوسطى**، ج 3، ص 504.
(4) رايت، إزموند، **عالم العصور الوسطى وعصر النهضة**، ص 218.
(5) أورتن، بريفيت، **الخطوط العامة لتاريخ العصور الوسطى**، ص 467.



سفورتسا قبضته على ميلانو بعد سنوات عدة من القتال ضد العدو التقليدي ـ البندقية، التي واجهت آنذاك عدوًّا بارعًا في الاستراتيجية[1].

ملجأ لليهود في إيطاليا

حكم نبلاء الملك الإله في شمال إيطاليا الأراضي التي كانت في وقت سابق ملجأ للمنشقين الدينيين مثل الزنادقة وفرسان الهيكل، وقدمت آنذاك مأوى آمنًا لليهود الذين يهربون من الاضطهاد في أجزاء أخرى من أوروبا. تعزّزت مهارات المهاجرين اليهود وفطنتهم المالية وعجلت الاتجاه نحو النجاح التجاري الذي نجم عن المزايا الجغرافية التي تمتعت بها دول المدن الشمالية. بدأ المهاجرون اليهود يحتشدون آنذاك في شمال إيطاليا ـ ومع ذلك وفي الوقت نفسه كان ثمة مجتمع يهودي مستقر جيدًا في الدول البابوية التي تضمنت أكثر بكثير من روما فقط. بحلول النصف الثاني من القرن الرابع عشر، انتقل اليهود من روما إلى وادي نهر البو بينما عبرت جبال الألب أعداد كبيرة من اليهود باتجاه شمال إيطاليا هربًا من الاضطهاد المتزايد في ألمانيا. وصلت موجة ثالثة، أقل عددًا، بعد طردها من فرنسا عام 1306 و1396، واستقرت هذه بشكل أساسي في بيدمونت وسافوي.

كانت المرحلة الأكثر ازدهارًا لليهود في شمال إيطاليا هي عصر النهضة، وذلك عندما وصلت مجتمعاتهم إلى ذروتها[2]. منح توطن العائلات المصرفية اليهودية في دول المدن الإيطالية الشمالية حافزًا كبيرًا للمجتمعات اليهودية في جميع أنحاء المنطقة. استقر اليهود الغربيون الهاربون من اضطهاد شمال أوروبا في شمال إيطاليا بين عامي 1350 و1420[3]. وأُسس مصرف بيزا، أكبر مصرف يهودي في إيطاليا خلال عصر النهضة، في فلورنسا عام 1438. وهكذا أثبتت عائلة مديتشي أنها متسامحة مع المجتمع اليهودي الفطن ماليًّا كما كان أسلافها في العهود الكارولنجية. وحين طُرد اليهود من إسبانيا والمناطق الإسبانية في نابولي وصقلية، تشجعوا على الاستقرار في بيدمونت وميلانو ورافينا وبيزا وجنوة وليفورنو وفلورنسا[4].

(1) فيشر، هـ. أ. ل.، **تاريخ أوروبا**، ص 393.
(2) برناوي، علي، **أطلس تاريخي للشعب اليهودي**، ص 126.
(3) برناوي، علي، المصدر السابق نفسه، ص 126.
(4) برناوي، علي، المصدر السابق نفسه، ص 127.



الإصلاح

سرعان ما عانت أوروبا المسيحية من مشاكل دينية داخلية أدت إلى صرف انتباهها بعيدًا عن عدائها للإسلام. وحالما طبّق عصر النهضة آثاره المفيدة، تعرضت المسيحية لضغط من أجل الإصلاح، ولكن بدلًا من الإصلاح انشقت إلى معسكرات متقاتلة سرعان ما أظهرت كل الوحشية والتزمُّت اللذين ميزا حروبها المقدسة سابقًا. وضع الإصلاح البروتستانتي الأخ ضد أخيه والشعوب ضد حكامها والدول البروتستانتية الجديدة في حالة حرب مع جيرانها الكاثوليك. وكان البروتستانت في الأراضي الكاثوليكية يعاملون على أنهم زنادقة، تهاجمهم محكمة التفتيش وتحرقهم على الخازوق. ولم يلاقِ نظراؤهم الكاثوليك وضعًا أفضل في الدول البروتستانتية. على أية حال، من الإنصاف القول: إن العديد من هذه الحروب بين الدينين كان يُشن لأسباب دنيوية تتعلق بالسلطة المدنية بقدر ما هو من أجل الهوية الدينية. وكان العديد من الملوك والأمراء في شمال أوروبا مسرورين جدًّا لتحررهم من التدخل البابوي.

من المحزن أن اليهود لم يعيشوا بين المجتمعات البروتستانتية حياة أفضل مما عاشوه في المجتمعات الكاثوليكية، لأن الحكام البروتستانت طردوهم أيضًا، أو على أقل تقدير، طبقوا العديد من قيود العصور الوسطى عليهم. لم تتوقف هذه الشبكة المعقدة من المسيحية المناوئة لليهودية مع التنوير بعد بضعة قرون، بل استمرت طويلًا بعدما بدأ تقدم هذا الشكل الجديد من العقلانية الإنسانية بغرس مواقف أكثر إيجابية[1].

الإمبراطورية العثمانية

غزا حكام عالم الإسلام العثمانيون الجدد بقايا الإمبراطورية البيزنطية خلال القرن الخامس عشر، وهي مهمة كانوا مدعومين فيها جيدًا من جيشي البندقية وجنوة مع إحساس لجني الربح كان دقيقًا كل الدقة. فقد بدأ هؤلاء الحكام الجدد، الأتراك العثمانيون، يوسعون ويعززون سلطتهم على دول البلقان وعلى شواطئ البحر الأسود[2]. وحين الاستيلاء على القسطنطينية في 29 مايو/ أيار 1453، قام السلطان العثماني بدخوله المهيب إلى المدينة، التي سلمها عندئذ إلى غضب جنوده، بعد أن عبّر أولًا عن رغبته

(1) لانج، نيكولاس، **أطلس العالم اليهودي**، ص 37.
(2) فوسيير، روبرت، تحرير، **تاريخ كمبردج المصوّر للعصور الوسطى**، ج 3، ص 306.



في أن تبقى الأسـوار والمنازل سليمة[1]. وهكذا ولدت إمبراطورية جديدة تأسست آنذاك بثبات عمليًا على الأراضي نفسها التي غطتها الإمبراطورية البيزنطية في ذروتها.

من جهة ثانية، كان يجب إعادة إسكان القسطنطينية بالمهاجرين اليونانيين من جميع المناطق الخاضعة، وقد حدد هذا، إلى حد معين، طريقة تنظيم العلاقات بين السلطان ورعاياه اليونانيين. أخضع السلطان محمد الثاني (1402ـ1481) نفسه للطقوس البيزنطية عندما منح جيناديوس سكولاريوس لقب Oecumenical Patriarch بطريرك عالمي، وأعز نفسه بلقبه Amiras Turkorromaion (أمير الأتراك الرومان). كان هذا، في نظره، يعني فرض قبول حقيقة أنه حل محل الإمبراطور البيزنطي على رأس إمبراطورية متعددة الأعراق، بدلًا من حكم مجرد إمبراطورية تركية ـ يونانية. وهكذا فإن الامتيازات الممنوحة إلى بطريركية القسطنطينية زادت من سلطته على السكان التي كانت راسخة جيدًا فعلًا ضمن إطار المنظمة الكنسية. بدت الكنيسة معززة بهذه العملية وأصبحت الناقل الوحيد والحافظ لكل من التراث الثقافي اليوناني والتقليد البيزنطي، لأنها لم تقم بمجرد مركز للدين والطقوس، لكنها زودت أيضًا اليونانيين وشعوب البلقان والأراضي السلافية بوسيلة للاستمرار بشكل فعال عن طريق المحافظة على تراثهم الثقافي. هذا التراث الذي كان، بعد قرون عدة، سيقدم الأساس الذي يمكن بناء هويتهم الوطنية عليه[2].

منذ منتصف القرن السادس عشر، مارست الإمبراطورية العثمانية سلطة سياسية وعسكرية كبيرة عززت سلطتها من الحدود الإسلامية إلى الخليج الفارسي، ومن نهر الدانوب إلى حافة الصحارى، ومن البحر الأسود إلى شبه الجزيرة العربية. كانت إمبراطورية واسعة حقًا، إمبراطورية لاقت قوتها إعجابًا واحترامًا على نطاق واسع؛ عملاقًا راسخًا كما يبدو لم تحقق أوروبا مقابله على الإطلاق سوى مجرد نجاحات دفاعية، لكنه في كثير من الأحيان، كان عليه أن يتغلب بالحيلة. وبتوحيد العالم العربي ـ الإسلامي بشكل كلي عمليًا، أصبح السلطان حاكمه الدنيوي، وزعيمه الروحي أيضًا بوصفه «أمير المؤمنين»، مع أنه ظل لا يحسب نفسه خليفة. وبالنسبة للعالم

(1) فوسيير، روبرت، تحرير، **تاريخ كمبردج المصوّر للعصور الوسطى**، ج 3، ص 321.
(2) فوسيير، روبرت، المصدر السابق نفسه، ج 3، ص 325.



المسيحي كان يمثل قوة الإسلام، مع أنه لم تكن لديه رغبة في سحق المسيحيين، وبالتأكيد ليس الذين داخل إمبراطوريته. على أية حال، كانت أوروبا المسيحية تفكر في غزو العالم مع بداية القرن السادس عشر، وشكلت الإمبراطورية العثمانية عقبة منيعة أمام تلك الطموحات. لقد كانت موجودة في جميع أجزاء العالم القديم: البحر المتوسط وأوروبا الشرقية والشرق الأدنى، وكان السلطان، طبعًا، تجسيدًا للإمبراطورية العثمانية؛ وقد استخدم سلطة مطلقة، وكان حاكما دنيويًا، وقائدًا لجميع المسلمين، وبعمله وفق الدين والثقافة والتقاليد الإسلامية، كان حاميًا لليهود والمسيحيين[1].

التسامح مع «أهل الكتاب»

يتألف مواطنو الإمبراطورية من فئتين أساسيتين: المسلمين الذين تمتعوا بالحقوق التي حددتها شريعة القرآن جميعها؛ وغير المسلمين، وبالتحديد المسيحيون واليهود الذي كانوا يتبعون زعماءهم الدينيين وبطارقتهم ومطارنتهم وحاخاماتهم الكبار[2]. ومقابل حريتهم الدينية والحماية اللتين قدمهما السلطان لهم، كان اليهود والمسيحيون يدفعون له ضريبة محددة، وبما أن التسامح العثماني كان مشهورًا في عالم البحر المتوسط عندما جرى طرد موجات اليهود من إسبانيا في القرن السادس عشر، فقد وجدوا مأوى آمنًا في القسطنطينية وسالونيك. وفي الدول العربية، ظل السكان ـ المسلمون والمسيحيون واليهود ـ تحت سلطة قادتهم المعتادين واحتفظوا ببنياتهم التقليدية[3].

بالنسبة إلى اليهود، جاء الغزو العثماني وسيلة إنقاذ، لأن وضعهم تحت حكم البيزنطيين في آسيا الصغرى وأوروبا والحكام المماليك في مصر معًا كان صعبًا جدًّا. ونتيجة ذلك، منذ أوائل القرن السادس عشر، أصبح المجتمع اليهودي في الإمبراطورية العثمانية الأكبر في العالم وتمتع بازدهار متميز طوال ذلك القرن. كانت الإمبراطورية تتوسع بسرعة وتزايد الطلب الاقتصادي وفقًا لذلك؛ واستطاع السكان اليهود أن يتاجروا

(1) فوسيير، روبرت، تحرير، **تاريخ كمبردج المصوّر للعصور الوسطى**، ج 3، ص 337.
(2) فوسيير، روبرت، المصدر السابق نفسه، ج 3، ص 339.
(3) فوسيير، روبرت، المصدر السابق نفسه، ج 3، ص 340.



بسهولة مع أوروبا وسرعان ما بدؤوا يمارسون بعض الصناعات مثل حياكة الصوف التي أخذت تتطور[1].

لم يكن اليهود والمسيحيون اليونانيون المستفيدين الوحيدين من التسامح الإسلامي، لأن الكثير من البروتستانت في ترانسلفانيا وهنغاريا، بدلًا من الخضوع إلى التطويق المؤلم لمحكمة التفتيش، اختاروا العيش تحت راية الهلال المتسامحة. وفي الحقيقة حين إجراء أي تقويم للحكم العثماني سيكون من الصعب إيجاد أية سمة أخرى ترجح فيها كفة الميزان لصالح الأتراك أكثر من عادتهم في التسامح الديني[2].

التجارة مع الغرب

استمرت الإمبراطورية العثمانية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى عام 1918، لكنها خلال عهدي سليم الأول (1515ـ1520) وسليمان العظيم (1520ـ1566) حققت أكبر توسع لها في الأرض والسمعة بوصفها مركزًا للتفوق الثقافي[3]. بذل السلاطين المتعاقبون جهدهم لجعل عاصمتهم، التي أصبح اسمها اسطنبول، مدينة فريدة في نصبها التذكارية وعظمتها، وأدت هذه الجهود إلى نمو كبير في السكان. وأثارت هذه الزيادة السكانية نموًّا في طلب المنتجات والسلع التي لم ينتجها الشرق أو التي كانت من نوعية أفضل في الغرب. لذلك أصبح من الضروري فتح الإمبراطورية أمام السلع الأجنبية واستفادت الأمم الغربية من هذا واندفعت لإحضار منتجاتها إلى السوق.

سرعان ما حصلت البندقية على موقع قوي لها، كما ربحت جنوة امتيازات تجارية خاصة ولم يكن لدى الفرنسيين مشكلة في تأمين شروط السكن والتجارة التي كانت معروفة بالتنازلات. كان ثمة إعلان آخر، غريب إلى حدٍّ ما، عن هذا التحالف الزائف بين الإمبراطورية والفرنسيين، وهو حصار مدينة نيس والاستيلاء عليها بالأساطيل العثمانية والفرنسية المشتركة عام 1543[4].

(1) برناوي، علي، **أطلس تاريخي للشعب اليهودي**، ص 130.
(2) فيشر، هـ. أ. ل.، **تاريخ أوروبا**، ص 727.
(3) فوسيير، روبرت، تحرير، **تاريخ كمبردج المصوّر للعصور الوسطى**، ج 3، ص 326.
(4) فوسيير، روبرت، المصدر السابق نفسه، ج 3، ص 340ـ341.



وحتى ستينيات القرن السادس عشر على الأقل، لم يعانِ هذا النشاط التجاري الجديد كثيرًا من استغلال الأوروبيين المتزايد للطريق البحري حول رأس الرجاء الصالح. فالأشكال التجارية التي امتد عمرها قرونًا لا يمكن أن تتحول خلال بضع سنوات أو بضعة عقود، خصوصًا حين كان لدى العديد من الناس مصلحة شخصية في استمرارها. ومن جهة ثانية، أدى تدفق الفضة الأميركية الآتية إلى أورُوبا عن طريق إسبانيا أخيرًا إلى تخفيض الأسبر، وهو العملة المعدنية العثمانية الأساسية وأدى هذا بدوره إلى ظهور أزمة اقتصادية[1].

الثقافة العثمانية

كان فاتح القسطنطينية، السلطان محمد الثاني، رجلًا مثقفًا جدًّا لم يقتصر على التحدث بلغات عدة بل كتب الشعر أيضًا. كان يدعو الفنانين والكتّاب إلى اسطنبول، كما أصبحت القسطنطينية تُدعى حينئذٍ، ومنهم الإيطاليون مثل جنتل بيليني (1429ـ1507) الذي رسم له صورته النصفية، وكتّاب يونانيون وإيطاليون مثل أميتروزيس أوف تريزيبوند وكريستوبولوس أوف إمبروس وتشيراكو أوف أنكونا. وكان سليمان العظيم (1494ـ1566) رجلًا آخر مثقفًا جدًّا شجع بعض أعظم الكتّاب الأتراك مثل فوزولي (1480ـ1556)؛ وكانت السجلات العثمانية التاريخية والنقدية الحقيقية الأولى قد جُمعت في ذلك الوقت كما جرى إعداد روايات وخرائط عن الرحلات بوساطة ملاحين مثل بيري رئيس وسيد علي رئيس.

كما جرت العادة في الدول الإسلامية، كانت دراسة العلوم والطب تتابع بحماسة، وبطبيعة الحال، كانت العلوم الدينية هي أعظم العلوم كلها، تُدرس على نطاق واسع في مدارس العاصمة وبلدات الإمبراطورية. وقد ازدهرت الهندسة المعمارية وكانت مرفقة بمستوى عال من فنون الزخرفة التي استعملت على نحو مميز البلاط المزجج والمزخرف، المصنوع بشكل عام في نيقيا. وهكذا أصبح عهد سليمان العظيم العصر الذهبي للإمبراطورية العثمانية وكان هو نفسه مثار إعجاب المسافرين الأوروبيين[2]. وقد حكم سليمان «العظيم»، الذي دعاه الأتراك باسم «القانوني»، خلال الذروة الثقافية

---

(1) فوسيير، روبرت، تحرير، **تاريخ كمبردج المصوّر للعصور الوسطى**، ج 3، ص 343.

(2) فوسيير، روبرت، المصدر السابق نفسه، ج 3، ص 343.



والعسكرية للإمبراطورية، وعندما احتلت أسرة هابسبورغ وسط هنغاريا عام 1528، طردهم سليمان، الذي حاصر فيينا في تحرك مضاد عام 1529[1].

كان هذا عهدًا فريدًا حقًّا إذ ازدهرت الثقافة والفنون، وتمتعت المجتمعات الدينية المختلفة بدرجة كبيرة من الحكم الذاتي الثقافي والقضائي تحت الحماية المباشرة للحاكم. طور النظام القانوني العثماني درجة عالية من المرونة، خصوصًا عند مقارنته بالقانون الإسلامي التقليدي الذي اعتنق سمات مختلفة من الحياة الخاصة والاجتماعية. وكان القانون العام يميل إلى العمل من أجل تنظيم الدولة وقوتها، واكتسب سليمان نفسه سمعة خاصة نتيجة تصنيفه وتجميعه الدقيقين لهذا النظام[2].

لأنها معقل للثقافة والقوة العسكرية، كان مقدرًا للإمبراطورية العثمانية أن تدوم. على أية حال، عندما انسحب سليمان للتنعم بمتع الحريم قرب نهاية حياته، أوجد سابقة جعلت السلاطين الآخرين، الذين افتقروا إلى كل من ثقافته ومهارته العسكرية العالية، يتبعونها بشكل محزن. وأصبحت عادات البحث عن المتعة هذه، يساعدها ويحرض عليها الفساد المتسلل، تربك الإمبراطورية العثمانية بشكل أو بآخر طوال ما تبقى من وجودها.

الصراع من أجل الحرية

خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر نشأت هيمنة عالمية أوروبية تستند إلى التسلط الاقتصادي والمؤسسات الحكومية والقوة العسكرية وبراعة الاتصال، وقد أثار ذلك كله أحلام الإمبراطورية. ولأن القوى الاستعمارية تعاملت مع رعاياها الجدد على نحو ليس أفضل بكثير مما فعل الصليبيون مع الشعب المسلم في الأرض المقدسة، فقد كانوا بعيدين عن اكتساب الشعبية. إذ لم يكن المستوطنون الأوروبيون في أميركا الشمالية مستعدين لمعاملتهم على أنهم مجرد مواطنين، ومع دعوة «لا نظام ضرائب من دون تمثيل»، ثاروا ضد الحكم الملكي البريطاني وهزموا القوات البريطانية في حرب الاستقلال الأميركية.

إن التأثير العميق الذي مارسه البناؤون الأحرار عند وضع دستور الولايات المتحدة

(1) هاتشتاين، ماركوس، الفن والعمارة الإسلاميان، ص 538.
(2) هاتشتاين، ماركوس، المصدر السابق نفسه، ص 539.



هو انعكاس لتقاليد جماعة البنائين الأحـرار(*) الديمقراطية الأصيلة. لقد ترك رجال موهوبون بدرجة فائقة، يمتلكون بصيرة روحية وقوة أخلاقية كبيرتين، تأثيرًا دائمًا في الأمة الأميركية على شكل الدستور الذي يُعدّ تصديقًا مدويًا لمبادئ الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان ـ التراث الروحي الدائم لجماعة البنائين الأحرار[1]. كان عدد كبير من الذين أوجدوا الدستور الأميركي ووقعوا عليه بنائين أحرار أو روزيكروشيين(**)[2]، ومنهم شخصيات مثل جورج واشنطن وبنجامين فرانكلين وتوماس جيفرسن وجون أدامز وتشارلز تومسن. ساهمت جماعة البنائين الأحرار أيضًا إلى حد كبير في تأسيس مبادئ الحرية والمساواة والإخاء التي ألهمت الثورة الفرنسية، وأخيرًا في تحويل الاستبداد إلى ديمقراطية.

كذلك أدت جماعة البنائين الأحرار دورًا أساسيًا في الحملة من أجل إعادة توحيد إيطاليا عبر تأثيرها في حركة كاربوناري الثورية، التي كان كل من قائديها الأساسيين، غاريبالدي (1807ـ1882) وماتسيني (1805ـ1872) عضوًا نشيطًا. وعندما حررت جيوشهما روما من استبداد البابوية جُرّد البابا بيوس التاسع (1846ـ1878) من سلطته الدنيوية كلها، وبدأ منفاه مدى الحياة داخل سجنه الاختياري في الفاتيكان. واعترف البابا أن البنائين الأحرار كانوا سبب سقوطه وراح يندد بهم في سلسلة من المنشورات والرسائل البابوية والخطابات الرسمية.

لم يكن البابا الكهل تحت أي وهم حول الأصول الحقيقية للمنظمة التي جردته من كل سلطة دنيوية. وبالنسبة إليه، كانت جماعة البنائين الأحرار مشتقة بشكل مباشر من نظام فرسان الهيكل الزنادقة الذين وصفهم بأنهم ينتمون إلى مذهب المعرفة الروحية منذ البداية ويتبعون الزندقة اليوهانية. كذلك لم يكن لديه أي وهم حول الغاية الحقيقية

(*) يشير المؤلف هنا ولاحقًا في كتابه إلى جمعية البنائين الأحرار التي اعتنقت أفكارًا تحررية دنيوية ووطنية غدت واضحة ومؤثرة منذ أواسط القرن الثامن عشر في أوروبا وأميركا قبل أن تتحول إلى جمعية سريّة عالمية ذات طقوس يكتنفها الغموض وتخدم أهدافًا مختلفة معينة وعُرفت تحت اسم الماسونية. [المترجم].

(1) والاس ـ ميرفي وتيم وهوبكنز، مارلين، **فرسان الهيكل في أميركا**، ص 205.

(2) والاس ـ ميرفي وتيم وهوبكنز، مارلين، المصدر السابق نفسه، ص 207ـ208.

(**) روزيكروشي: عضو جمعية سرية اشتهرت في القرنين الـ 17 والـ 18 وزعمت أنها تملك معرفة سرية للطبيعة والدين. [المترجم].

مكتبة الفكر الجديد

للأخوّة عند البنائين الأحرار، لأن هدفهم، بالنسبة إليه، كان تدمير الكنيسة الأم المقدسة. وبرأيه، كان ثمة القليل من الاختلاف بين الهدف الحقيقي لعائلات الملك الإله في إصلاح الكنيسة بخصوص التعاليم الحقيقية للمسيح، وتدمير الكنيسة الذي دفعه إلى قمم البابوية الشاهقة. وهكذا لم يقم التأثير الروحي للملك الإله بتقديم أماكن لجوء لليهود والزنادقة الهاربين من الاضطهاد فحسب، بل ساعد آنذاك في تحرير دول أوروبية عدة من الطغيان والاستبداد.

تدهور الإمبراطورية العثمانية

كانت الإمبراطورية العثمانية في القرن السادس عشر أقوى دولة في العالم لكنها، بحلول عام 1800، استمرت بالوجود لمجرد أن السلطات الأوروبية، التي كان اهتمامها قد تحول إلى مستعمراتها البعيدة الواسعة الانتشار، لم تستطع التوافق تمامًا على ما ستضعه مكانها. ومع ذلك، ومما يدعو إلى الغرابة جدًّا، كانت بريطانيا وفرنسا كلتاهما متحالفتين مع معقل الإسلام هذا في حرب القرم ضد روسيا. ومنذ ذلك الزمن فصاعدًا أصبحت تركيا، المقر الرئيس للإمبراطورية، معروفة باسم «رجل أوروبا المريض». وفي أعقاب الحرب العالمية الأولى، تعرض عالم الإسلام للترويع والاستغلال والحط من قدره بسبب الغربيين المتغطرسين وواجه أعمق إذلال له في القرن العشرين. وقد غذى هذا حالات الاستياء التي لا تزال لدينا[1] والتي، على ضوء التسامح والاحترام الأساسيين للتعلم والتقدم المتأصلين في الثقافة الإسلامية، من المستحيل تفسيرها بغير ذلك.

(1) فليتشر، ريتشارد، **الصليب والهلال**، ص 159ـ160.




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الخامس عشر

فرق تسد - إمبريالية القرن العشرين

عندما نتأمل سجل التسامح لدى الأديان والثقافات الأخرى التي تُعدّ عنصرًا مكملًا للإسلام، خصوصًا فيما يتعلق بالمبدأ الأخلاقي اليهودي والمسيحي «أحبب لجارك ما تحبه لنفسك»، من المستحيل تقريبًا فهم كيف يتمزق العالم اليوم بالحرب والظلم والإرهاب، وكل ذلك يمارس على ما يبدو تحت راية الدين.

بينما يُعدّ التشدد المسيحي مع الأديان الأخرى مسألة سجل تاريخي، فإن الشعب اليهودي لم يشن حربًا لأكثر من 1800 سنة. لماذا تغير وضعهم فجأة بعد قرون عدة من السلم؟ لماذا أصبح عالم الإسلام متزمتًا جدًّا مع المجتمعات اليهودية في داخله بعد تاريخ يزيد على 15 قرنًا من التعايش السلمي والقبول؟ لماذا تُكرَه بريطانيا وأميركا كثيرًا في العالم الإسلامي؟ لماذا زعم الإرهابيون أنهم يعملون لمصلحة الإسلام، وأطلقوا «الانتفاضة» في إسرائيل، وهاجموا البرجين التوأمين في نيويورك(*) وزرعوا القنابل في بالي ومدريد ولندن؟ تمت معالجة جذور هذه القضايا المعقدة في فصول سابقة، ولكن لفهم صلتها بالموضوع اليوم علينا معرفة كيف انتهكت القوى الغربية وأذلت وخدعت مرارًا المجتمع الإسلامي في جميع أنحاء العالم.

بعض ثمار «الحرب لإنهاء جميع الحروب»

خلال الحرب العالمية الأولى ارتكبت الإمبراطورية العثمانية الخطأ المأساوي

(*) من الواضح هنا أن المؤلف يذكر الروايات الرسمية الأميركية والغربية عمومًا التي تطبع الانتفاضة الفلسطينية بالإرهاب والتي تروّج أن القاعدة مسؤولة عن الهجوم على البرجين التوأمين في نيويورك وكأنه يشير ضمنًا إلى الحقيقة الواسعة المغايرة التي تؤكد الإرهاب الإسرائيلي ضد الشعب الفلسطيني وتواطؤ ذلك الإرهاب مع خيانة إدارة بوش في ذلك الهجوم. [المترجم].

مكتبة الفكر الجديد

بالانضمام إلى الجانب الخاسر. لذلك، عندما انتهت الحرب، عُدت المستعمرات الألمانية والمناطق النمساوية ـ الهنغارية والإمبراطورية العثمانية غنائم حرب وجرى تقسيمها بين الحلفاء المنتصرين والسلطات الإمبريالية في فرنسا وبريطانيا. وهكذا تجزأت الإمبراطورية العثمانية، واحتُلت عاصمتها وخُلع سلطانها. وجرى تقسيم أقاليمها الواسعة الانتشار بشكل اعتباطي بين القوى الإمبريالية من دون النظر إلى الأديان الموجودة المحكومة بشكل شبه ذاتي، وإلى نماذج الحكم التي عمرها قرون، وإلى الولاء العشائري والخلافات الدينية بين المسلمين الشيعة والسنة. فالأكراد، على سبيل المثال، الذين عاشوا في منطقة واحدة مستقلة ذاتيًا تحت الحكم العثماني، وجدوا أنفسهم آنذاك منفصلين بقسوة ويعيشون في خمس دول مختلفة ومتنافسة. والأرض المقدسة في فلسطين، ونتيجة للازدواجية البريطانية، كانت موعودة لشعبين مختلفين: العرب الذين قاتلوا بجانب الجيش البريطاني ضد حكامهم العثمانيين في القسم الأخير من الحرب العالمية الأولى؛ واليهود الذين تلقوا وعدًا لإنشاء «وطن قومي» بإعلان بلفور في نوفمبر/ تشرين الثاني 1917. وقد أدى المبدأ الإمبريالي القديم «فرق تسد» دورًا فعليًا عبر العالم العربي. ففي لبنان، فضل الحكام الفرنسيون الجدد الأقلية المسيحية الكثيرة إلى حدٍّ ما بدلًا من الأغلبية الإسلامية، وبذلك وضعوا أسس الحروب الأهلية التي مزقت البلاد إلى أجزاء منذ الاستقلال.

نشأت دول جديدة ومصطنعة كليًا، مثل العراق والكويت، بمجرد رسم خطوط على خريطة، وحدود جديدة جمعت الأكراد والمسلمين السنة والشيعة معًا بأسلوب تجاهل أنظمة الحكم التي تصرفت بشكل جيد طوال قرون، لكنه، مع ذلك، قدم فائدة كبيرة للقادة الإمبرياليين البريطانيين. لم يكتفِ الحكام الجدد بممارسة مبدأ «فرق تسد» بل استغلوا أيضًا الشعوب المختلفة لتدريب القوة الجوية الملكية الجديدة على قصف القنابل، خلال أوقات الصراع بين المجتمعات التي تلت ذلك ولم يكن من الممكن تجنبها.

وفي إسرائيل أثارت موجات جديدة من الاستيطان اليهودي مخاوف واستياء عميقين داخل الشعب العربي الذي عاش هناك طوال قرون وتلقى وعدًا بتقرير المصير والحكم الذاتي من مستعمريه الجدد. أدى هذا إلى نشوء ما يُعدّ عاملًا سائدًا في التفكير الإسلامي اليوم، وهو شكل من معاداة السامية المريرة التي كانت غريبة جدًّا في

مكتبة الفكر الجديد

الإسلامي قبل ذلك الوقت. على أية حال، إن هذه الصراعات، والتي تلتها كلها، رغم جميع المزاعم بعكس ذلك، سياسية في أصلها وليست دينية في طبيعتها، لأن الغرب جَمّع الازدواجية والخزي والإذلال على إخوتنا المسلمين على نحو متغطرس وعلى نحو مستمر طوال أكثر من 80 سنة.

كانت القضية الناجحة الوحيدة هي إنشاء كمال أتاتورك (1881ـ1938) لدولة تركيا الحديثة. بالعمل على مبدأ أنك لا تستطيع تحديث أمة بإقصاء 50 بالمئة من سكانها، كانت هذه إحدى الدول الإسلامية القليلة التي حققت ودعمت بنجاح تحريرًا كاملًا للنساء وهي تقوم، في الوقت نفسه، بفصل تام بين الدين والدولة. وهكذا تُعد تركيا الحديثة دولة علمانية ديمقراطية وهي، مع ذلك، مسلمة وورعة في غالبيتها.

في مكان آخر، تطورت الأمور بصورة مختلفة. ففي الجزيرة العربية، مثلًا، ظهر عبقري سياسي وعسكري، ابن سعود، وهو زعيم بدوي شن حرب توحيد أدت إلى إنشاء الدولة التي تحمل اسمه، المملكة العربية السعودية. ولأنه يتبع طائفة أصولية متشددة من الإسلام، الوهابيين، فقد أصبح ليس مجرد حاكم مَدَني، بل حارس المدينتين المقدستين مكة والمدينة أيضًا عام 1926. وبعد مدة قصيرة من تأسيس مملكته، التي أُديرت من خلال تمسك صارم بالشريعة، قانون القرآن الكريم، اكتُشف النفط في أراضيه. واندفعت القوى الغربية نحوها لاستغلال هذا المصدر الثمين وجرت مفاوضات أدت إلى المعاهدات المبكرة التي رسخت حقوقها التجارية قام بها هاريسون سانت جون فيلبي، والد كيم فيلبي الذي وصل لاحقًا إلى درجة من السمعة السيئة بوصفه جاسوسًا روسيًّا. غيّر النفط المعادلة ومنح الملك الجديد أساسًا لقوة اقتصادية هامة ازدادت على مر السنين. بسبب إيرادات النفط الهائلة، التي نمت بشكل ملحوظ بعد استخدام أوبك (منظمة الدول المصدرة للنفط) القوة في أوائل سبعينيات القرن العشرين، اكتسبت الدولة دخلًا كافيًا للبقاء من دون فرض ضريبة على شعبها. إن مبدأ «لا يمكن وجود نظام ضرائب من دون تمثيل» يطبق الآن بشكل عكسي ـ لن يكون هناك تمثيل للشعب، لأنه لم تكن ثمة حاجة لفرض ضريبة عليه.

وهكذا فإن المملكة العربية السعودية بعيدة عن كونها دولة ديمقراطية، وعلى الرغم من علاقاتها الوثيقة بالغرب فهي قمعية تنكر حقوق النساء وتكبت أي شكل من أشكال المعارضة السياسية بلا رحمة. وتحكمها الآن العائلة نفسها، التي تضخمت ،

مكتبة الفكر الجديد

حوالي 6000 فرد يصفهم بعض المسلمين بأنهم كسالى وجاهلون وفاسدون. بالإضافة إلى ذلك تستخدم نسبة كبيرة من إيرادات نفطها، على نحو مباشر أو عبر مؤسسات خيرية، لتمويل انتشار الأصولية الوهابية بتمويل المدارس الدينية في جميع أنحاء العالم الإسلامي. وبالنسبة إلى أتباع المذهب الوهابي، تُعدّ جميع أشكال الإسلام الأخرى ضلالية(*). وهكذا فإن حاجة الغرب إلى النفط تساعد وتحرض بشكل غير مباشر على الانتشار السريع لفرع الإسلام الذي يعادي الغرب بشكل عنيف، كما سنرى.

بحلول عشرينيات القرن العشرين، أدى نزع سلطة العرب على أيدي مستعمريهم إلى ولادة رد فعل استند إلى وحدة العالم الإسلامي الدينية. ونشأ تنظيم جديد، هو الإخوان المسلمون، الذي زعم أن القوى الاستعمارية وبعض المتعاطفين المسلمين خانوا، باستيراد الأفكار والممارسات الغربية إلى الأراضي العربية، تراثهم الإسلامي الحقيقي. عملت هذه الحركة القومية والدينية أساسًا على المبدأ القديم «عدو عدوي هو صديقي»، وتحالفت بقوة مع الحزب النازي في ألمانيا خلال ثلاثينيات القرن العشرين. إذ قدم التمويل والخبرة الألمانيان متضافرين إلى القومية العربية متنفسًا ليس للمشاعر المضادة للإمبريالية فحسب، بل للعنف الموجه نحو المستوطنين اليهود في فلسطين وقوى الاحتلال الغربية.

آثار الحرب العالمية الثانية

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية مباشرة، بدأ التغيير يكتسح البقايا الاستعمارية للإمبراطورية العثمانية السابقة. كان مزاج جديد يحدث، وكان عصر الإمبريالية يتقدم إلى نهايته التي تأخرت طويلًا، وبدأت دول عربية تنال استقلالها، ولكن، ومما يثير الحزن، ضمن حدود مصطنعة فرضتها بريطانيا وفرنسا قبل عقود مضت. وجرى تقسيم أرض فلسطين المضطربة عن طريق الأمم المتحدة، وولدت دولة إسرائيل الحديثة عام 1948. وكان هذا حدثًا مؤلمًا للعالم العربي، لأن هذه الدولة الجديدة عُدّت مخفرًا إمبرياليًا أماميًا للغرب الذي فرضها على المسلمين ضد إرادتهم.

رفضت دول جامعة الدول العربية قرار الأمم المتحدة الذي أوجد الدولة الجديدة

(*) العبارة غائمة على هذا النحو، فالمذهب الوهّابي لا ينكر المذاهب الأخرى، ولكن له موقف من الشيعة، والخوارج، والصوفية، وغيرهم. [المترجم].

مكتبة الفكر الجديد

وهاجم ما لا يقل عن خمس دول عربية مسلحة بشكل جيد إسرائيل يوم ولادتها، في 15 مايو/ أيار 1948. وقاتل المستوطنون اليهود، بينما ذاكرة المحرقة ماثلة في أذهانهم، بشجاعة من أجل بقائهم على شكل أفراد وشعب. وباستثناء الجيش الأردني الذي لم يحقق إلا مجرد موقع حرج، تعرضت الجيوش العربية الأربعة الأخرى إلى هزيمة قاسية وأكيدة. كان ذلك إذلالًا أكثر وضربة أخرى للكبرياء العربي. أدى استياء الشعوب العربية من هذا الأداء إلى عزل رؤساء حكومات دول الغزو الخمس كلها أو اغتيالهم وسرعان ما تحولت إلى حكومات فردية قمعية تقريبًا.

استولى الجنرال ناصر (توفي عام 1970) على السلطة وتولى رئاسة مصر في 17 أبريل/ نيسان 1954 بعد انقلاب عسكري قاده الجنرال نجيب(*). كان ناصر مُجَدِّدًا وسعى إلى توحيد العالم العربي، وتحالف مع روسيا السوفيتية التي بدأت تسلح المصريين والدول العربية التي اتبعت نموذج ناصر. وبسبب توترات الحرب الباردة، دفع هذا الولايات المتحدة الأميركية إلى دعم إسرائيل بمساعدة اقتصادية ضخمة وأسلحة ومشورة عسكرية. ولأن هذا أسعد اللوبي اليهودي الكبير والمدوي في أميركا، أصبح التحالف أمرًا ثابتًا ولم تظهر لدى أي رئيس أميركي حتى الآن الشجاعة لتأطيره أو تقليصه. ومع ذلك، وبشكل متناقض ظاهريًا، عندما تحالف الجنرال ناصر مع الاتحاد السوفيتي، تحالف الإخوان المسلمون، الذين أرعبتهم محاولاته لفرض أنماط التحديث الغربية في مصر، ولو بشكل مؤقت، مع الولايات المتحدة الأميركية. وسرعان ما انهارت سياسة ناصر الاقتصادية وتعرضت مصر إلى ركود حاد، وهي حالة ازدادت سوءًا بالهزيمة المذلة التي عانت منها على أيدي الجيش الإسرائيلي في حرب الأيام الستة عام 1967. وفي هذا النزاع، احتلت إسرائيل أراضي فلسطينية في الضفة الغربية لنهر الأردن ومدينة القدس وقطاع غزة وأراضي مصرية في شبه جزيرة سيناء.

في مكان آخر من العالم العربي، استولى حزب البعث، الذي اتخذ إلى حد كبير نموذج الحزب النازي في ألمانيا، على السلطة في سوريا وفي العراق. والآن، لأول مرة في التاريخ، أصبح العرب المدفوعون سياسيًا يقتلون ويعذبون عربًا آخرين بغض النظر عن إيمانهم المشترك بالإسلام. كانت بعض الدول العربية مدعومة من الاتحاد السوفيتي،

(*) هو اللواء محمد نجيب. [المترجم].



وأخرى من القوى الغربية؛ وكانت كلها قاسية وقمعية وضد الديمقراطية. أما الدول التي جربت نوعًا من الإصلاح الديمقراطي فإنها لم تدم ببساطة. ففي إيران، مثلًا، عندما أممت صناعة نفطها عام 1951 ثم جرى انتخاب محمد مصدق بشكل ديمقراطي رئيسًا للوزراء، استخدمت حكومة العمال البريطانية، التي أممت غالبية صناعاتها، دبلوماسية استعراض القوة المسلحة لإسقاط حكومة الشعب الإيراني المنتخبة عام 1953. وعندئذ فقط استقرت السلطة بيد شاه بلاد فارس.

كان الشاه مُجَدِّدًا، محررًا للنساء ومؤيدًا بوضوح للغرب في مواقفه. لكنه حافظ أيضًا على قوة شرطة سرية عالية الكفاءة جدًّا وقمع أي معارضة بفعالية وحشية. وكان أحد القلائل الذين لديهم الشجاعة لنفي زعماء دينيين انتقدوا الدولة، ومنهم آية الله الخميني. ومع ذلك، وسط مد الاستياء المتزايد من حكمه، أُجبر الشاه على التنازل (حكم من عام 1941 إلى 1979 وتوفي عام 1980).

في عام 1979 عاد آية الله (توفي عام 1989) منتصرًا، وبعد أزمة الرهائن الأميركية (أكتوبر/ تشرين الأول 1979)، أصبحت إيران حكومة دينية عمليًا. وسحقت حركة آية الله الفارسية الشيعية المتحالفة مع الإخوان المسلمين كل معارضيها. وفي الحقيقة كان ثمة أحكام إعدام سريعة في الشهور التسعة الأولى من حكم آية الله أكثر من السنوات الخمس عشرة السابقة من حكم الشاه. وكانت هذه المرة الأولى في تاريخ الإسلام كله التي سيطر فيها رجال الدين على الدولة. ابتكر آية الله نمطًا جديدًا من الإسلام الأصولي، لكن هذا النمط الجديد كانت له أسنان حادة ومواقف معادية للغرب عداء مرًّا. وبالنسبة إلى غالبية الشعب الإيراني، كان ذلك شكلًا شريرًا من الاستبداد الديني الذي حل ببساطة محل شكل علماني.

كان من الممكن مقارنة دكتاتورية البعث في العراق بقيادة صدام حسين مع ألمانيا النازية بزي عربي. قدمت إيرادات نفط العراق الضخمة عددًا من القصور لصدام وأنصاره السياسيين، ومولت قوة شرطة سرية فعالة وعنيفة وجيشًا يتزايد باستمرار. قتل صدام شعبه بشكل عشوائي؛ المعارضين السياسيين؛ الأكراد في شمال العراق؛ الرجال والنساء والأطفال؛ عرب المستنقعات؛ المسلمين الشيعة؛ كل ذلك كان لمصلحة النظام العراقي المجرم. وحين دخل الحرب ضد الحكم الديني لجاره في إيران (سبتمبر/ أيلول 1980 - أغسطس/ آب 1988)، وهي دولة أخرى قمعية وغنية بالنفط، الله وحد

مكتبة الفكر الجديد

عدد الملايين التي ماتت في عملية قتل من دون شعور دامت سبع سنوات. ومع ذلك، في النهاية، من فاز؟ لقد ظلت الحدود بين العراق وإيران بلا تغيير عمليًا. كان الرابح الوحيد من هذه الحرب العقيمة مصانع السلاح، بشكل أساسي في الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا، التي سلحت نظام صدام ليس لمجرد الربح، الذي كان كبيرًا، بل لوقف تصاعد الشعور المعادي للغرب في إيران. ولا يعكس فخرًا كبيرًا للحكومة الأميركية علمها أن مسؤولين فيها قاموا بدور موظفي مبيعات للوبي التسليح الذي أبقى صدامًا في الحكم طوال عقود. لقد زود الغرب هذا الدكتاتور الشرير بالمواد الأولية للغاز السام الذي استعمله عشوائيًا ضد الأكراد في شمال العراق.

عندما غزا صدام دولة الكويت الغنية بالنفط على حدوده الجنوبية عام 1990، جمعت الولايات المتحدة الأميركية تحالفًا تضمن بريطانيا والمملكة العربية السعودية ودولًا عربية أخرى، لإعادة الوضع القائم. تلت ذلك حرب قصيرة ووحشية أدت إلى «تحرير» الكويت وإعادتها إلى الحكم الاستبدادي لزعمائها العشائريين. كانت الإصابات بين القوات المسلحة العراقية تفوق أي إحصاء، ومع ذلك تُرك الدكتاتور صدام حسين كي يضطهد شعبه طوال عقد آخر. ولم ينتهِ عهده حتى حرب الخليج الثانية عام 2003، التي شنها الرئيس بوش ورئيس الوزراء توني بلير. هذا الصراع، الذي أعلن الأمين العام للأمم المتحدة أنه غير قانوني، جرى خوضه من أجل دوافع مريبة جدًّا ورُوِّج له على أسس خادعة استندت إلى ما يُدعى بالاستخبارات العسكرية المُحَدَّثَة و«الدقيقة» التي نظرت إليها بشك كبير أغلبية الجمهور البريطاني، ولكن من المحزن أن الأكثرية البرلمانية في مجلس العموم وافقت عليها. وقد أثبتت هذه الاستخبارات العسكرية كما يُفترض أن الدكتاتور العراقي كان يمتلك «أسلحة دمار شامل» شكلت تهديدًا وشيك الحدوث للعالم؛ ومن الواضح على نحو جلي الآن أنه لم يكن ثمة وجود لمثل هذه الأسلحة. وقد جرى الاعتراف مؤخرًا بأن السبب الحقيقي لهذه الحرب كان تغيير النظام، وهو تصرف كان انتهاكًا مباشرًا لميثاق الأمم المتحدة، وهو معاهدة وقعت عليها كل من بريطانيا والولايات المتحدة الأميركية.

إن الكلفة الحقيقية لهذه الحرب، أو الحرب الأفغانية التي سبقتها، لن تُعرف أبدًا. وأخيرًا يمكن وضع ثمن اقتصادي ما لهذا الصراع، لكن كلفته الحقيقية من الناحية البشرية تقريبًا لا يمكن حسابها. كانت الإصابات العسكرية بين القوات البر

مكتبة الفكر الجديد

والأميركية خلال الغزو قليلة بشكل مذهل. ومن ناحية ثانية، منذ بداية الاحتلال ازدادت الإصابات الأميركية على نحو خاص باطراد ولا تزال ترتفع. وفي أيام تأليف هذا الكتاب وصلت إلى ما مجموعه 2000، ووفقًا لأفضل التخمينات التي جمعتها الجمعية الطبية البريطانية، تتجاوز إصابات المدنيين بين الشعب العراقي 100000 رجل وامرأة وطفل أبرياء، قُتلوا أو عُوِّقوا مدى الحياة. ودُمِّرت البنية التحتية كلّها تقريبًا في هذه البلاد التي كانت مزدهرة؛ ولا تزال الطاقة الكهربائية والماء العذب متوفرين بشكل متقطع فقط؛ وجرى حل الجيش العراقي، وكذلك الشرطة؛ والأمن منعدم وحيث لم يكن ثمة نشاط إرهابي، هناك الكثير الآن، مختفٍ إلى حدٍّ ما، على شكل ثورة شاملة ضد قوى الاحتلال، جرت على خلفية البطالة الجماعية والحرمان الاجتماعي الناجمين عن صراع مفترض «لتحرير الشعب العراقي من صدام حسين».

بالنسبة إلى العديد من العراقيين، العلاج أسوأ على نحو مطلق من المرض. على أية حال، يفترض الحلفاء الغربيون بشكل متغطرس أنهم يمتلكون الحق لفرض نوع من الديمقراطية الغربية على الشعب العراقي. لقد استغرقت المستعمرات الأميركية المحررة حديثًا في القرن الثامن عشر سنوات عدة لصياغة الدستور، وذلك بمساعدات التنوير الفكري الأوروبي وتوجيه الآباء المؤسسين للدولة الحافل بالمبادئ الأخوية للبنائين الأحرار. ومع ذلك، ووفقًا لجدول المواعيد الأميركي المفروض، كان على الممثلين العراقيين المنتخبين حديثًا أن يبتدعوا دستورًا خلال أشهر، مقابل خلفية حرب أهلية مستمرة، وبعد ذلك أن يقنعوا شعبًا منقسمًا بتلك الفكرة. ثمة القليل من الناس متفائلون حول النتائج المحتملة التي ستتدفق من هذه العملية الممتلئة بالأخطاء أصلًا.

لذلك لم ينهض التطرف الإسلامي فجأة في رد فعل على الإمبريالية الاقتصادية أو السياسية الأميركية المعاصرة؛ بل كان رد فعل متوقعًا ضد المبادئ الاستعمارية القديمة المفروضة بالقوة بعد الحرب العالمية الأولى. لقد حول التدخل الأميركي في السنوات الأخيرة ببساطة حالة سيئة إلى حالة أسوأ على الإطلاق. ونحن في أوروبا الغربية علينا أن نتحمل معظم مسؤولية الأوضاع الحالية، مع المعرفة الكاملة والمؤكدة أن التدخل الأميركي في السياسة الداخلية للدول الأخرى منذ الحرب العالمية الثانية جعل هذه المشاكل تتفاقم بشكل لا يصدق تقريبًا. وقد ازدادت هذه الحالة سوءًا بإعلان ال

مكتبة الفكر الجديد

بوش «شن حرب ضد الإرهاب» فسرته الأغلبية الواسعة من الناس على أنه شن حرب ضد الإسلام. وهي نقطة عززها استخدامه لعبارة «الحملة الصليبية».

نجت دولة إسرائيل من حروب عدة ، وتلا نصرها المنتشي في حرب الأيام الستة هزيمة وشيكة في الأيام الأولى من حرب يوم الغفران عام 1973، التي تحولت إلى نصر كامل عندما شقت القوات الإسرائيلية طريقها إلى الضفة الشرقية لقناة السويس. تلا ذلك احتلال لبنان عام 1982، كان خلاله أرييل شارون، رئيس وزراء إسرائيل لاحقًا، الجنرال الذي وقف جانبًا باسترخاء عندما ذبحت المقاومة الشعبية المسيحية اللبنانية مدنيين فلسطينيين أبرياء في مخيم شاتيلا للاجئين. أجرت الولايات المتحدة الأميركية محاولات مختلفة للتوسط في اتفاق بين إسرائيل وأعدائها العرب، كما جرى توقيع معاهدة سلام بين مصر وإسرائيل من رئيس الوزراء الإسرائيلي، مناحيم بيغن (1977ـ1983) ورئيس مصر، أنور السادات (1970ـ1981). وكانت مكافأة السادات اغتيالًا نفذه متشددون أصوليون من داخل شعبه.

كانت إسرائيل، عبر سنوات حتى الآن، منشغلة في حرب كاملة ضد سكان المناطق المحتلة الفلسطينيين بأسلوب سبب الغضب في الغرب. ففي بريطانيا، كتب عضو يهودي قيادي في البرلمان، هو جيرالد كوفمان، رسالة مفتوحة إلى رئيس الوزراء أرييل شارون ذَكّر فيها الزعيم الإسرائيلي بأن رمز نجمة داود لم يكن مِلكًا لدولة إسرائيل، بل كان رمزًا لليهودية العالمية، ولا يحق لشارون تلويثه بدم المدنيين الفلسطينيين الأبرياء. ولا حاجة للقول إن الذبح والدمار استمرا بكل قوتهما. ولدينا الآن الحالة القذرة حيث أصبح أبناء نزلاء معسكرات اعتقال المحرقة حراسًا في معسكر الاعتقال العملاق المعروف بالمناطق الفلسطينية المحتلة، والمحوط بجدار إسمنتي ضخم بدلًا من سياج الأسلاك الشائكة التقليدي. وعلى الرغم من الضغط المزعوم الذي مارسه رئيس الوزراء توني بلير على رئيس الولايات المتحدة الأميركية جورج دبليو بوش، لا يبدو أن تقدمًا قليلًا مفيدًا يحدث، لأن الشعب الفلسطيني يظل مضطهدًا من جيوش إسرائيل.

وأخيرًا أصبح رد فعل الفلسطينيين عنيفًا وكان ردهم استخدام سلاح جديد، وهو القيام بعمليات انتحارية. ومن جديد كان العلاج أسوأ من المرض. فقد حُشيت ملابس الشبان المتشددين بالمتفجرات وأرسلوا إلى مناطق مدنية داخل إسرائيل لقتل رجال ونساء وأطفال أبرياء آخرين وتعويقهم. إن الانتحار محرم في القرآن الكريم، مثـ

مكتبة الفكر الجديد

المدنيين الأبرياء، ومع ذلك يستمر هذا الشكل القذر من الإرهاب، ليس داخل إسرائيل فحسب، ولكن في نيويورك ومدريد ولندن وبالي وأفريقيا والعراق. كيف يمكن لشخص أن يُظهر محبته لله بقتل أبناء الله الأبرياء الآخرين؟ كيف انتشر هذا الشكل الشرير للحرب من إسرائيل إلى بقية العالم؟

للإرهاب وحرب العصابات تاريخ طويل. كانت حرب العصابات فعالة في حرب الاستقلال الأميركية؛ وأثبتت جدارتها في حملة شبه جزيرة إيبيريا خلال الحرب ضد نابليون وكانت مظهرًا أساسيًا في حرب استقلال إيرلندا الطويلة والدامية. وكانت كثيرة الاستعمال في العديد من الحملات خلال الحرب العالمية الثانية وبرزت مرات لا تُحصى في العديد من الدول منذ ذلك الوقت؛ دول مثل جنوب أفريقيا وبوليفيا ونيكاراغوا ومصر عند اغتيال أنور السادات وكذلك في المملكة العربية السعودية داخل موقع مكة المقدس خلال موسم الحج. لقد أدى الإرهاب دوره في العديد من الصراعات، ويجب ألا ننسى أبدًا أن الإرهابي بالنسبة إلى شخص ما هو، في الوقت نفسه، مقاتل لتحرير شخص آخر فحسب. عُرفت هذه الحقائق على نطاق واسع طوال سنوات عدة ، فقد كانت الهجمات الإرهابية جزءًا أساسيًا من حروب إسرائيل ضد الانتداب البريطاني في فلسطين - لا أحد يداه نظيفتان. وعندما يستخدم هذه الأداة عبقري منحرف ومتعصب مع إمكان وصوله إلى مصادر غير محدودة تقريبًا تصبح مدمرة فعلًا، وهذا ما حدث بالضبط خلال العقود القليلة الماضية.

أسامة بن لادن هو ابن رجل سعودي غني ظهر أولًا خلال حرب العصابات الأفغانية ضد قوات الاحتلال الروسية. ولأنه عضو متطوع مع المجاهدين، جرى تدريبه وتسليحه وتشجيعه من وكالة المخابرات المركزية الأميركية ووطنه الأم المملكة العربية السعودية. وقد تعلم مهارته بالطريقة الصعبة، لأنه مقاتل في حرب إرهاب واستنزاف مريرة. وفي عام 1990 عرض المساعدة في خلع صدام حسين، وهو عرض قوبل بالرفض وجرى طرده رسميًا من المملكة العربية السعودية عام 1991 ليجد مأوى في السودان ولاحقًا في أفغانستان. وبوصفه وهابيًّا متشددًا، معاديًا للأميركيين وللغرب، ومدربًا بشكل ممتاز ومع كل المصادر التي يمكن لثروته وتقنيته الحديثة أن تقدمها، أصبح أسامة بن لادن عدوًّا خطرًا جدًّا لأميركا على وجه خاص وللقيم الغربية على وجه عام. وقد شنت منظمته، القاعدة، وهي شبكة إرهابية عالمية، هجمات على

مكتبة الفكر الجديد

الأميركية والقواعد العسكرية قبل مدة طويلة من الهجوم المذهل والمرعب على البرجين التوأمين في نيويورك. ومنذ ذلك الحين حدث التدمير الوحشي لناد ليلي في بالي مع خسائر هائلة في الأرواح، وقتل المسافرين الأبرياء في مدريد، وفي لندن مِنْ بَعْدُ. ويُزعم أيضًا، بدرجة ما من المعقولية، أن القاعدة، منذ سقوط صدام حسين في العراق، استغلت حالة حرب أهلية وشيكة في تلك البلاد، لشن حربها الإرهابية ضد بعض السكان المسلمين. وهكذا فإننا نعيش في عالم جرحته الهجمات الإرهابية التي تحدث من دون سابق إنذار، والتي تقتل وتعوق وتدمر حياة المدنيين الأبرياء، أكانوا مسيحيين أم يهودًا أم مسلمين، وكل هذا يُرتكب باسم الإسلام والقرآن الكريم.

إن القاعدة لا تمثل الإسلام، مع أنها تستغل المظالم الإسلامية الحقيقية لتسويغ أعمالها وتسيء استخدامها ـ وهي أعمال تسير بشكل مباشر على نحو يناقض تعاليم القرآن الكريم. إن الأسى القديم الذي سبّبه الاحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية يستغله هؤلاء القتلة القساة ليس لتوجيه عملائهم فحسب بل كذلك على هيئة عذر زائف من أجل حملة عالمية للقتل والفوضى.

إن فهم أساس العداء الحالي بين الغرب والإسلام مع نتائجه الرهيبة هو الخطوة الأساسية الأولى فحسب من أجل الاتفاق على حقيقتها المروعة. والسؤال الحيوي الذي يجب توجيهه هو «ماذا يمكن أن نفعل لتخفيف هذه المشكلة وحلها»؟




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل السادس عشر

تراث ومستقبل مشتركان

الذين لا يتعلمون من التاريخ - مدانون بتكراره!

تبين دراسة التاريخ المختصرة التي كشفتها هذه ص أن الثقافة الأوروبية تدين بدين ضخم وهائل لعالم الإسلام. لقد حافظ العلماء المسلمون على علم اليونان القديم وحسنوه، ووضعوا أسس العلوم والطب والفلك والملاحة الحديثة وألهموا بعض أعظم إنجازاتنا الثقافية. ولو لم يكن نتيجة التسامح المتأصل مع أهل الكتاب الجلي داخل العالم الإسلامي طوال أكثر من 15 قرنًا، لكان من المشكوك فيه جدًّا أن يتمكن الشعب اليهودي من البقاء بشكل كيان عرقي وديني، وكنا سنفقد مساهمته في الفن والطب والعلم والأدب والموسيقى التي لا حدود لها تقريبًا. ونحن في الغرب ندين للعالم الإسلامي بدَيْنٍ لا يمكن تسديده كليًّا. وعلى الرغم من جذورنا الدينية والروحية المشتركة، فقد عَبّرنا عن شكرنا لهم بقرون من الارتياب ووحشية الحملات الصليبية والهيمنة الإمبريالية التي كانت تجري بلامبالاة قاسية تجاه حاجات الشعوب التي قمنا باستغلالها.

وعلى الرغم من حدوث ذلك في الماضي، تصاعدت غطرستنا الجماعية في الوقت الحالي فوق الحدود كلها تقريبًا، لأن القلة في أوروبا أو الولايات المتحدة إما أنهم يعرفون أو يهتمون بالدروس التي علمنا إياها إخوتنا المسلمون. وعلى نحو جماعي يبدو أننا نحسب العالم الإسلامي حالة راكدة، يسكنه شعب ذو عادات غريبة واعتقادات مبهمة تقريبًا. وتصبح البلاد العربية مهمة للغرب فقط حينما ننظر إليها على أنها مجموعة من محطات الوقود العملاقة؛ ومجرد مزودة للمادة الخام التي يعمل بها اقتصادنا، وهذا لا يكاد يشكل أساسًا لأي تفاهم واقعي بين شعوب ذات ثقافات ومعتقدات مختلفة

مكتبة الفكر الجديد

مرت الأمم الأوروبية كلها في مراحل استبداد ودكتاتورية وصراع مدمر، ولكن مع المد المتصاعد للتعليم وإلهام جماعة البنائين الأحرار اللذين يوجهان أحلامنا بالديمقراطية تجاوزنا ذلك، أحيانًا بسلام وأحيانًا بتمرد عنيف. والحقيقة أن التحرك نحو الديمقراطية حدث في القرن الأخير أو نحوه فحسب، وهو إجراء لا يزال مستمرًّا في أجزاء من أوروبا الشرقية اليوم. وعلينا الاعتراف أن المشكلات السياسية الداخلية للدول الإسلامية، مهما تكن طبيعة أنظمتها، يجب ترك حلها لشعوبها. وقد أثبت التاريخ دون أدنى شك أن العالم الإسلامي مؤسس على مبادئ روحية لها قدرة فطرية على تشجيع التسامح والتفهم ودعم الأخوّة بين جميع الأعراق والمذاهب. بالإضافة إلى ذلك، إن له الحق نفسه في التطور بما يتفق مع حاجات شعوبه وتطلعاتها كما فعلت الأمم الأوروبية قبله. لقد كانت بريطانيا وفرنسا وأميركا وروسيا كلها مشاركة في التوقيع على ميثاق تأسيس منظمة الأمم المتحدة ويذكر أحد شروطها الأساسية أن ما من دولة تمتلك حق التدخل في الشؤون السياسية الداخلية لدولة أخرى، وهي قاعدة جرى اختراقها مرات عدة من الولايات المتحدة الأميركية وعدد من دول أوروبية.

إن ممثلينا المنتخبين في الغرب هم خدمنا المنتخبون وليسوا سادتنا. ويجب ألا تكون لديهم حرية شن حروب عدوانية من دون موافقة الشعب الذي يخدمونه. كما يجب ألا يكون مسموحًا دعم أنظمة قمعية من أجل المصالح التجارية فحسب. يجب تشجيع التجارة دائمًا، ويجب منع المساعدة المالية للاستبداد. إن الدستور الأميركي يبدأ بالكلمات «نحن الشعب». هل تمت استشارتنا «نحن الشعب» حول الحروب في أفغانستان أو العراق؟ هل طُلبت موافقتنا قبل تسليح صدام حسين؟ أشك في هذا. لقد دخلت الحكومة البريطانية الحرب ضد العراق على الرغم من المظاهرات المناوئة للحرب في لندن وفي مدن كبيرة أخرى شارك فيها أكثر من مليون شخص، وجعلت تلك الحرب الوضع أسوأ بشكل لا حدود له، وليس أفضل. وهي لم تحل المشكلات، بل أوجدتها.

إن حالة القمع المستمرة تقريبًا للشعب الفلسطيني من الإسرائيليين يجب أن تنتهي بإقرار السلام العادل والمنصف الذي يمنح إسرائيل الأمن الذي تستحقه ويقيم دولة فلسطينية قادرة على الاستمرار اقتصاديًّا وسياسيًّا ـ وهو مفهوم مقبول من حيث المبدأ لكنه يبدو طريقًا بعيدًا كما كان دائمًا. أما بالنسبة إلى تنظيم القاعدة، المحروم من ه

مكتبة الفكر الجديد

دعايته الأساسية، أي دعم القوى الغربية لإسرائيل والتدخل في العراق وأفغانستان، فإنه يضعف بمرور الوقت، لأنه أصبح مصدر إحراج حاد داخل الإسلام وخطرًا أكبر على المسلمين من القوى الغربية.

إن العمل داخل هذا الإطار البسيط يتطلب شجاعة؛ وقد توسطت الحكومة الأميركية سابقًا لعقد معاهدة سلام بين إسرائيل ومصر، وحان الوقت لتعمل ثانية، وعلى نحو عملي هذه المرة، بإحضار الإسرائيليين والفلسطينيين إلى طاولة المفاوضات من دون شروط مسبقة. ويجب ترك قوات الأمم المتحدة، المفضل تشكيلها من الدول العربية، لإعادة النظام في العراق وعلى الحلفاء الغربيين الانسحاب بأسرع ما يمكن. ويجب أن تكون المساعدة الغربية لتلك الدولة المضطربة سخية في التعويض عن الضرر الهائل الذي حدث.

هل يستطيع العالم الإسلامي أن يحل مشكلاته؟ لقد قام بذلك في الماضي، وبفضل المبادئ الأساسية في دينه، لقد فعل ذلك بتسامح واحترام تجاه المعتقدات والثقافات الأخرى، وهو درس لا يزال على الغرب أن يُقدره عاليًا. بدعم إيمان المسلمين القوي والثابت، وتشبّعهم بالرغبة في الحرية، من يستطيع أو ماذا يمكن أن يوقفهم؟ لقد ألهم دين الإسلام الكثير سابقًا وسينتصر ثانية ضمن الميادين حيث لديه فيها تجربة أكثر من الآخرين ـ التسامح والإبداع والاحترام. لنمنحهم الاحترام نفسه الذي أبدوه لنا عندما شاركونا، من دون شرط، في ثمار ثقافتهم.





مكتبة
الفكر الجديد

ثبت مختار للمراجع

1 - أبتون ـ وورد، ج. م.، **حكم فرسان الهيكل**، مطبعة بويدل، 1992.

2 - إبشتاين، إيزادور، **اليهودية**، بنغوين 1964.

3 - أدلر، م. ن.، **مخطط رحلة بنجامين أوف توديلا**، مطبعة جوزيف ديمون بانغلوس، 1993.

4 - إدواردز، **أهرام مصر**، بنغوين، لندن، 1986.

5 - أديسن، تشارلز ج.، **تاريخ فرسان الهيكل**، بلاك بوكس، 1995.

6 - أرمسترونغ، كارين، **تاريخ القدس**، هاربر كولنز، 1996.

7 - أرمسترونغ، كارين، **تاريخ الله**، مندرين، لندن، 1994.

8 - أرمسترونغ، كارين، **محمد**، هاربر كولنز، سان فرنسيسكو، 1993.

9 - أكبر، س. و. أحمد، **اكتشاف الإسلام**، روتلدج، لندن، 2002.

10 - إلدر، إيزابيل هيل، **الكلتيون والدرويد والكولديون**، شركة كوفنانت المحدودة للنشر، 1994.

11 - أليغرو، ج. م.، **مخطوطات البحر الميت والأسطورة المسيحية**، أباكوس، لندن، 1981.

12 - أليغرو، ج. م.، **مخطوطات البحر الميت**، بنغوين، 1964.

13 - أندرسن، وليم، **نشوء القوطيين**، هتشينسون، لندن، 1985.

14 - أورتن، بريفيت، **الخطوط العامة لتاريخ العصور الوسطى**، منشورات جامعة كمبردج، 1916.

15 - أوشي، ستيفن، **الهرطقة المثالية**، منشورات بروفيل المحدودة، 2000.

16 - أولدنبورغ، زوي، **مذبحة في مونسيغور**، فينيكس، 1999.

17 - أويه، ميشيل، **دولة الزنادقة**، م س م، 1995.

18 - أيزنمان، روبرت ووايز، مايكل، **اكتشاف مخطوطات البحر الميت**، إلمنت، 1992.

19 - أيزنمان، روبرت، **المكابيون والصدّوقيون والمسيحيون والقمران**، إ. ج. بريل، 1983.

20 - أيزنمان، روبرت، **مخطوطات البحر الميت والمسيحيون الأوائل**، إلمنت، 1996.

21 - أيزنمان، روبرت، **يعقوب أخو المسيح**، فابر وفابر، 1997.

22 - إيسرلين، ب. س. ج.، **الإسرائيليون**، تايمز وهدسون، لندن، 1998.

23 - باربر، مالكولم، **الزنادقة**، برسون إدجوكيشن المحدودة، 2000.



24 - باربر، مالكولم، **محاكمة فرسان الهيكل**، منشورات جامعة كمبردج، 1994.
25 - بارتنر، بيتر، **فرسان الهيكل وأسطورتهم**، منشورات دستيني، 1990.
26 - بارينغ، أ. وكاشفورد، ج.، **أسطورة الإلهة**، بنغوين، 1993.
27 - باوفال، ر. وجلبرت، أدريان، **لغز أوريون**، وليم هاينمان، 1994.
28 - باوفال، ر. وهانكوك، ج.، **القيّم على التكوين**، وليم هاينمان، لندن، 1996.
29 - باول، مارك ألين، **نقاش المسيح**، منشورات ليون، 1998.
30 - باويل، لويس وبرجييه، جاك، **فجر السحر**، جيبس وفيليبس، 1963.
31 - بايجنت، لاي ولينكولن، **الدم المقدس والكأس المقدسة**، جوناثان كيب، 1982.
32 - بايجنت، مايكل ولاي، ريتشارد، **تضليل مخطوطات البحر الميت**، كورغي، 1992.
33 - بايجنت، مايكل ولاي، **محكمة التفتيش**، بنغوين، 1999.
34 - بتري، ف.، **دين مصر القديمة**، كونستابل، لندن، 1908.
35 - برناوي، علي، **أطلس تاريخي للشعب اليهودي**، هتشينسون، 1992.
36 - البريدج، أنتوني، **الحملات الصليبية**، غرناطة، لندن 1980.
37 - بريستد، ج. هـ.، **تطور الدين والفكر في مصر القديمة**، مطبعة جامعة بنسلفانيا، فيلادلفيا، 1972.
38 - بوردونوف، جورجيس، **الحياة اليومية لفرسان الهيكل**، هاشيت، باريس، 1990.
39 - بورمان، إدوارد، **فرسان الهيكل**، دار ساتن للنشر، 2004.
40 - بورمان، إدوارد، **فرسان الهيكل، فرسان الله**، منشورات دستيني، روتشستر VT، 1990.
41 - بورمان، إدوارد، **محكمة التفتيش: مطرقة الهرطقة**، مطبعة أكواريان، 1984.
42 - بوسيل، ف. و.، **فكر الدين والهرطقة في العصور الوسطى**، روبرت سكوت، لندن، 1918.
43 - بيترو، م. س.، **الأحرف الهيروغليفية، أسرار الكتابة**، فلاماريون، 1995.
44 - بيد، **تاريخ الكنيسة والشعب الإنكليزيين**، بنغوين، 1978.
45 - بيرتن، ماك، **من كَتَب العهد الجديد؟**، هاربر كولنز، سان فرانسيسكو، 1989.
46 - بيركس، نورمان وجلبرت، ر. أ.، **كنز مونسيغور**، مطبعة أكواريان، 1990.
47 - بينهارت، حاييم، **أطلس التاريخ اليهودي في العصور الوسطى**، روبرت لافونت، 1970.
48 - تايلور، جوان إ.، **المعمدان: يوحنا المعمدان في يهودية الهيكل الثانية**، شركة وم ب إيردمانز للنشر، 1997.
49 - تريفور روبير، هيو، **نشوء أوروبا المسيحية**، تايمز وهدسون، 1965.
50 - ثيرستن، هيربيرت (ترجمة) مذكرة ب. دارسيس، جزء من مقالة «الكفن المقدس ورأي التاريخ» نُشرت في **مجلة الشهر** CI 91903) ـ توجد الوثيقة الأصلية في مجموعة المكتبة الوطنية في باريس ضمن مجموعة دي شامبين، الجزء 154 ص 138.
51 - جوزيفوس، **عصور اليهود القديمة وحروب اليهود**، نيمو، 1869.
52 - جونسن، بول، **تاريخ المسيحية**، ويدنفلد ونيكلسن، لندن 1978.



53 - جونسن، بول، **تاريخ اليهود**، منشورات أوريون، لندن 1993.

54 - جيبون، إدوارد، **انحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها**، 8 أجزاء، جمعية فوليو.

55 - جيدين، هيوبرت (تحرير)، **تاريخ الكنيسة**، الجزء 1، بيرنز وأوتس، 1989.

56 - جيمز، برونو س.، **سانت برنارد أوف كليرفو**، هودر وستوتون، لندن 1957.

57 - حسنين، البروفسور فداء، **بحث عن المسيح التاريخي**، منشورات غيتوي، 1994.

58 - دولي، تيم، **تحرير، تاريخ المسيحية**، منشورات ليون، هيرتس، 1977.

59 - دوليفيه، أ. ف.، **عودة اللغة العبرية، عصر الإنسان**، باريس، 1990.

60 - دي سانت كلير، ل ـ أ، **تاريخ نسب عائلة سانت كلير**، باريس، 1905.

61 - دي فري، سيمون، **الزنادقة، البلاد والعادات والقلاع**، مطبعة كومتال، 1993.

62 - دي كليري، روبرت، **غزو القسطنطينية**، (ترجمة إ. هـ. نيل)، جامعة تورنتو، 1997.

63 - دي لانج، نيكولاس، **أطلس العالم اليهودي**، منشورات غيلد، لندن 1984.

64 - دي لوبيز، رينيه شوالر، **العلم المقدس، تقاليد داخلية دولية، 1988.**

65 - راتشي، **التوراة وفقًا لراتشي، الخروج**، صموئيل وأوديت ليفي 1993.

66 - راتشي، **التوراة وفقًا لراتشي، سفر التكوين**، صموئيل وأوديت ليفي، 1993.

67 - رافنسكروفت تريفور ووالاس ـ ميرفي، تيم، **سِمة الوحش**، منشورات سفير، لندن، 1990.

68 - رافنسكروفت، تريفور، **كأس القدر**، صموئيل ويسير، 1982.

69 - رانك ـ هينيمان، يوت، **إهمال الأشياء الطفولية**، هاربر كولنز، 1995.

70 - رايت، إزموند، **عالم العصور الوسطى وعصر النهضة**، هاملين، 1979.

71 - رايس، م.، **إنشاء مصر: أصول مصر القديمة 5000ـ2000 قبل الميلاد**، لندن، 1990.

72 - رزنيكوف، ريموند، **الزنادقة وفرسان الهيكل**، طبعات لوباتيير، 1993.

73 - روبنسن، جون ج.، **الزنزانة والنار والسيف**، مطبعة بروك هامبتن، 1999.

74 - روبنسن، جون ج.، **مولود في الدم**، منشورات أرو 1993.

75 - روبنسن، جون م.، (تحرير)، **مكتبة نجع حمادي**، هاربر كولنز، 1990.

76 - روث، سيسيل، **تاريخ مختصر للشعب اليهودي**، مكتبة الشرق والغرب، لندن، 1953.

77 - رول، ديفيد م.، **اختبار للوقت**، سنتشوري، لندن، 1995.

78 - رونسيمان، ستيفن، **تاريخ الحملات الصليبية**، 3 أجزاء، بليكان، 1971.

79 - ريتشاردسون، بيتر، **هيرودوس، ملك اليهود وصديق الرومان**، مطبعة جامعة كارولينا الجنوبية، 1996.

80 - ريغان، جفري، **قلبا الأسد: صلاح الدين وريتشارد الأول**، كونستابل، لندن، 1998.

81 - رين، ج.، **دراسات حول وضع اليهود في ناربون**، طبعات لافيت المعادة، مرسيليا، 1981.

82 - زوكرمان، أ. ج.، **إمارة يهودية في فرنسا الإقطاعية 768ـ900**، مطبعة جامعة كولومبيا، 1972.

83 - سانميل، س.، **اليهودية وبدايات المسيحية**، منشورات جامعة كمبردج، نيويورك، 1978.

84 - ستراتشان، غوردن، **شارتر**، منشورات فلوريس، 2003.



85 - ستويانوف، يوري، **التقليد الخفي في أوروبا**، أركانا، 1994.
86 - **سفر هاجاشا**، براغ 1840.
87 - سميث، مورتن، **الإنجيل السري**، مطبعة أكواريان، 1985.
88 - سيج، ج.، **يهود لانغدوك**، غريغ الدولية، فرانبورو، 1991.
89 - سيروس، جورجيس، **أرض الزنادقة**، طبعات لوباتيير، Portet_sur_Garonne، 1990.
90 - سيلين إي. أ. ديكرتش، **موسى وأهميته بالنسبة إلى الدين الإسرائيلي - اليهودي**.
91 - سيوارد، ديزموند، **رهبان الحرب**، جمعية فوليو، 1999.
92 - شاربنتييه، لويس، **أسرار فرسان الهيكل**، لافونت، 1993.
93 - شاربنتييه، لويس، **أسرار كاتدرائية شارتر**، RILKO، 1993.
94 - شاه، إدريس، **الصوفيون**، جوناثان كيب وشركاه، 1969.
95 - شونفيلد، هيو، **ثورة عيد العنصرة**، إلمنت، 1985.
96 - شونفيلد، هيو، **رحلة الإيسيني**، إلمنت، 1985.
97 - شونفيلد، هيو، **مؤامرة عيد الفصح**، إلمنت، 1985.
98 - صباح، م. ور.، **أسرار الخروج**، غودفروي، باريس، 2000.
99 - عثمان، أحمد، **خارج مصر**، ستشوري، لندن 1998.
100 - عثمان، أحمد، **موسى غريب في وادي الملوك**، مطبعة فريثوت، 2001.
101 - عثمان، أحمد، **موسى، فرعون مصر**، بالادين، 1991.
102 - غاردنر، لورنس، **سلالة الكأس المقدسة**، منشورات إلمنت، 1995.
103 - غلوفير، ت. ر.، **صراع الأديان في الإمبراطورية الرومانية المبكرة**، مثيوين وشركاه، لندن، 1909.
104 - غودوين، جفري، **إسبانيا الإسلامية**، منشورات كرونيكل، 2000.
105 - غويون، ج.، **سر بناء الأهرام الكبيرة**: خيوبس، بغماليون، باريس، 1991.
106 - غيبان ومواسوانوف، **تاريخ الزندقة** لـ بيير دي فو دو شارني **Histoire Albigeoise** de Pierre des Vaux_de_Chernay، باريس، 1951.
107 - غيردهام، آرثر، **الهرطقة الكبيرة**، س. و. دانيال، سافرون والدن، 1993.
108 - غيوم، ألفريد، **الإسلام**، بنغوين، لندن 1956.
109 - فاندنبروك، أندريه، **الكيمي**، مطبعة لينديسفارن، 1987.
110 - فرويد، س.، **موسى والتوحيد**، لندن 1939.
111 - فليتشر، ريتشارد، **الصليب والهلال**، ألين لين، بنغوين، لندن، 2003.
112 - فوسيير، روبرت (تحرير) **العصور الوسطى**، 3 أجزاء، منشورات جامعة كمبردج، 1989.
113 - فوكس، روبن لين، النسخة غير المعتمدة: **الحقيقة والخيال في الكتاب المقدس**، بنغوين، 1991.
114 - فوكس، روبن لين، **الوثنيون والمسيحيون**، بنغوين، 1988.



115 - فوكنر، روبرت، **كتاب الموتى المصري القديم**، مطبعة المتحف البريطاني، لندن، 1972.

116 - فوكنر، روبرت، **نصوص الأهرام المصرية القديمة**، أريس وفيليبس، وارمنستر، 1993.

117 - فوكنر، نيل، **الرؤيا ـ الثورة اليهودية الكبرى ضد روما، 66ـ73 ميلادي**، تمبوس المحدودة للنشر، 2002.

118 - فيذر، ر.، **المخطوطة النحاسية مترجمة**، ثورسونز، لندن، 1999.

119 - فيرمز، غيزا، **المسيح اليهودي**، دار نشر أوغسبرغ كاسل، 1981.

120 - فيشر، هـ. ل. أ.، **تاريخ أوروبا**، إدوارد آرنولد وشركاه، 1936.

121 - فيليبس، جراهام، **تراث موسى**، سيدجويك وجاكسن، لندن 2002.

122 - كاتب مجهول، **الجمعيات السرية في العصور الوسطى**، شركة ر. أ. كيسنجر للنشر، 2003.

123 - كانتور، ن.، **السلسلة المقدسة ـ تاريخ اليهود**، فونتانا، لندن، 1996.

124 - كانون، دولوريس، **المسيح والإيسينيون**، منشورات غيتوي، 1992.

125 - **الكتب المفقودة من الكتاب المقدس**، منشورات جراميرسي، نيو جرسي، 1979.

126 - كروسان، جون دومينيك، **المسيح ـ سيرة ذاتية ثورية**، هاربر كولينز، 1994.

127 - كريستي موراي، دافيد، **تاريخ الهرطقة**، منشورات جامعة كمبردج، 1989.

128 - كوتيريل، م.، **نبوءات توت عنخ آمون**، هدلاين، لندن، 1999.

129 - كوستن، مايكل، **الزنادقة والحملة الصليبية ضد الزنادقة**، مطبعة جامعة مانشستر، 1997.

130 - كوهن ـ شيربوك، دان، **موسوعة مختصرة عن اليهودية**، ونوورد، أكسفورد، 1998.

131 - كيرستن، هـ. وغروبر، إ. ر.، **المؤامرة على المسيح**، إلمنت، 1994.

132 - لاكروا، ب.، **الحياة العسكرية والدينية في العصور الوسطى**، تشابمان وهول، 1874.

133 - لي، هـ. س.، **محكمة التفتيش في العصور الوسطى**، نيويورك 1955.

134 - ليروي، تيري، هوغ دو بينز، **فارس شمبانيا، مؤسس نظام فرسان الهيكل** **Hughues de Payns، Chevalier Champenois, Fondateur de L'Ordre des Templiers**، طبعات دار نشر بولانجيه، فرنسا، 2001.

135 - ليزران، **ملف قضية فرسان الهيكل**، 1923.

136 - ماسبيرو، غاستن، **مجموعة أعمال في فقه لغة علمي الآثار المصري والأشوري** **Recueil des Travaux Relatifs à la Philologie et l'Archaeologie Egyptiennes et Assyriennes**، 3، ترافو، باريس، 1878.

137 - ماك، بيرتن ل.، **الإنجيل المفقود**، إلمنت، 1993.

138 - ماكمانرز، جون (تحرير)، **تاريخ أكسفورد عن المسيحية**، منشورات جامعة كمبردج، 1993.

139 - ماكنيل، إ. هـ.، **غزو القسطنطينية**، روبرت دي كلاري، مطبعة جامعة تورنتو، 1997.

140 - مالمز، **تاريخ الملوك**، جورج بيل وأولاده، لندن 1908.

141 - مور، ر. ي.، **تشكيل مجتمع مضطهد**، باسيل بلاكويل وشركاه، أكسفورد 1990.

142 - مور، ل. دافيد، **المؤامرة المسيحية**، مطبعة بندولوم، 1983.



143 - موراي، ديفيد كرستي، **تاريخ الهرطقة**، منشورات جامعة كمبردج، 1976.
144 - موسى بن ميمون، عوبيديا، **رسالة البركة**، مطبعة أوكتاغن، 1981.
145 - نايت، كريس ولوماس، روبرت، **المسيح المنتظر**، سنتشوري، 1997.
146 - نيكلسن، هيلين، **الفرسان الصليبيون المعالجون**، مطبعة بويدل، 2002.
147 - نيكلسن، هيلين، **فرسان الهيكل**، دار ساتن للنشر، 2004.
148 - نيكلسن، هيلين، **فرسان الهيكل**، دار ساتن للنشر، 2004.
149 - هاتشتاين، ماركوس ودليوس، بيتر (تحرير) **الفن والعمارة الإسلاميان**، كونمان، كولون، 2000.
150 - هالام، إليزابيث (تحرير)، **سجلات الحملات الصليبية**، منشورات براملي، 1997.
151 - هاملتن، ب.، **الحملة الصليبية الزنديقة**، الجمعية التاريخية، لندن، 1974.
152 - هاميل، جون وجلبرت، **الماسونية العالمية**، مطبعة أكواريان، 1991.
153 - هانكوك، جراهام، **العلامة والختم**، كتب مندرين ذات الأغلفة الورقية، 1993.
154 - هاي، الأب، **سلالة سانت كلير أوف روسلين**، ميدمان، أدنبرة، 1835.
155 - هولمز، جورج (تحرير)، **تاريخ أكسفورد المصوّر للعصور الوسطى**، منشورات جامعة كمبردج.
156 - والاس - ميرفي وتيم وهوبكنز، مارلين، روسلين: **حارسة أسرار الكأس المقدسة**، منشورات إلمنت، 1999.
157 - والاس - ميرفي، ت.، هوبكنز، م.، سيمانز، ج.، **الملك الإله**، منشورات إلمنت، 2000.
158 - والاس - ميرفي، تيم، **تراث فرسان الهيكل والميراث الماسوني في معبد روسلين**، أصدقاء روسلين، 1994.
159 - ولبورن، أندرو، **بدايات المسيحية**، فلوريس، 1991.
160 - ولسون، أ. ن.، **المسيح**، هاربر كولنز، 1993.
161 - ولسون، أ. ن.، **بولس، عقل الحواري**، بيمليكو، 1998.
162 - ولسون، كولن، (تحرير)، **رجال السر**، و. هـ. ألين، لندن، 1977.
163 - ولسون، كولن، **الغيبيون**، منشورات غرافتون، 1979.
164 - ولسون، كولن، **من أطلانطس إلى أبي الهول**، منشورات فيرجن، لندن 1997.
165 - وورد، كولن، **شارتر، صناعة معجزة**، جمعية فوليو، 1986.
166 - ويست، جون أنتوني، **ثعبان في السماء**، هاربر كولنز، لندن، 1979.
167 - ويكيفيلد وإيفانس، **هرطقة العصور الوسطى**، مطبعة جامعة كولومبيا، 1991.
168 - ويهول، أ. إ. ب.، **حياة أخناتون وعصره**، لندن، 1910 و1923.
169 - ويهول، أ. إ. ب.، **رحلات في الصحراء المصرية العليا**، لندن 1909.
170 - يوسابيوس، **التاريخ الكهنوتي**.
171 - [illegible] **und seine Bedeuturng fur die israelitisch–judische Religiosgeschichte**, [illegible]i-chertsche, 1922.



الكتاب

على الرغم من أزمنة الاضطراب التي يمر بها العالم حاليًا، والتي تصاعدت في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول عام 2003، واحتلال العراق وأفغانستان، والعمليات التي تسمى بالانتحارية ضد المصالح الغربية وانتشار الحركات الجهادية المتطرفة، التي ظهرت نتيجة شعور دائم هو أن الإسلام مازال يتعرض للهجوم الغربي الذي لا يتوقف، تظهر في خضم هذه الأحداث كتب تدرس حجم الإسهامات التي يدين بها الغرب لتبصرات الإسلام الروحية وهو حقًا أمر لافت للنظر. يقدم الكتاب الحالي عرضًا واسعًا للجذور المشتركة بين اليهودية والمسيحية والإسلام ساعيًا في الوقت نفسه إلى إظهار إسهامات الإسلام العظيمة في المجتمع الغربي، بما في ذلك إرساء أسس أنظمة التربية والتعليم والفلك والرياضيات والهندسة. كما يبين كيفية قيام القوى الغربية الأوروبية في إذكاء نار الأزمة الراهنة في الشرق الأوسط، ولماذا يجب على الجميع البحث عن حل عادل متوازن للمشكلات الناجمة عن هذه الأزمة. وفقًا لميرفي إن إحراز التفاهم بخصوص ذلك لا يمكن أن يبدأ إلا بالاعتراف الصريح بالتراث الروحي المشترك بين الغرب وعالم الإسلام، بما في ذلك مبادئ التسامح الديني واحترام العلم ومفاهيم الأخوة والفروسية.

على القارئ العربي الانتباه إلى أن هذا العمل كتب في مجمله من منظور فكري غربي ويخاطب من حيث الأساس القراء الغربيين، وأن يأخذ في الحسبان أنه سيصادف أفكارًا تعجبه وأخرى قد تستوقفه؛ لذلك كانت القراءة المطلوبة في التعامل مع المعلومات الواردة تستدعي التأني والتفكر والنقد أيضًا؛ وستؤدي هذه القراءة بدورها إلى نظرتين فكريتين مختلفتين في أثناء تكوين رأي تقويمي للكتاب.





